أدهم العبودي

الطيبون

رواية



الطيبيون

أدهم العبودي

الطَّبعة الأولى: مايو 2014

رقم الإيداع:

ردمك:

غلاف: أحمد مراد

الإخراج الداخلي: آب إمام

دار الربيع العربي

للطباعة والنشر والدِّعاية والإعلان

المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم

17 شارع مجلس الشعب، لاظوغلي،
وسط البلد، القاهرة، مصر

002- 02- 27942836
002- 01141411118
002- 01140848568

www.rabe3arabe.com
rabe3arabe@gmail.com



كافةُ الحُقوقِ محفوظةٌ للناشر©

ولا يحقُّ لأيِّ فرد أو جهة النقلُ أو الاقتباسُ دون إذنٍ كتابيٍّ.



الطِّيبِيُّون

أبي

امنحني بعثًا أزليًّا

واقرأني عزَّة

-في تلك الأنشودة-

مطلًّا من نافذتك

المُعلَّقة في السَّماء

شكر

أستاذي/ بهاء طاهر

الذي ظلَّ يقدِّمني للأدباء على أنِّي ابنه.. وما زال يفعل.

أستاذي/ أمير تاج السِّر

الذي منحني من محبَّته ما يجعلُني العُمرَ في غير احتياج لأيِّ نوع آخر من زهو ومن فخر.

أستاذي/ محسن يونس

أعلمُ أنِّي أثقلت عليك، فسامحني.

ناشري/ أحمد سعيد

الذي تحمَّس لي إنسانًا قبل أن يتحمَّس لي كاتبًا.

صديقي/ محمّد متولي

أنت نوع آخر من الأصدقاء، لولا ما أوحيتَ لي، ما اكتملتْ رؤيتي.

وبعضٌ مِمَّا أُرِّخَ -مع ذلك- يحتملُ التَّأويل.

«حافظ على مُهادنة الجنوب الذي يأتي إليك مُحمَّلًا بالهدايا. وما دام الجرانيت يأتي إليك دون عائق، فلا تُحدِث تلفًا بآثار آخرين، واقطع أحجارك من محاجر طرة، وإذا كانت تخومك من جهة الصَّعيد في خطر، فإنَّ الحال كذلك من جهة البدو الذين يتمنطقون بالحزام، ويجب عليك أن تُقيم حصونًا لصدِّهم في مصر السُّفلى»

(واح- كا- رع- خيتي)

-ملك هرا كليوبوليس-

إشارة

النصوص المائلة مقتبسة من بعض المخطوطات الفرعونية بتصرّف.

المدينة الحجرية

بوّابة تلاق

المساء هشٌّ، سرعان ما يتكسّر فوق حواف سور معبد «الكرنك» العتيد وهو يلج إلى المدينة الحجرية الناعسة، يخب ويتعثّر، بينما تبدو قواه تأخذ في الوهن أكثر فأكثر كلّما أوغل في التسلّل داخل حرم المعبد، يفترش على استحياء -كأنّما يستأذن- بهو الأعمدة الضخمة التي تنصرف نحو السماء في إجلال وإكبار، تقف في شموخ متأصّل وتحدج كلّ البيوت الغافية تحتها في اعتزاز وتباه وفي صلف، كأنّها تقول: هنا في هذا المكان تقوم الحكايات ولا تندثر، تمتدّ بتأثيرها وسطوتها على طول الزمن، يؤجّجها الإرث ويبقيها غير منسية ولا منقضية.

هذا المساء، كانت ريح صبيّة متدلّلة قد تسلّقت النخل المترامي في جوف المعبد فراح يتمايل متضوّعًا، بدا كما لو يدندن في خشوع، يدنو برؤوسه المحشوّة بالبلح الطريّ المترنّح -الموشك على السقوط- من قامات الأعمدة ويلاطفها، يداعبها كأنّه يخشاها، وإن كان يخشى من كِبر أو وهن، فالأعمدة لا تفعل، تبقى حيثما يبقى الزمن في صيرورة وزهو وبهاء، ولن تفنى إلّا بفنائه، تبقى سامقة ثابتة لا تعرف الهرم ولا الضعف، تحتوي كلّ المدينة بين عيونها التي لم تنم منذ أكثر من سبع آلاف سنة، كانت بمثابة الحارس المعيّن أزلًا بقدسية الأجداد كمخطوط فوق جبين «الكرنك». في هذا المساء كان النخل -ككلّ مساء- يحتمي من الظلمة المراوِغة بهالة الأعمدة التي تخترقها في ضراوة وفي

غير خشية، وغلالة من رهبة ومن تسيّد تحفّ أحجار المعبد والأجواء.

أسفل الأعمدة يعدو الظلّ، يرتعش، لا ينظر للوراء ولا يجسر، يجترّ بقدميه مسافات براح البهو المتمطيّة في استراحة وهدوء وفي سكينة. نحيفًا كان، وله ساقان رفيعتان طويلتان، لكنّها لا تؤازره بأيّ قدر على الفرار، يلهث في رعب وفي سرعة، يقبض بين أسنانه على ذيل الجلباب خشية السقوط، فأن ينكفئ على وجهه لا قيام بعدها، يثق في أنّ من يلاحقه لن يدعه ينهض ثانية من دون الاستيلاء على مخّه، فيمضي في عدوه كأنّ أبالسة الكون ذاتهم يلاحقونه، لم يكن يستنبط -بقصر تفكيره- أنّه سيرى «عيط الله»؛ أكذوبة المكان، وجهًا لوجه، وأنّه الوحيد من بين كلّ رجال المدينة، وكلّ أهلها والجن والعفاريت، هو الذي يقبض عليه متلبّسًا بالجرم.

جعل يركض، وأنفاسه المتلاحقة تتردّد في قلب البهو كصدى خافت مؤرّق يشبه الفحيح، يبدّد اطمئنان سكّان المعبد القدامى وراحتهم، يكاد يوقظهم من الوسن الذي لفّهم لقرون وقرون، إنّما لم يكن يدري أنّه يومًا قد يصبح طريدة «عيط الله» بنفسه، برعبه المتأصّل في تاريخ الأسلاف وهيبته وجبروته، وأنّه سيتجرّع كلّ هذه البيوت وكلّ هذه الحجارة حافيًا، يخلع مداسه ويرمح جاريًا كشظية من توتر وذعر. كان النخيل يستدير ليرمقه في استهجان وفي أنفة، يود لو أنّ «القعوف» تتحوّل إلى أياد تتلقّفه من فوق بساط الأرض وتعلّقه في الفضاء، عقب أن أقلق استرخاءها، وصرف كلّ الطيور المستكينة بين سباطها، وقد اندفعت نحو صدر السماء تشقّ صفاء ضوء القمر كعامود من

دخان، لكنّه يمرق في سرعة وارتعاد من بينها ليزوغ من «عيط الله».

جال بخاطره لو أنّ أحد الإنس قد قبض عليه وهو يخرج من «حوش عوضين» بالبهيمة، لكان أهون عليه. صحيح سوف يسلمونه لقسم الشرطة فتصبح قضية، لكنّه تعوّد على البيات داخل الحبس، وتعوّد أكثر على البهدلة، لن يضيره يوم أو أكثر يقضيهم في القسم ثم يطلع، بل لن يضيره بأيّة حال أن يستقبل قفاه صفعات الصولات والخفر، كم صُفع من ذي قبل، وكم تمرّغ في تراب السكك على يد الخلق! لكن الذي سيضيره حتمًا أن يتلبّسه «عيط الله» ويبدّل عقله، فيعيش الباقي من حياته مخبولًا، بنصف مخ.. ونصف وعي.

أخذ يعدو ويعدو، ومن ورائه يقترب وقع الأقدام بسرعة تجاوز سرعته. (أعوذ بالله) هاتف نفسه في تأنيب يُوشك على اليأس: منذ متى «وعيط الله» يحمي بيوت ناس «الكرنك»؟ كيف نزل من داره المقامة فوق بوابة معبد «خنسو»[١] الرابض على مقربة من معبد «الكرنك» وترصّده؟ أخذته رعدة الخوف أكثر، اشتغلت ساقاه أكثر، فبدا ينهب قوام الطريق ليس محترزًا -عبر ذلك الهلع- أن يندلق فوقه فداءً بخسًا للحماقة، وكانت أنوار الشارع الرئيس النافرة من بعيد قد راحت تلوح في دنو بطيء، فتحفّز أكثر، يدرك أن «عيط الله» غير مسموح له بالخروج من حيّز المعبد، لعنته أن يسكن فوق بوابة «خنسو»، لا هو جن ولا هو إنس، مجرّد كيان، لا هوية محدّدة له ولا كينونة ولا مسمّى غير «عيط الله»، فمجرّد ذكر ذلك الاسم ترتجف الأبدان كما لا ترتجف لذكر لفظ في هذا البر، يعاقبه ساسة الفراعنة على

انتهاك حرمة المعبد منذ زمن لا يقف على بدايته -بشكل وثيق- مخلوق؛ هكذا تُسرد الأسطورة.

أنوار الشارع تقترب، وقدما «عيط الله» تتبعانه في إصرار، كاد يبكي، تضرّع لله أن ينجّيه، ولعن «سلسفين» اليوم الذي صار فيه نطّاطًا على البيوت، توبة يا رب، فقط انجدني من ملاحقة «عيط الله». كان «عبيد» قد بات جذوة متوقّدة من روع تشق سكون الليل هربًا، ومنظر «عيط الله» يستقر أمام رأسه.

كم كان غبيًّا حينما صرفه هدوء الجو عن جسّ موطن الخطر، كان طالعًا بالبهيمة في أمان الله من «حوش عوضين»، ولا يدري كيف بدت بوابة «عيط الله» هي الأقرب للزوغان عن الأعين حتّى لا يلمحه رجل، جرّ البهيمة ودلف من البوابة قاصدًا الناحية الأخرى حيث الظلام يُخفي في طيّاته كلّ التفاصيل، وحيث بوابة معبد «الكرنك»؛ تلك الهادئة البعيدة عن البيوت، فيلف من وراء المعبد عبر درب غير مطروق، خاصّة في الليل، درب ينتهي إلى «حوش» بيته، فيظلّ متيقّظًا حتّى الصباح، منتبهًا، مترقّبًا انبثاق أول شعاع فجر، حتّى يطلع بالبهيمة من داره مطمئنًا، وحتّى يمكنه التصرّف فيها -حسب الاتّفاق المعتاد مع أحد التجّار- والبشر نيام، لكن عند ذاك -أول ما دلف من بوابة «عيط الله»- راحت الكلاب تنبح في رهبة وفي خنوع لبرهة، ثم أمسكت عن العواء مرّة واحدة، كما لو أصابها خرس فجائي، تدلّت رؤوسها إلى أسفل طائعة، كأنّ أمرًا صدر لها في خفاء كي تتوارى، ولّت تختبئ خلف حجارة فناء المعبد، وفي لحظة، بعد أن أخذ مندهشًا يراقبها بعينيه وهي تنسلّ مبتعدة ونباحها تحوّل إلى أنين خافت مغلوب، عاد بعينيه أمامه ليجد

«عيط الله» ذاته متجسّدًا واقفًا يرميه بنظرة الشرر، كأنّما قُدّ من عدم، في هيئة مذرية وخلقة مشوّهة، يرتدي جلبابًا بدا ليس بجلباب، بل مجرّد قطعة قماش بالية دسّ فيها جسمه، ارتدّ للخلف مصعوقًا، سمع من قبل أنّ الإنسان والحيوان، وربما الجان، يخشون من «عيط الله»؛ ذلك المسحور، لكنّه لم يحسب أنّه سيلاقيه عيانًا في يوم، هذه أول مرّة يراه. حينها فلت من بين أصابعه حبل البهيمة وتسمّر لثوان، تحوّل لوهلة إلى صنم مثل تلكم الأصنام الراقدة في خواء معبد «خنسو»، وتساءل إثر ذلك في تأنيب حقيقي: ألم ينبغ أن أتحاشاه؟ لكن مال فضولٍ غبيٍّ كان يدفعه للتفرّس فيه؟ لعلّها صفات القزم أو الغموض الذي حفّ الحكاية فمتّنها بتراث الناس، وربما الفزع في كامل سطوته، تلك أشياء استوقدت من داخله الغباء، وليست من علّة واضحة بمجمل الأمر لأيّ غباء.

كانت قامة «عيط الله» قصيرة مثل المساخيط وعيناه تبرقان بنشوة الأذى، كأنّه وقع على صيده الثمين لهذا المساء، راع «عبيد» أولًا ذراعاه الطويلتان في غير تناسق، وساقاه القصيرتان للغاية، ولسانه المتدلّي من فمه في تحفّز، ليس ذلك التحفّز الذي ينمّ عن استفهام أو تساؤل، ولا استنكار حتّى، بل ذلك التحفّز بروية وبكلّ تركيز كمن كان ينتظر على مهل، تحفّز ذئب للفريسة، تحفّز قاتم يبدو توطئة لانقضاض محتمل. مدّ له «عيط الله» أنامله يتحسّس مستكشفًا، أصابعه طويلة رفيعة مثل أغصان شجرة لبلاب جافّة، وأظافره سوداء متشقّقة، شعر «عبيد» ببرودة اليد، وبهول اللمسة، انتفض وصرخ صرخة عالية كأنّما أفاق بعد غيبة وجيزة، نبش في حلقِه عن صرخة يمكنها أن تترجم ذلك الشعور الذي يأخذ عليه أنفاسه، إنّما لا وصف لما

يحس، فجفّ حلقه، رمى بنفسه بضع خطوات للخلف منتشلًا نفسه من دائرة الفزع، ثم أخذ ذيل جلبابه بين أسنانه وفكّ، أحسّ به يرقص مهتاجًا من ورائه ويصيح في حنق بصوت أقرب للزئير: قف، لكنّه كان قد أسلم لله أمره وبدأ في الركض الملتاع، أحسّ بقدميه تلاحقانه، وفيهما نيّة غاضبة، بدا طريق «الكباش» الواصل بين معبدي «خنسو» و«الكرنك» طويلًا.. شاقًّا.. رخوًا.. وفيه نوع من تواطؤ، غير أنّه أخذ في تقليب تراب الأرض من بطنها الليّنة بقدميه الحافيتين مثل فأس لا يدركه يأس ولا إجهاد وهو يمخر بساقيه حصيرة الظلام المسجّاة بامتداد الطريق، وقد بدا أنّ التراب اللزج يكلبش في قدميه ليؤخّر إيقاع ركضه، يكلبش في قدميه متآمرًا مع «عيط الله»، ويتشبّث بجلبابه، والكباش الراقدة مقرفصة فوق قواعد من حجر ومن بأس جعلت تطلّ نحوه بعيون مستهزئة محبِطة، كأنّما لو تخبره أين قدماك يا مسكين من سرعة «عيط الله»؟ بدا كذلك أنّ النخيل المسوّر لطريق الكباش -والذي يرتمي على جانبيه في كثافة صانعًا سحابات متشابكة داكنة اللون في قلب تلك العتمة الداجية، المقعي يبصّ في ألفة وفي حميمية على هذه التماثيل التي تحمل أجساد السِّباع ووجوه البشر- يزوم، وينحني من موقعه العالي في الفضاء نحوه ليلقفه من فوق الأرض فيسلّمه جبرًا للوراء، تحديدًا لـ«عيط الله» كيما ينال منه، بدت له جميع المفردات من حوله كما لو كانت على اتّفاق ضمني للزّج به نحو المارد الذي يتعقّبه.

أسرع يدخل في كنف معبد «الكرنك» والعرق ينهمر من جسده، ثم وهو يرمح كغزالة يطاردها فهد، أخذ يجوس بعينيه في تلال الحجارة الجامدة التي تعبّئ جوف المعبد، في الأعمدة

الشاهقة.. وفي الحجرات ذوات الأفواه السوداء المخيفة الداعية للهرب بعيدًا.. يجوس، أدرك أنّه لم يزل في العراء الافتراضي -عراء اللاأمان- ولو في قلب المعبد المتكدّس بالأحجار، فاستأنف الجري، وعيناه صابيتان إلى الشارع الذي لم يعد بعيدًا لدرجة الإرهاق المثبط، حسبه أن يهرع في عزم أشدّ وفي غير كلل، لم يكن في المعبد مكان يلجأ له متّقيًا شرّ «عيط الله»، عليه فحسب أن ينجو بجسده خارج حدوده، فجرى في سرعة وفي إرادة مرتعدة متّجهًا نحو الضوء المرتعش في الأفق، وراح يقول لنفسه وقد أوشك على انتحاب مرير: التوبة منذ اليوم يا رب.. ارحمني فقط من هذا الـ...

ولم يجد خياله نعتًا يوائم كينونة «عيط الله».

في سهاد المساء الرخيم، تخلد «الكرنك» إلى النوم، ربما مبكّرًا، ربما من شدّة السأم، إنّما تخلد إلّا من أساطيرها التي لن تغفو متى ظلّ الزمن؛ تلك المحفورة في أذهان الأجيال وفوق جدران المعابد، ومن بعض الرجال الذين يخرجون لقضاء الأمسية في بار «التِرس» يحتسون البيرة وعرق البلح والزّبيب ويدخّنون الحشيش. الأجواء هادئة تمامًا، والريح الخفيفة لم تزل تعبث بقمم النخيل الباسقة في كلّ المساحات، فيبدو وشيشها ملائمًا للسكون. كانت «الكرنك» غافية.. شاغرة.. إلّا من هؤلاء، ومن «ممدوح» المحنيّ فوق مياه «الملّاحة» يتشطّف من أشياء وأشياء، قديمها وجديدها، طالما تذكّرها فغاج فؤاده ونبض متقرّحًا. فمه يهمهم بالدعوات والأوراد، كدأبه في كلّ مساء. انتبه على لهاث «عبيد» المُقبل من بعيد، فاعتدل وبدا مغشيّ البصر، كأنّما دمع لم يزل مقترنًا بالدعوات شحيحة الأمل، مضى

يستوضح ببصره، مطَّ رأسه فبان له الطريق، ولمح جسد «عبيد» الآتي هرولة، كان وجهه مليئًا بالعرق وبالرعب، فاستقام ناهضًا، نفض عن يديه بقايا قطرات ماء الملّاحة، ومسح بكمّ جلبابه وجهه، بدا أنّ «عبيد» وجد أخيرًا من ينتزعه من فزعه، صاح بصوت عال من قبل حتّى أن يستشرف عن هوية «ممدوح»:

- الحقني، الحقني ربنا يبارك فيك.

في برود تلقائيّ، وعلى مضض، وفي نبرة غير حافلة، قال «ممدوح»:

- خير؟!

وهمّ يزجره، لكن دنا «عبيد» منه، بسرعة رمى بجسده عليه كمن عثر على ضالّة مفقودة، كان يلهث مثل جرو، وكانت له رائحة قبو مغلق، أسمال جلبابه المتهرئ مليئة باتّساخات قديمة تبعث على التقزّز والقشعريرة، فغر «ممدوح» فاه، أدرك أنّ في الأمر خطبًا ليس هينًا.. «وهل هذا وقته!».. تطلّع للحظة نحو «عبيد» ولبث يأوي لتركيز واهن، إضاءة عامود النور في الأعلى الساقطة عليهما تكشف عن كلّ ملامح «عبيد» فيبدأ يستعيد بها كذلك تركيزه، خدّاه مرتّعان بشروخ محفورة واضح أنّها منذ زمن ليس بقريب، تركت فوق وجهه أمارات القبح وسمات اللصوصية، في الواقع هذه هي المرّة الأولى التي يتفحّصه فيها عن قرب، كان يراه قبلًا ككلّ أهل المدينة، واحدًا من أولئك اللصوص المدشّنين بالاحتقار، الذين يسطون على أحواش البهائم في العشيّة وتحت جنح الظلام، من دون أن يتمكّن من القبض عليه أحد، على الرغم من أنّهم يعلمون بما لا يدع مجالًا لريب أنّ من يختلس بهائمهم هو «عبيد» وعصابته، ذلك إن كانت له

عصابة، كان يراه من بعيد ولا يحفل في التدقيق في ملامحه، يبتسم له ابتسامة فاترة على مضض، أو يرفع له يده نصف رفعة كأنّه يقول: (غور)، ثم يمضي عنه ببصره في امتعاض، إنّما ما له يشعر الآن أنّ عليه أن يشاطره الرعب الذي أفضى به إلى طريقه؟ ربما الفضول، وربما الشفقة، وربما القليل من التسرية. راح يتفحّصه بإمعان، لم يكن طويلًا ذلك الطول ولا نحيفًا كما بدا من ذي قبل، ولا قبيحًا للدرجة، بل كان مرتجفًا خائفًا ممّا ينفي عنه هيبة أنّه لصّ ونطّاط بيوت، ضحك في نفسه ضحكة مفتقدة وقال: أنت حرامي بهائم؛ أدعى بالفعل أن تكون أكثر خزيًا وانكسارًا ورعبًا عند مقابلة الخلق، ولا بد من أنّ واحدًا ممّن سطوت على بهيمته الليلة يلاحقك بالسلاح. أخذ في التطلّع له وهو يرتجف مثل عريان في ليلة شتاء قارص، بشكل أكثر تدقيقًا، انتابه للحظة إحساس بالقرف، من وجهة نظر «ممدوح» سرقة البهائم أدنى مستويات الإجرام وأقلّها شرفًا. كان فم «عبيد» يدلق اللعاب من غير وعي أو اتّزان، وعيناه مغيّمتان لا تستقران في نظرة محدّدة، أكمل في تهدّج وفي لوعة:

- أستاذ «ممدوح»، حمدًا لله.

- مالك؟ اهدأ...

- «عيط الله»...

ابتسم «ممدوح»، ربما أدرك في قرارة نفسه أيضًا منذ أن رآه بمثل تلك السحنة الشاحبة أنّ احتمال الخرافة وراء الحكاية ليس بناءٍ، الليل في «الكرنك» يحمل في ثنايا هدوئه ورونقه الكثير من شاكلة «عبيد»، هؤلاء الذين يقسمون إنّهم رأوا «عيط الله» فروّعهم، لم تكن المرّة الأولى التي يقابل فيها الفارّين منه، أو من

غيره من شخوص الأساطير التي يختزلها المكان، إنّما لا يصدّق في الغالب إلّا ما يستقر له وجدانه أو ما يرى بعينيه، أكمل «عبيد» كأنّه يهذي:

- رأيته بعيني، والله رأيته، شكله أستغفر الله.. وشرّ الدنيا ينطّ من عينيه.

وأخذ يتلفّت حوله بنفس الفزع، ثم أضاف:

- أظنني أضعته، هه.. لن يخرج خلفي من المعبد، ملعون ابن الكلب، صح يا أستاذ «ممدوح»؟

- «عيط الله» من يا رجل؟ هل تؤمن بمثل ذلك الكلام؟ إنّها مجرّد تخاريف صوّرها لك عقلك الغليظ.

- والله رأيته بعيني. أنت لا تصدّقني، لكن أقسم برأس أبي إنّي رأيته.

قال «ممدوح» -ربما عرضًا ومن دون عمد- وفمه يزداد اتّساعًا:

- وهل لك أب كي تقسم برأسه؟

ازدرد «عبيد» لعابه في خجل أليم، أطفأ خوفه في ماء الملّاحة بنظرة منكسرة وتوّقف فجأة حتّى عن اللهاث، لعلّه اطمأن كذلك أنّ «عيط الله» كفّ عن ملاحقته، احتجزته بوابة المعبد فلم يجرؤ على الطلوع خلفه. بنصف عين تأمّل «ممدوح»، لم يبدُ عليه أنّه شعر ولو حتّى ببعض الحرج، تساءل في نفسه متى سيكفّ الناس عن إذلاله؟ ومتى سيجتثّ هؤلاء الضغينة من قلوبهم؟ بل متى سيكفّ الماضي عن المثول؟ يُقبل الآن من بين

تلابيب عقله من بعيد، تمامًا كشأنه دومًا، لكنّه كان حينذاك صغيرًا، لم تكن له يدٌ في قدّ الحكاية ولا جريرة، كان صغيرًا، ليس يذكر كم كان تحديدًا عمره، حين قالت له أمّه إنّه جاء إلى هذه الحياة مصادفة، وحين كان الناس يرونه فتسقط أبصارهم أرضًا، ويكتمون بأكفّهم ضحكات كان يسمعها، وهمسات تخرج متهكّمة، إذ يتغامزون، ولا ينتبهون إلى أنّه كان صغيرًا، لكنّه يفهم في تخاذل وفي وجع مغزى إيماءاتهم ونظراتهم.

ينتشله صوت «ممدوح»:

- اقعد، اقعد يا «عبيد» واهدأ.

ينظر له من دون أن ينبس، أنت يا «ممدوح» لا تؤمن بالخرافات، غير أنّك واحد ممّن يعتنقون الخرافة في باطنك ولا تريد أن تصرّح بذلك. أيّ هزل! لماذا تجيء كلّ مساء إذن إلى هذه البحيرة؟ أخبرني.

دنا «عبيد» من حافّة المياه يمحو عن وجهه المعروق آثار الخوف ولم يزل يرتعش ارتعاشات متوالية خاطفة، كحّ كحّة متقطّعة فبدا سيسقط داخل بؤرة المياه، تلقّاه «ممدوح» بذراعه وأرجعه للوراء قبل أن تخونه قدمه فتسلّمه للتهلكة مباشرة، تنهّد تنهيدة طويلة واستعاد البعض من أنفاسه، تبدّد الخوف إلّا قليلًا، وإلّا من هذا الخلل في المشاهد المحيطة، لم يكن قد استرجع كامل اتّزانه، كان منظر «عيط الله» باقيًا في ذهنه، لكنّه في سرعة قفز خارج ضفّة الملّاحة كأنّه يود لو يفرّ من حيّز «الكرنك» كلّها، لوّح بيده لـ«ممدوح» ثم مضى في لوثة منقشعًا كغمامة بائسة هزيلة من أمامه، ومن دون أن ينظر للخلف.

مصمص «ممدوح» شفتيه، بأيّ حال يتلمّس العذر «لعبيد»، فشأنه في ذلك شأن كلّ من ادّعى رؤية «عيط الله»، تشتّ عقولهم ولو لوقت زهيد. ران ببصره قليلًا تجاه «عبيد» وهو لم يزل يركض مبتعدًا، وعاد لحاله ثانية، حملق في عبّ المياه لوهلة، رأى وجهه على صفحتها أقرب للصفاء منه للتشوّه، استعاد في لحظة زهوة العمر الفائت، كأنّ كلّ البقع المضيئة بلون وردي على جلده قد خبت داخل صفحة المياه، التي ارتسمت عليها وجوه الآلهة البائدة من زمن سحيق، «رع»، «آمون»، و»خنسو»، همهم متهكّمًا: أيّ قربان يسترضيكم؟ نفض رأسه زافرًا، استغفر ربّه، عقد حاجبيه وارتعشت ملامحه في تذكّر معطوب، كأنّ رأسه تشخب ذكريات مهانة، كجرح ينزّ الدمّ، تذكّر أيام كان وسيمًا يتبختر في البلد مثل الطاووس، يزهو بهامته وهيئته، تقول عنه النساء إنّه أجمل رجال «الكرنك»، ويقول عنه الرجال إنّه سليل أجداده الفراعنة عن حق. لم يُولد هكذا، لكن الله شاء أن يصيبه «البُهاق» منذ وقت قريب، بدأ بنقطة ضئيلة فوق وجهه، ثم مضى يسرح وكلّ يوم يفوت يركبه الجنون، «نبوية» العرّافة فسّرت ذلك على أنّه حسد، قالت له: عين وأصابتك يا ولدي.. عليك بالملّاحة واقتت بالماء حتّى ظهور الديك الرصد.

تعكّرت صفحة المياه بعبوسه، تقلقلت وحمامة تحطّ فوقها ظمآنة، ثم تخرج في سرعة مرفرفة بجناحيها كأحمد ما يكون الارتواء. في مياه هذه البحيرة المقدّسة الراكدة اعتاد أن يغسل وجهه، ماؤها المالح طعمه أشدّ لذعًا من ماء البحر نفسه، كثيرًا ما كان يسافر ويرمي بنفسه في لجّة البحر، متعشّمًا زوال العلّة، مستمسكًا بأقلّ أمل في الشفاء، يظلّ جالسًا على حافة البحيرة

بانتظار أن يخرج الديك الذهبي الذي يزعم التاريخ أنّه سيُشفى فور رؤيته، له فترة على تلك الحال، يغسل بماء الملّاحة مرضه، وينتظر الديك، له فترة يتلظّى بنار الداء ولا يعرف للشفاء مخرجًا غير اعتناق الأسطورة.

دنا من الملّاحة أكثر في حيطة، لعق بلسانه قطرة فتقلّصت ملامحه، ماؤها مالح ويلسع في أكمن مواطن الإحساس، ربما لهذا السبب سميّت بالملاّحة، تعوّد أن يأتي آخر كلّ مساء، بعد أن تهجع «الكرنك» بأسرها، ولا يبقى غير المساطيل، حيث لا قدم تدك الطريق ولا مارّ بإمكانه أن يلمحه، يخشى كثيرًا من سخرية أهل المكان إن قبض عليه واحد وهو يتمسّح بماء الملّاحة، قالوا له غير مرّة في لهجة لائمة: أنت توهم نفسك يا «ممدوح» ولا سبيل للشفاء إلّا من عند الله وحده، والديك لن يطلع إلّا في المشمش. لكنّه يعلم أنّ الله قادر على كلّ شيء، خلق الأسطورة وخلق المعجزة التي كانت للأسطورة منبعًا، خلق مع ذلك هذه الملاّحة لتكون إحدى وسائله الربّانية للشفاء، ذلّلها للناس لكي تصبح دليلًا على قدرته. كان يخرج ثم يقعي فوق ضفّة الملاّحة، يزيح بأنامله العشب الأخضر الراسي فوق وجه المياه ثم يتناول بكفّه بضع قطرات ويمسح بها حدود الوجه، ينحني بحذر وهو يدنو من حيّز البحيرة، يخاف مثلما يخاف الكلّ من أن تزلّ قدمه ويسقط في جوفها، فتبتلعه وتشفطه في عبّها، لم يخرج منها -من ذي قبل- من خانته قدمه وتعثّر فسقط، حتّى جثته لم تكن تطفو على سطح البحيرة، يسحبها الماء إلى أسفل، وكأنّها تضيع في عالم الأعماق المليء بالكائنات غير المعاينة، سرّ الملّاحة وسرّ الديك لم يتوصّل له بشر، يعرفه فقط من حفروها وفنوا منذ آلاف السنين، جدوده وجدود أهل البلد؛ الفراعنة العظام، أولئك مَن

بلغوا من العلم ومن المقدرة ما لم يبلغه بشر آخرون، يعرفون أنّ ماء الملّاحة -بدلالة الديك- سوف يشفيه من «البهاق» بإذن الله، وإلّا ما سطروا فوق جدران معابدهم وفي متن التاريخ عن البركة التي لا تنقطع عن البحيرة.

راح يحملق في هدوء المياه شاردًا، مهما يكن، قد تبرّع بوقته كاملًا في محراب الأمل، فسواء اشتبه عليه الوجهان، القديم إيّاه، والجديد، يومًا ربما يستعيد الوجه المأمول، ومثلما جرت به عادة التخيّل، كان وجه «خنسو» يبتسم من بين سكون صفحة البحيرة التي تعكسه وهو يرنو من السماء، يقول: ادن، لامسني عن قرب، ربما كان بين أحضاني شفاؤك.

وكان يدعوه للمثول.

برديّة ثني[٢] الأولى (وحسبما يتّفق)

أتأمّل جناح دخان واهٍ طالع من إناء «القرفة» الساخن، اندفع يترنّح متمايلًا إلى أعلى في تؤدة، إلى أن يتبدّد رويدًا في الهواء. كلّ ما حولي شاحب بائس، تمامًا مثل حالي، وثمّة شعور يسري في أعصابي بالكآبة، تروح عيناي نحو صفحة البحيرة وترسو، يهلّ الخادم النوبي وفي يده صينيه طعام ممتلئة عن آخرها، يستعيدني بصوته الرتيب، فألتفت نحوه في خمول، وقبل أن أعود بعينيّ إلى البحيرة مرّة ثانية أجوبه قليلًا.. مالك مبتسم دومًا؟ أليس لك من همّ يجعل تلك الابتسامة تزول ولو لبعض الوقت؟

لا أجد لديّ الشهية للمس الطعام، أحدّق -في شرود- داخل مياه بحيرة الملكة «إكوي» -العظيمة أم حارس باب الجنوب والعماد العظيم لمحبي الأرضين رب السماء «أنتف»- فيبدأ ضباب في الالتفاف حول بصري، يحيط به ويعزله عن سائر معالم المكان، يذكرني بمأساتي، يرتجف أمامي كما ترتجف دقّات فؤادي، ورؤى من مخاوف كامنة تبدأ تلازم خيالي، كم أنا في أمسّ الحاجة هذا الوقت لولدي البكر «حنو»! أقلّه يخفف عني آلام النفس، وأستعيض به عن بهجة غائبة لها أمد، استدعاه «مُنتو»[٣] ليلبّي واجب الحرب، لم أره منذ أكثر من ثلاثة فصول[*]، بعد أن أخذت تروس الحرب في الدوران الضاري، ولا يبدو أنّها قد تكتفي من

دماء الرجال أو تشبع.

في رأسي همّان: همّ جسدي الذي طحنه الداء، وهمّ ولدي الذي استغرقته آلة الحرب، بعد أن ذهب ليرتبط بواحدة من أحطّ القوم، أيّ همّ! اتّخذتُ كلّ الوسائل في محاولات يائسة أجهضها عناده لأعدل رأسه عن فكرة الارتباط بواحدة لا هي من قومنا ولا هي تناسب مكانتنا، لكنّه قال لي صراحة: إنّ الحبّ يا والدي العزيز أجلّ من مسمّيات أخرى. كانت أمّه تسانده، بذلك الواعز من محاولة إرضاء وحيدها الذكر وتمكينه من رغباته، لا أذكر من تلك الأيام التي عاندني فيها غير الخصام المكين الذي مضى يسود بيننا، لا أذكر إلّا ملامحه التي كانت ترجوني القبول والتفهّم، أذكره وهو مقبل نحوي وعلى وجهه ابتسامة فيها محبّة وطيبة وأنا أشيح عنه بصري ساخطًا، محاولاته في تلطيف الطقس الذي بات يحفّ بالعلاقة بيننا، ومحاولاتي المستمرة في توطيد فكرة الخطأ الجسيم بداخله والتهوّر، مرّة بالنهر، ومرّة بالصمت الغضوب، ومرّات بالكلام الموجع الجارح: هؤلاء أدنى الرعية/ اندفاعك من باب العاطفة سوف يجشّمك ثمنًا باهظًا/ جننت يا «حنو» ولا بد لك من طبيب يصلح شأن رأسك/ زواجك من تلك العاهرة يكون على جثتي. غير أنّه بدا يدرك مدى حرقتي عليه، فلم يكن يحنق منّي، على العكس، كان دائمًا ما يقابل خبيث الكلام بابتسامة ودود وتعليق مؤدب. في النهاية سلّمت؛ إنّما في كلّ الأحوال هذا اختياره، ولن أقف حائلًا بينه وبين سعادته التي يبتغيها، ولو حتّى بالأمل العاجز. المشكلة أنّ أمّه، ومنذ أن غادر للحرب، انكفأت من دون حيل أو تحمّل تنتظر أن يبعث ولو مخطوطًا يطمئنها مع واحد من الراجعين بإصابة أو عاهة أو حتّى إجازة، قلت لها: اطمئني،

أخباره تأتيني على الدوام، ولا تنسي أنّني حامل خاتم الملك العظيم «واح- عنخ- أنتف»[٤] بجلاله وملكوته، ولولا احتياج القصر الكبير لي تلك الأيام لزرته على حدود المعركة واطمأننت بنفسي على حاله. غير أنّها اشتاقت له لدرجة القعود بلا حيلة في انتظاره كالتي تدرك أنّي كاذب لو ادّعيت الانشغال عن ولدي بسبب لا يُعمل منطقًا للقناعة كاحتياج القصر لي، الكسل إذن؛ ليس من سبب آخر، هي تدري ذلك، لذا انصرفت عن شؤون البيت تاركة إياه للخدم الكسالى نفس كسلي وأكثر، وقلبها يختلج خوفًا عليه في كلّ يوم يمرّ.

تنهّدت، دفنت وجهي بين كفيّ وأغمضت عن كلّ الضباب عينيّ، طفقت أهمهم مرتّلا: «أنتف عا»[٥]، ليتك تهب لي قربانًا في الجبّانة بقدر ما أحتاج إليك كلّ يوم، هب لي زوال العلّة يا رب عروش الأرضين الطيب، وسيّد القربان المبرأ، وأعد لي ابني البكر سالمًا».

ربّ الشمس «رع» العظيم ينحدر نحو البحيرة ويظلّل سطح مائها بالبركة والرخاء والسحر. اكتفيت من الطعام الذي أحضره لي الخادم ببضع شرائح من لحم الإوز، وخلعت عنّي ملابسي، تدحدرت -ولم أزل شاردًا- إلى سكينة الماء، مضيت داخل هدوء البحيرة أغمس جسمي، أبتهل في انتظار الجدوى، كان ملمس الماء دافئًا هذا الصباح، و«رع» العظيم يرمقني بعيونه المطلّة من وجهه في السماء يباركني وينبئني بالشفاء الداني، وبرجوع قريب لولدي، رحت أدور بيدي صانعًا دوامات ضعيفة داخل صفحة الماء، وأرفع بين كفيّ الماء وأهيله فوق وجهي، فيتقاطر في محيط البحيرة ثانية سلبًا، ثم أطمس وجهي كلّه تحت

المياه متبّعًا الطقوس التي أوصاني بها «بام»[٦] كاهن مقاطعة «واست»[٧] الأكبر، وأتمتم بالتعاويذ التي أعطاها لي بالحذافير من دون تجاوز أو نسيان.

كانت بجعتان تقتربان منّي وتقرقران بمنقاريهما في لبّ المياه، تجرعانه ثم تحتفظان به في جوفيهما لتلفظانه نحو البحيرة ثانية، خبطت بيدي أشبه بالمداعب الملول، فابتعدتا يرمقانني بأعين مستنكرة وولجتا داخل الغدير المفضي إلى كرم النخيل خائفتين.

كنت وحدي من عليه أن يقرّر في تلك الساعة الرمادية من الصباح أن يخطو خارج محيط الذات، ويطلع بروحه للرّب العظيم الأعلى كي يستمع لنجواه ودعواته، أنا مرهق، أنا ميت، أنا رجل من غير سعادة ولا سكينة، فقف جواري يا ربّ السماء المنزّه عن اللاقدرة وعن الزوال. أخذت أهمهم وأدعو ربّ السماء «أنتف» -الكاهن الأول المقرّب لدى الإله العظيم- بأن يتمّم علاجي على يديه، وأن يمنح بركته لملوحة البحيرة كي تستحضر كلّ قوتها وجلالها وتكلّلني بالشفاء.

كان الخادم النوبي واقفًا ما زال، وبذات الابتسامة، على ضفّة البحيرة بمنشفة من وقت أن نزلت الماء، رماها فوق كتفيّ وأنا طالع أدسّ قدميّ داخل النعل، وأدوس على حصيرة الحصى المتناثر إزاء ضفاف البحيرة في تهاد يحمل اليأس، فيطقطق من السخونة ومن حمل جسمي عليه، ويبدو كأنّه يئن، ضحكت في نفسي بلوعة: لن تئن مثلما يئن جسدي كلّه من فعل المرض!

أنسل في إزار من القطن، وأرتدي على عجل عقدًا يتآلف من ستّة صفوف من الخرز، ضُمّ طرفاه بمشبكين على هيئة رأس «حورس»، ودلاّية من حجر «اليشب» معلّقة في خيط طويل،

وضعت في إصبعي خاتمًا وفي معصمي زوجًا من الأساور، مصمصت شفتيّ فيما يُشبه الملل، كنت أعرف أنّني سوف أخلع عنّي كلّ تلك الزينة عند دخولي حمّام غرفتي، لكنّها أشياء يستوجب أن أظهر بها أمام الخدم والحرّاس في القصر ولو بشكل عابر، إنّها رتابة المنصب لا أكثر.

تجتاح عيناي صخب المساحات التي يرقد فيها النخيل حاجزًا من ورائه ملامح الأفق تلك الساعة، وتقبض على طائر يخترق سجف السماء في بأس وفي حريّة، في حقد وأسف مضى بصري يتتبّعه وقلت: أيّها الطائر الطليق، منحك الرّب الكريم «آمون» كلّ ما تهفو له نفس، إنّما هل قضى لك مثلما قضى للبشر من مآس؟

يتبعني الخادم بصينية الطعام، يصبّ لي كأسًا من النبيذ الأحمر ويناوله لي، فأرشفه على مهل وأنا -بتؤدة- أخطو حيال باب قصري وفي عينيّ لفافة الضباب. زوجتي -كعادتها- جالسة متكئة على سور الشرفة تشخص نحو الأفق البعيد، رفعت لها رأسي وقلت:

- بحقّ رب السماء استريحي قليلا من هذا العناء.

همهمت بصوت باك وهي تطلّ في حسرة صوب نقطة قصيّة من خطّ السماء:

- منذ عام ويزيد لم أره.

هزرت رأسي في رثاء متفهّمًا طبيعة إحساسها، ورحت ألوم نفسي بعض الشيء لإهمالي -العرضي- الإشراف على حال ولدي بشخصي. بدأت في ارتقاء الدرج المتراص في تناسق إلى فوق،

مشكلتها مع ولدنا هي الاشتياق البحت ليس أكثر، كنت على يقين من أنّه على ما يرام، أخباره تصلني على الدوام من أنه بخير، يقاتل أعداء الفرعون -المتناهي في عقله وحكمته- في بسالة، ويزود عن العرش بكلّ عزم وتفان، الغريب أنّه هو بنفسه من يأبى العودة من دون الظفر، لم يرسل بردية، أرسل واحدًا من الآتين يقول عن لسانه: «حنو» -أيّها المبجّل- يبلغك بأنّ النصر قريب، أوشك الأعداء على التقهقر والهزيمة، فلا تبتئس وقبّل خديّ أمّه». إنّما هل يكفي الوسطاء بيننا وأنا قائده المباشر؟

ولم تصدّقني، قالت ونبرة الشجن المغموسة بالغيظ في صوتها: لا تستهن بغريزة أم يا «ثثي»، أدرك تمامًا أنّ أنيسي في خطر.

رفعت عينيّ إلى أعلى، وقفت قليلا أتمعّن في قصري شاهق الارتفاع، وطوابقه الثلاثة، التي يستقيم أعلاها تمثال ضخم لـ«آمون»، الناتئ إلى فوق لما يزيد عن العشرة أمتار، المطليّ بماء الذهب، والذي يستريح من خلفه السحاب في دعة واطمئنان، بدرت ضحكة قصيرة وقلت: ترى هل أستحق مثل هذا الرغد؟ كان قصري يشرف على النيل عن كثب، ومن حوله تتناثر أشجار الصنوبر والدوم والكروم المستوردة فسائلها من أرض «كنعان»، تنهّدت وأنا أُكمل صعودي ممتطيًا السلالم المقدودة من الرخام، وكان بعض الماء لا يزال يتقاطر من مؤخرة ساقيّ، ثلّة من الحرّاس يصطفّون بأنحاء الردهة ورماحهم منتصبة إلى أعلى، تماماً مثل انتصاب كامل أوجاعي، وجوههم جامدة وأعينهم ثابتة في نظرة مستقيمة، بحثت بعينيّ عن بقية الأبناء، لا بد من أنّهم يلهون في تلك الساعة في حديقة القصر الخلفية، قلت في بالي: خذوا من الحياة بهجتكم قبل أن يكشّر الزمن عن أنيابه.

صعدت السلالم الداخلية المؤدية إلى غرفتي في الطابق الثاني، والملتفّة إلى أعلى في تناسق فسيح، خادمي النوبي يتبعني بعد أن أراح صينية الطعام على منضدة من مرمر شفّاف يشبه في تكوينه لألأة النجوم، وفي يده ممسكًا لم يزل بإناء النبيذ، صبّ لي كأسًا آخر فرفضت بإيماءة من رأسي، وأكملت صعودي نحو غرفتي، دخلت الحمّام الفخم الملحق بها وخلعت عنّي كامل ثيابي؛ المئزر والحزام المذهّب وقلادة الكرنالين المطعّمة بالخرز، والتي نُقش فوقها طغراء «سهر تاوي أنتف»(٨) ابن الشمس المبجّل، المبعوث إلى الحياة الأخرى منذ سنوات بعيدة، والذي وهب مُلك البلاد ومقاطعات الجنوب لوريثه الوحيد الملك العظيم السيّد «واح عنخ أنتف»، تلك الطغراء التي صمّمت أن أحتفظ بها فوق صدري تبجيلا واعتزازًا وتباهيًا وأنا أحسّ بالتفرّد والتمييز الحميد، كانت أول طغراء صمّمها المبجّل «سهر تاوي»، وكنت الوحيد الذي تيسّر له امتلاكها من بعده عقب أن باشرت صنع قارب سيّدي «واح عنخ» المجيد بنفسي.

هبطت بجسمي في بطء داخل حوض الماء المبلّط من الداخل ببلاط أزرق والموشّى بنقوش فضيّة لزهرتي لوتس وبشنين متعانقتين، وعلى حوافه أُطّرَ بزينة طلبت خصّيصًا أن يتلو عليها الكاهن «بام» من تعاويذ الاستجمام وخلو البال وصفاء الذهن، حواف حُفرت عليها أشكال لتقويم الفلك عند مطلع النجوم والأبراج مدّة الاثنتي عشرة ساعة التي يتآلف منها الليل، تشفّ استدارة الحوض في بريق أخّاذ. أرحت رأسي للوراء، وغصت بجسمي أكثر داخل رغوة الماء الفاتر التي لا تنقطع عن الحوض؛ الجاهز لاستقبالي في أيّ وقت، وكانت الرغوة هذا الصباح برائحة الدوم، فاخترقت روحي، أشرت بيدي للخادم

فأقبل مهرولًا يناولني كأسًا آخر من النبيذ، رحت احتسي منه في محاولة للاستكانة والتلذّذ برائحة الدوم، وأنا مغمض العينين عن بأس الحياة بالخارج وقسوتها، أخذ جسدي يذوب في عالم ليس آهلًا بالمشاهد، كنت أعرف أنّ موعدي مع السيّد العظيم «واح عنخ» لزيارة حجرة الإله «منتو» في معبد «آمون» وتقديم القرابين تبقّى عليه وقت مريح، سيتحرّك الموكب بعد ساعتين، سوف أكون خلالهما قادرًا على الفكاك بجسدي المثخن بالداء من شظف التفكير المضني لعالم من مجاز.

فقاعات الدوم تتحسّس أنفي، أوشك على العطس، توقفني زفرة أخرجت ما استراح في صدري من أنفاس ثقيلة، كان صدري يعلو ويهبط، يخفق في قلب الرغوة الفاترة مستلذًّا، وأعواد من قرنفل تتدلّى على وجه المرآة المعلّقة بطول الحائط الشرقي للحمّام، لم أكن لأطلّ بوجهي ناحية المرآة من أيّ صوب، يكفيني ما ألمح فيه من بقع كلّما تصادف ونظرت لها، لكن عينيّ راحتا تدوران في شتّى نواحي الحمّام -عدا المرآة بالطبع- وقلت في نفسي مردّدًا التساؤل الملّح له زمن: إلى أيّ مدى أستحق هذا الرغد؟ تأخّرت الإجابة ريثما يغلّفها العقل بصيغة المنطقية والإقناع، هل أنا حقًا في حلّ عن تذكّر ما بطُن من نقائصي ومن خصال المداهنة والتسلّق والنكاية بالآخرين أيام كنت خادمًا طائعًا لجلالة سيّدي «حور» العائش طويلا؟ كلّه لأجل أن أترقّى وأصبح أعظم شأنًا! حقبة من السنين طويلة ظللت أتملّق فيها سيّدي ملك الوجه القبلي والوجه البحري من دون أن يساورني أيّ إحساس من قبيل استصغار النفس أو احتقار الذات، عددت في وقتها ذلك حقًّا واجبًا من أبسط حقوقي التي كان يجب أن أنالها ولو بعد حين، لعلّي كنت قد مللت من كوني مجرّد تابع له

أو خادم خاص، والآخرون من حولي يتطاولون في العظمة وفي الوظيفة والمقام، رحت أجاهد حينئذ -وبكلّ ما يسكن طموحي من توق- أن أصير موضع ثقّة الفرعون المبجّل ومحطّ رعايته، رحت أنكل أكثر فأكثر وأؤجج حفيظة سيّدي تجاه البعض ممّن يسخط عليهم في مسألة أو موضوع أو خلاف من كبار الموظفين، أبثّ في أذنيّ سيّدي -مديد العمر- سمّ الوشاية، وإن كانت تشوبها مبالغة، فأقصيهم عن كنف سيّدي الموّقر وعن مقاعدهم في الدولة، حتّى يتسنّى لي تحقّق ما أملت ويستقيم طريق المأرب من غير اعوجاج.

أذكر أيام كان يجمع المال من عظماء الأرض الواقعة تحت إشرافه من «الفنتين»[٩] جنوبًا وحتّى «شس»[١٠] شمالا، عند أن ألمّ به مرض طارئ في الصدر فمكث في قصره لبضعة أشهر تحت إمرة الطبيب الماهر -رفع «آمون»[١١] شأنه وبجّله- «زاري»[١٢]، فأحجم عظماء المقاطعات عن بعث مال الجباية استخفافاً، فكّرت في ذاك الحين أن أصنع قاربًا ضخمًا لم يكن مثله ليطوف به ابن الشمس سيّدي «أنتف» المخلّد بين المقاطعات ويتمكّن من إجراء حساباته معهم، وكنت الوحيد الذي أعمل عقله لصالح الملك سيّدي، دونًا عن أولئك الذين لا يفكّرون بقدر ما يتجشأون، أتقنت صنع القارب فخلب لبّ سيّدي، عمدت أن أتفنّن في زخرفة وصناعة رأس الكبش إله الأرض والسماء «آمون» بحليّ الفضّة المطعّمة بالذهب، وعمدت أكثر أن أجعل له نظرة في عينيه تشبه نظرة سيّدي ربّ الأرضين المبارك «واح عنخ»، تحمل من البأس ومن الصلادة ما جعله بكلّ جوارحه يظهر الغبطة ومن دون تحفّظ مستغربًا من ملازمة جلالته خيالي لدرجة صنع عينين للإله «آمون» تطابقان عينيه بالتقريب،

آنذاك قال لي المبجّل في محبّة خالصة وود حقيقي:

- أنت مخلص يا «ثثي»، وأنا راض عنك، سيكون لك معي من عظيم الشأن ما يغمرك العمر في نعيم.

وكانت سفينتي الضارية تمخر عباب النهر كأسطورة متفرّدة، تتنقّل بين ضفاف المقاطعات وتتبعها سفن الموكب -المتّخذة هيئة اللوتس- من حرس وعبيد وسبايا، وكان موج النيل منبسطًا أسفل مرور سفينة سيّدي فرعون البلاد في متنه، وفي ساعات الفجر أثناء رحلتنا كان الرّب «رع» ينحدر نحو النهر العظيم ويغتسل متوضّئًا قبل أن يُشرق على وجه سيّدي المبجّل، كأنّما لو يكلّله بالبركة والرعاية، حتّى رؤوس التماسيح الزهيدة التي تقب من عمق النهر بطول المسير، كانت تفعل على استحياء كأنّها تخشى هيبة الفرعون المعظّم، تبزغ ثم سرعان ما تغوص في الأعماق ثانية فرِحة لمجرّد طلّتها على وجه الفرعون الوضّاء من غير حاجب ولا منيع.

اتّكأت على سور السفينة وسرحت مع ريم الموج المتخالط.. هنا في هذا النهر موطن الجلال كلّه وعظمة الآلهة الفريدة، تُولد على ضفافه ولا تفنى، هنا في أحضان النهر كم ابتهلت، واستجابت لدعواتي الآلهة، كذلك هنا تنحرف كافة الظنون لدلالات مغايرة.

شهدت وقتئذ من خوف حكّام المقاطعات ورضوخهم السريع ما طمأنني، كانوا يركعون تحت قدمي سيّدي العائش طويلاً ويقدّمون فروض الولاء في هلع، ويبرّرون ما حدث بضعة موارد الأراضي وشحّتها، وقلّة الدخل الوارد، طالبين السماح مع قطع الوعود بألا يتكرّر ما اقترفوا، بالطبع كانت تلك حجّة واهية، لم

يكن لسيّدي شأن من قريب أو بعيد بما يتذرّعون به، عليه أن يتحصّل ضريبته ولو أنفقوا في سبيل ذلك كلّ ما تملك ذممهم، كانت لسيّدي لهجة آمرة صارمة تليق تمامًا بلهجة إله وهو يعنف كلّ حاكم على حدة، كان جالسًا يعتلي عرشه على سطح المركب، يحدج الوافدين يجثمون تحت قدميه ساجدين بنظرة قاهرة بالغة الجدّية، كانوا يهرولون آتين وقد انتفت عنهم صفة العظمة، وبات الاستهتار الذي أبدوه تجاه سيّدي يتبلور داخل أعينهم لأسف مهين، يقعون فوق يده باغين الغفران، فبدوا كجرذان يرتعدون من مجرّد صوته الرخيم المجلجل، ورأيته متألّقًا ساطعًا -حفظه الرب وأمدّ عمره- مثل «رع»، وهم يكابدون المهابة أسفل قدميه الطاهرتين. تلك ربما كانت المرّة الأولى التي يجبي مولاي وسيّدي ضرائبه بنفسه، لكنها كانت الأخيرة، لم يجسر عظيم من حكام المقاطعات على التراخي أو التقاعس في سداد ما فُرض عليه بعد ذلك، لعلّها خشية من غضب الملك المستحكم إن تكرّر ما كان، والذي لن يكون بعده صفح، ولن يكون غفران. قال لي سيّدي آنذاك:

- لعلّك أدركت الآن أنّي تهاونت كثيرًا يا «ثثي» في شأن هؤلاء، بعض الجدّ والجبروت جزيل النفع أيضًا.

- عفوًا أيّها المبجّل العظيم، ما هم إلا أتباع، لا يجرؤ رجل في الأرضين على عدم طاعتك، ثم أيّ مخبول ذا الذي لا يركع طالبًا رحمتك!

غير أنّ شهرتي عقب ذلك كمخلص ووفي -ومُراءٍ كذلك في نظر البعض- طفقت تتكوّن في الأفق ومن دون جهد آخر يذكر، جاءت كلّ الأشياء المبتغاة برمّتها تباعًا، مؤكد بعد أن

طال صبري، لكنّني لم أفطن إلى أنّها سوف تحدث بتلك السرعة وبتلك السلاسة كأنّها حبّات عقد لم تكن تتطلّب سوى اليد التي تفرطها، فقد أوكل لي سيّدي رفيع الشأن -الذي أتمنى أن يعيش مثل «رع» إلى الأبد- بعض المهام التي شغلها غيري في عهد والده الموّقر رفيع المقام خالق الجمال، ولم يحدث أن ارتكبت تقصيرًا، بل أفنيت كلّ طاقتي من أجل أن أزاولها على أتمّ ما يكون وتحت إشراف جلالته، ظللت تابعًا له -حور العائش طويلاً- ملازمًا لشخصه، مادحًا مواليًا لكلّ رأي وكلّ شطط أو شطحة، حتّى تلك الشطحات النزقة التي راح يأتيها مع الجواري والخدم بلا اتّزان، والتي لم يكن يعلم عنها غير القليلين من رجال البلاط والكهنة، وكنت على رأسهم، كنت مثل ظلّه الخانع مستمسكًا بخيط العقل والدهاء والتزلّف ما أوتيت، فلمّا عاين من همّتي ومحبتي وإخلاصي، رفع شأني ومكانتي ومكّنني من كلّ المواطن الثمينة بخاتم رسمي، سلّمه لي من تبوأ المنصب قبلي والأسى يعتمل في جوف عينيه، كأنّه يتهمّني مباشرة بأنّني من أزاحه عن منصبه الرفيع، طمعًا في علو وفي سمو ورقيّ موضع، لكنني في الحقيقة لم ألتفت لما يرمي بنظراته، تقلّدت منصب حامل الخاتم الملكي وفي قلبي فخر وزهو وشيء من غرور، هذا من فعل سيّدي المبجّل لا غير، أن يجعلني مع العظماء والأكابر، وأن يثق في ذمتي ونزاهتي ويعهد لي بسلامة المملكة بأسرها، ما دمت أنفّذ ما يتحتّم حسب إرادته، ما دمت حنيت ذراعي له وللعظماء أحبابه، وما دمت فائق النشاط هادئ الأخلاق في قصره وبين حرّاسه وخدمه، ولا يعلو لي صوت في حضرته، كان يعرف عنّي أيضًا سيّدي -شمله الربّ «آمون» بالخلود- أنّني رجل يرنو دومًا إلى الخير ولا يطيق الشرّ بمكان، بل لم أعتد

النبش عن الشرّ في نفوس الآخرين، خاصّة هؤلاء الذي بات الشرّ صفة تنفّر سيّدي منهم، كلّ ما هنالك أنّني ناصح -في أدب وتوقير- ومنبّه -في حفظ للقيمة وللذكاء والفراسة ورجاحة البصيرة لدى سيّدي- ومن بعيد لبعيد، لذا استأمنني المبجّل على الخزائن والودائع وعلى أرواح الجنود، فصرت كذلك رئيسًا لإدارة الجيش، من دون أن أتدرّج -كعادة هذا المنصب- في تلك الوظائف الإدارية صغيرة الشأن، كمساعد كاتب ملكي أو كاتب جُند أو حتّى قائد، تبوأت مقعد الرئاسة بشكل مباشر واستثنائي، كما باتت -بالتبعية- تحت حيازتي وتصرّفي الأشياء الثمينة كافّة والهدايا والعطايا التي تأتيه من الوجه البحري والقبلي ومن البلاد المجاورة، خاصّة تلك التي ما فتئ يجلبها الرؤساء الذين يحكمون الأرض الحمراء[١٣]، وكانت في الغالب أرقى منتجات تلك البلاد، من غلال وأقمشة ونفائس، وطيبات نادرة الوجود كالألماس والزئبق الأحمر الذي كان العثور عليه بمثابة العثور على كنز في عمق سحيق، كلّها ودائع كنت الوحيد -بعد سيّدي ومولاي- الذي يعرف مكانها، أخفيتها بثقّة مفرطة فيّ من قِبل سيّدي الملك في مكان ناء خوفًا على المتاع الثمين كي لا يُدرك إن جدّ في حال البلاد أمر، فكم كان حال البلاد في اضطراب وفي شتات! بتّ بعد ذلك الناصح الأوحد والأمين المتفرّد لجلالة سيّدي -ليته يعيش مثل «رع» طويلاً- أمضي كلّ الوقت تحت كنفه ومستمعًا لأيّ أمر ومنفّذاً من دون تراجع أو تراخ، إذن هل أستحق كلّ هذا الرغد؟

مؤكد. أنا أمدّ نفسي من أملاكي الخاصّة التي وهبها لي جلالة سيّدي، لم آخذ -قط- شيئًا عن طريق الاختلاس، ولم أتخطّ التعليمات التي فُرضت عليّ، إذن أستحق وعن جدارة، أنا رجل

دأب أن يحقّق كلّ أوامر وواجبات وظيفته وفق إرادة سيّده، فتبًّا إذن لذلك الإحساس باللوم، والرابض في أعماق الضمير.

رائحة الدوم تفعم كياني بأسره، شعرت كأنّي أتلوّى داخل حوض الماء كثعبان ينشد التدلّل، فأخذت أغمر جسمي بالرغوة، وراح يتغطّى وجهي بالزبد الأبيض، حانت لي نظرة للمرآة، كم من الوجوه تكسبها لك الأيام الجاريات يا «ثثي»؟ كم بدّلت منها وكم تلوّنت؟ أدرك تمامًا أنّ أغلبية الشعب لا يطيقون ذكر اسمي، هل هو الحزم والشدّة؟ أم التشاغل عن أمورهم والانصراف لأموري الخاصّة؟ أما كان ضروريًّا أن أكتسب بعض الحبّ من الناس؟ كان الملك المبجّل دومًا يقول: لا تحرص يا «ثثي» على حبّ الرعية بقدر ما تحرص أكثر على أن يهابوك ما مدّ الرّب في حكمك، نحن في أوان حرب، والحرب تحتاج الحزم والصفع بيد من جرانيت.

بدا صمت موحش أخذ يجيء من حول أذنيّ، نفضت عن رأسي بقايا الرغوة وعوالق الفِكر وانتصبت خارجًا من دائرة الذكريات، مشقت جسدي فراح الماء يتقاطر منحدرًا نحو إطار الحوض، رأيت كأنّ كلّ عضلة في جسدي منتفخة ومحدّدة ومتناسقة تأهّباً، كأنّي مُساق لمعركة جسدية، غير أنّ صدري لم يزل يعلو ويهبط في غير استكانة، حاولت أن أزفر الأنفاس جميعها خارج جسمي، إنّما شيء أخذ يعوق خروجها ويغيّم ذهني، أسرع الخادم يرمي على كتفيّ المنشفة، مططت قامتي واندفعت نحو الغرفة الواسعة، كان جسمي قد جفّ كفايته والخادم يناولني عباءة من حرير فضفاضة بلون عسل النحل محلاّة بطرز مذهّب، ويرفع لي ساعدي برفق ويولجه داخل

ذراع العباءة، رشّشت عطر الكافور وتأهّبت للقاء سيّدي الملك في قصره، والإياب معه لمعبد الإله «آمون» لتقديم القرابين.

«رع» قبل منتصف النهار هذا سبغ البلاد بالشفقة واللين، اكتفي بهدهدة وجوههم بأشعة رحيمة، ربما لأنّ سيّدي -بجّل شأنه الرب- قرّر الخروج من قصره المنيف في أعالي «واست»، قرب مقاطعة «إيون»[١٤]؛ عاصمة «واست»، ومقابلته وجهًا لوجه -وهذا لا يحدث كثيرًا- وزيارة الإله «آمون» في معبده بمقاطعة «الكرنك» التي أقمت فيها قصري، كان عليّ أن اتّجه إلى قصر الملك الكبير ثم العودة رفقة الموكب.

سرت في موكبي الصغير وحارسان يتبعانه حذاء النيل، والخيل تحمحم في زهق، قلت لها عليكِ أن تتحمّلي وعرة المشوار وطوله لأجل عيون سيّدي وسيّدك سديد الرأي متناهي الحكمة.

كان طريق سهل الحصا المنبسط نحو مقاطعة «إيون» من جهة الشرق فسيحًا، لم يكن هذا النهار في الجوار غير أولئك «اللبّانة» الذين افترشوا شاطئ النهر يصنعون لبناتهم، والتي كانت تحتوي مع الطمي جزءًا كبيرًا من الرمل الذي يجلبونه من محاجر وادي «الطود»، عندما لاح موكبي، قعدوا جميعًا وانثنوا برشاقة ولامست جباههم بساط الأرض خاشعين حتّى أولى لهم الموكب ظهره، كأنّهم عمدوا ألاّ أتصيّد نظرات اللامبالاة التي سكنت أعينهم نحوي، ثم مضوا يلاحقون موكبي بابتهالاتهم ودعواتهم في صوت عال بعد أن جاوزهم، كنت ألوّح لهم بيدي من دون أن أنظر للوراء، بتّ أدرك أنّ هؤلاء إنّما يشبهون العرائس التي تتحرّك وفق إرادة مولاها، فلا هي مهمومة بكرب أسيادها ولا هي تحمل في أعماقها حدًّا أدنى من ترحّم على حالنا،

مجرّد عرائس لها أن تسعى بين الأصابع تقتات، وتمضي في النهاية لمأوى سلمي بأوائل ليلها.

بعدها تعرّج الطريق قرب «الطود» مخالفًا لسير النهر، بدا لي أكثر عمقًا وضيقًا، وشظيات من حجارة تتراكم على جانبيه في أكوام عديدة، مفضيًا إلى مدينة العامّة بشوارعها الضيّقة المتقاطعة في زوايا قائمة، والتي تطلّ عليها واجهات منازل متلاصقة شديدة القرب من بعضها البعض، كان «رع» قد راح ينظر نحوي من السماء في مباشرة وتركيز وإمعان، ورحت أغمض عن بريقه وبهائه عينيّ.

بدأ سير الخيل يأخذ إيقاعًا بطيئًا رتيبًا، خاصّة فوق ملمس الأرض الخشن، لكنّني نزلت عليها بالسوط فارتدعت ومضت تسرع خطوها، مخترقة فيما قليل شوارع فسيحة تقوم بداخلها مساكن كبار الموظفين، ثم كان قصر سيّدي الملك قد راح يبزغ من بعد تلك المساكن عن كثب.

كان القصر متألّقًا، تزدان واجهته باللازورد والفيروز والذهب، وتتساقط من جانبيه أعواد الزهور مختلفة الألوان والأحجام والروائح، وتبرز من ورائه حدائق الزيتون التي راح رحيقها يستولي على أنفي.

تساندت على حارس وهبطت من العربة، دنا منّي «بام» -النبي الأول لآمون(**)- باشَ الوجه، كان حرّاس الملك المبجّل واقفين مصفوفين في مقدمة تشكيل الموكب ومن ورائهم الكهنة وكبار الموظفين وكلّ رجال البلاط، صافحت «بام» فاكفهرّ وجهه فجأة وهو يطالع ما آل إليه جِلد وجهي، قال في أسف بليغ:

- وحقّ «آمون»! لقد فشا «البهاق» أكثر في وجهك يا «ثثي»، ألم يُجدِ معك الدِهان الذي أعطيته لك؟

- أيّ دهان يا «بام»؟ كأنّه أوغل بالداء في جسدي أكثر!

- ماء «اكوي» مقدّس وله سحر العلاج.

- وربّ السماء أفنيت جلّ الوقت داخل البحيرة يا «بام» ولم يشفع لي سحر ولا رجاء.

- عمّا قريب سآتيك بحلّ وكيد، كن على يقين.

قهقهت ساخرًا، وقلت له:

- أنت غير ذي نفع يا «بام»؛ لا تستطيع حجر مرضي.

في نبرة موحية تمتم:

- مرضك يختلف كثيرًا عن أمراض أخرى.

قلت:

- لو أدرك بعضُنا كم هم مرضي! ترى أسيتغيّر العالم ولو قليلًا؟

- هذا لو أنّهم يدركون.

- الإدراك مسألة نسبية يا «ثثي».

- وتلك حقيقة أخرى يا «بام» ينبغي إقرارُها.

اقترب منّي أحد الحرّاس ودنا نحو أذني هامسًا:

- مولاي الملك المعظّم في انتظار جلالتك.

أوليت ظهري لـ«بام» وأنا أستأذنه بهزّة من رأسي، ومضيت

عنه، في اختيال وفي رفعة عبرت بين المتأهبين لخروج عظمته من غير أن أطرف بعيني ناحية أحد، فما أكثر العيون المغتاظة! شعرت بأنّ نظرة «بام» الراشقة في ظهري تحمل كذلك الكثير من الحسد، كدت أستدير له قائلاً: هذا مقامي أن أكون سرّ مولاي.. وهبه لي الملك المبجّل طواعية وعن حبّ وقناعة وعن استحقاق، فمت كمدًا يا «بام»، وليمت معك من يُبطن في قلبه الحقد تجاهي.

لكن وأنا صاعد على سلالم القصر راحت أيضًا الأفكار اللعينة الماكرة تموج في بالي، مع ذلك لا أنكر أنّني من سعى إلى تلك المرتبة يا «بام» متّخذًا من السبل ما تعبّد وما التوى. إنّما ألم يكن سعيي مشروعًا؟

سجّادة من ريش النعام تمتدّ من بعد الباب البرونزي المزخرف بزخارف من الذهب الخالص وقطع الألماس نحو جلسة سيّدي المهيبة فوق كرسيه في غرفة العرش، ومن تحته تتناثر بضع حشايا في اتّساق، اختلج وجهه أول ما رآني، بدا سيثب نحوي متلقّفًا إياي على صدره، لكنّه استعاض عن ذلك بابتسامة واسعة وأنا أدلف راكعًا تحت قدميه.

مسّد رأسي بأنامله، قال باقتضاب:

- كم أوحشتنا يا «ثثي»!

- عظّم الربّ شأنك، سيّدي لولا المرض ما برحت قصر جلالتك.

- كلّنا مرضى يا «ثثي»، عمومًا سأبتهل اليوم كي يعفو عنك «آمون».

ثم استقام ناهضًا فاصطفّ من حوله الحرّاس في صفّين

متقابلين، وقال:

- هيا بنا؛ «آمون» و«منتو» ينتظرانني.

في نسق تتبعه أقدام الحرّاس، يبدو إيقاعها منتظمًا وبه اتّفاق، يخطو سيّدي -أسبغه الرّب الأعلى بالعناية- في عظمة وفي جلال خارج القصر، أحد الحرّاس أمسك من خلفه العباءة المسترسلة في شموخ، واثنان آخران رفعاه ووضعاه على محفّته الوثيرة، «رع» من السماء راح يطوف حول وجهه، ويلمّع فصوص الألماس التي تستوي في كيان تاج «الخِب- رش»[١٥] الأزرق بأشعته الطاهرة فتبرق وتنثر بريقها على العيون، يركع الجميع وهو يهبط الدرج على المحفّة، يعفّر البعض وجوههم في التراب، تحني الخيول رؤوسها مهابة واحترامًا كاتمة الحمحمة، كانت صهباء عفيّة، ولم يكن لها مثيل في السلالة في كلّ المقاطعات، جاءته هدية من ملك بلاد «بنت» الحليفة.

كانت الأرض تحت أقدام الحرس تنفرج وتحتوي جلال مجيئه، وتنزلق بهم في سرعة وفي توقير ناحية عربته الواقفة على مقربة باعتزاز، أنزله الحارسان من على المحفّة ثم أراحاه في جوف العربة، وعيناه مستقيمتان في نظرة جامدة صارمة من دون تعبير، نظرة ملكية صرفة، كحل هاتين العينين بدا سيتقاطر فوق أكفّ المصطفّين تحته ليباركهم، والحرس يبدءون في امتطاء خيولهم إيذانًا بالتحرّك.

ركبت عربتي والتصقت بعربة الملك سيّدي من الوراء عن قرب، يرتحل الموكب وسنابك الخيل راحت تتدافع نحو الطريق بعنفوان، وسحابة من غبار تندفع في إثرنا ليبتلعها المشهد المنحسر فيما خلفنا، كانت التفاصيل تصغر ساجية والموكب

يزلزل بدن الطريق، وموج النيل يُسرع المضي ملاحقًا لسرعة الموكب كأنّه يتنافس، لم يكن ثمّة بشر يذكرون، كان الموكب يلتهم كلّ أدقّ ملامح الطريق من دون أن يكترث لمن ركع أو هلّل، أمّا الأشجار والنخيل المتفرّقين هنا وهناك كانوا ينحنون ليطلّوا على وجه الملك المبجّل الصبوح، كأنّ كلّ ما حولنا ينتظر البركة.

تفتح مقاطعة «الكرنك» ذراعيها لجلالة سيّدي، ترتّل الأحجار نغم استقباله، يلج الموكب من بوابة معبد «آمون»، يتخالط الحصا مهدهدًا لخطوات الموكب، تُفسح الأعمدة ذراعيها لمحفّة سيّدي، وتطأطئ المسلاّت العالية رؤوسها احترامًا وتشريفًا، تترنّم الحجارة بنشيد الغفران: اصفح عن جمودنا في وجهك يا مولانا.

يستقر أمام مدخل حجرة تقديم القرابين «لمنتو»، تتقوّس أشعة «رع» وتحتضن وجه سيّدي، كان كلّ شيء في الداخل مهيأً لتقديم القرابين، طاولة من خشب «السنط» أعدّت كمذبح للبهائم والطيور، وطاولة مجاورة تراصت فوقها زجاجات النبيذ الفاخر الباهظ، نبيذ أحمر وأبيض، وكؤوس، وطاولة ثالثة تكدّست عليها جميع أنواع الخبز.

تقدّم سيّدي المبجّل إلى الداخل، في أعقابه دلفت، ومعي «بام» وبعض كبار الكهنة وحرّاس، مضى «بام» يدور من حول سيّدي مسبلاً جفنيه مُغرقاً في تلاوة التعاويذ والقراءات، وينثر حول جلالته ماءً مقدّسًا تُليت عليه طقوس القبول ولقاء الإله، ثم أنهى دورته ووقف خلف سيّدي المبجّل، فبدأ حارس في حرق البخور الذي كان يملأ جوف مباخر من نحاس صُنعت في بلاد «آسيا»، مفرّغة بدقّة وهندسة وإتقان، ودخان البخور ينتشر

في فضاء الغرفة، ويسبح فوق الرؤوس لصيقًا بالسقف معاندًا جاذبية الأرض، يغلّف جو الغرفة التي تترامى الرسومات على جدرانها وعلى بطن سقفها بعبير من سحر، رسومات لرحلات «آمون» الأعظم فيما بين الأرض والسماء، وحلوله فوق مركب الشمس زائرًا زاهدًا، واستقراره النهائي في عرشه الأعلى في السماء.

مال مولاي قليلاً وتناول إناءً من لبن من يد حارس، ارتشف رشفة فأسرع الحارس بتلقّفه مريحًا إيّاه فوق المنضدة ثانية، بعدها بدأ الكهنة في الخارج يرتّلون تعاويذ التقرّب وتقوية الأواصر بالآلهة في تواتر وانسجام، كأنّهم نسيج شجيّ من عدّة أصوات متلاقية في نبرة ملمومة متّصلة كضفيرة من نغم، ثم أخذ خوار ثور يلوح من خلفهم، وحارسان يتشبّثان بقرنيه، راح بحافريه العريضين يفرك الأرض وينازع عدم الدخول نحو المذبح المعدّ في الداخل، وبدا يشكو للملك المبّجل بخواره الذي يئن، كما لو يعي أنّه سيُنحر الآن وفاءً وقربانًا، طرحه الحارسان بسيطرة شاقّة فوق الطاولة المستريحة في تمطّيها بعرض الغرفة، وأحكما وثاقه بأيديهما، ثم أقبل آخر واستقام فوق رقبته بنصل ساطور حاد، نزل عليه في لسعة خاطفة، انبثق الدم يفترش الجدران، طازجًا دافئًا وغزيرًا، وعلا من الخارج تهليل الكهنة والموظفين، كان خواره مبحوحًا، والثور يلفظ ما تبقّى له من أنفاس في وجه سيّدي، ثم لم يعد فيه من الحياة غير عينين جاحظتين ما لبثتا أن خبتا هما الأخريان.

بعد ذلك توالى سوق الثيران داخل الغرفة، وتتابع انبثاق الدماء، إلى أن اكتفى مولاي بمئة رأس، وقد بدا إنهاك اللون

الأحمر الذي أغرق المكان باديًا على وجوه الجميع، ثم طرف بعينه فأسرع حارسان برصّ أجسام طيور الإوز والسمّان فوق المذبح، ومضيا يجزّان الأعناق طيرًا تلو الآخر، ومع كلّ رقبة طير تُحشّ، كان سيّدي يجرع ملء فمه جرعة من النبيذ رافعًا رأسه لأعلى مبتهلاً لـ«منتو»، أحسست به كأنّ صوته مكتوم، آثرت أن أُبعد جميع المرافقين لمولاي في الداخل خارج باب الغرفة، استطعت أن أدنو منه وأن أصغر لما يهمهم بصوت هامس:

- لقد كان زاد السماء عددًا وفيرًا من الرجال وصروح شيّدتها بإخلاص وذمّة، نفّذت على الأرض لأجلكم أيّتها الآلهة المصونة ما قد ينتفع به من يأتي بعدي من الملوك، خصّصت لكم قرابين تتكوّن من كلّ الأشياء الطيّبة، بنيت لكم مخازن لأعيادكم ملئت بالطعام، ولأجلكم صنعت أواني طعّمت بالذهب والفضة والنحاس بلغت الملايين عددًا، لقد كنت الابن الذي أحيا وخلّد اسم أبيه، فهل الجزاء مثل هذا الألم؟

وبدت غمغمة متحشرّجة تصدر من داخله، تناهى إلى أذنيّ صوته وكان ممزوجًا بالمكابدة غير المعلنة:

- أنا أعاني، فأواه يا راعيّ «آمون»، وأواه يا إله الآلهة ويا باطش الذراع «منتو»، أبي «حور سهر تاوي» مهدئ الأرضين ترك لي إرثًا شاقًّا أيّها المبجّل، وارتحل نحو الحياة الأخرى من دون أن يترك لي أيّ عون.

في تحفّظ همست له من على بُعد:

- حفظك ربّ الشمس الأعلى وأعانك يا سيدي.

استدار نحوي وهو يبتسم في جلال ورصانة، بدا في انحناء

جسده السنّ الطاعن، وملامحه جرت تهتزّ اهتزاز التأثّر:

- أوار الحرب لم يزل مستعرًا في البلاد شمالا وجنوبًا يا «ثثي»، وقد أوشكت على السأم، أما لهذه الحرب الضروس أن تجد لها مستقرًّا!

- عمّا قريب، الفوز يلوح في الأفق، الجيش مغتبط للهزائم المتتالية التي يلحقها بالعدو.

- قل الأعداء! الجبهات مفتوحة على طيبة من كلّ اتّجاه، والخونة يا عزيزي في ازدياد وفي تكالب.

دنوت منه أكثر، كان صوتي خفيضًا محاولاً بثّ فكرة أنّني أمين سرّ سيّدي الأوحد لمن يقفون في الخارج متحفّزين:

- كلّهم سيأتون إليك راكعين، جيشنا له الغلبة وله سبق الانتصار.

أومأ برأسه إيماءة طفيفة، إنّما مضت نظرة الحيرة تهرب من عينيه، ثم أشار بسبّابته للحرّاس فأقبلوا بالمحفّة يحملونه، ويريحونه ببطء داخل عربته.

وتحرّك الموكب...

كنت مضطرًّا لمرافقة موكب سيّدي -المتناهي في عدله ومُلكه- حيث قصره الكبير، ثم الرجوع إلى قصري ثانية، لم يعد الأمر شاقًّا بقدر ما وددت أن أختلس تلك النبذة الأخيرة من ضوء «رع» المنزّه، والانغماس بدائي في مياه بحيرة السيّدة الأم «اكوي» قبل أن يحقنها الغروب ببرودته.

كعادتي كلّ يوم، رحت في أثناء العودة أضرب ظهر الخيل

بسوط التلّهف والتوتر، حتّى وإن أخفقت البحيرة في شفائي لزمن مضى، فإنّ الأمل يسكنني لا يبارح الطموح.

كان «رع» يدعوني للإسراع، يقول: أنا ما زلت منتظرًا.. جاهد أن تنال ذيول أشعتي المباركة.. وقد لا يُدرك الشفاء إلّا في وهلة عابرة من زمن منسيّ.

بلغت أواخر النهار بعد ضنى، كان كلّ شيء يشي بهدوء مستفزّ، لم يكن من أحد في الجوار إلّا حفيف أوراق الأشجار التي تتراقص على بساط الأرض.

تفقّدت الدنيا من حولي وفي داخلي يسكن سأم كأنّما لا نهاية له. هل يبيت حالي ككلّ أحوال الحيارى الذين يسكنون بوتقة الأرض؟

قبل أن أدخل القصر -ولم أهتم- أزلت عن جسدي الملابس واندفعت نحو البحيرة، استعدت في دفء مياهها أنفاسي، ووجه ابني يخامر عقلي بلا تبدّد.

غطست في المياه الساجية بما يلائم الأمل المراود تمامًا...

وكان قلبي يخفق في أسى ومن غير استقرار.

بوّابة جانبية

الوجوه تميل إلى صفرة الاستسلام المزمن، زفرات رتيبة يبثّها فم الصباح الناعس، وغشاء من ضباب يلثّم ملامح اليوم، تتقاطر وجوه الخلق نحو جوف الشارع الواصل بين منطقتين مثل دموع مالحة، كأنّهم يعبرون من بؤس إلى بؤس أشدّ، الأصوات حول «خرفانة» انتابها صهد المعاناة، السلامات، التحيّات العابرة، الدعابات على مضض، ولا شيء يستطيع أن يحمل هؤلاء من يوم حادّ إلى يوم أقلّ حدّة، ثمّة أناس في تلك المدينة كأنّهم هيئوا لكلّ هذه الأوجاع الخرساء التي تقتضيها ظروف محيّرة، أناس كأنّ سائر الهموم المنبعثة من متاهة الوجود هي حياتهم نفسها، بلا زيادة أو نقصان، ومن دون مبالغة أو افتراء.

إسفلت المدينة يجيش بالخطى السائمة، المدينة تفتح مصراعيها -بلا تدبّر- لأوجاع الزمن كافة، الزمن الفردي، الذي يعيشه كلّ واحد باتّساق رؤيته فقط.

الشوارع داعرة، تكتنز في جوفها المبهم تشوّهات الأشكال وتباينها، تكتنز السأم والجور وتفرّخ الهمّ كغدّة خبيثة.

المدينة تحاوطها الحجارة من كلّ اتّجاهاتها، وتنبض في أبدان قاطنيها عوضًا عن أفئدة بالية، ترتع المحن بين دروبها من غير عتيد ولا رقيب، تشكّل مع قسوة الحجارة المعضلة أفقًا من دوام الانقهار، لا تعرف المدينة من الرحمة قدر ما تعرف من

لعنات الأقدمين، تسبح داخل دوائرها إلى ما لا نهاية.

على رصيف من جانب الشارع يتربّع أحدهم وهو يزن «الحشيش» فوق ميزان صغير، وفي فمه سيجارة مكدّسة بالكيف، يخرج دخانها ليضفي على الهواء لمسة الانسطال، ولمسة الاستسلام البديهي، ثلّة من اللامبالين يزمجرون، يهيّسون، يتجاذبون أطراف أحاديث جدلية لا طائل منها، تلهية وتسرية.

«خرفانة» تتابع الأشكال وتختزن داخل عقلها الوجوه في عادة ليست سواها أنيسًا، وعلى مشارف كلّ يوم جديد تدرك أنّها مقبلة على الانحسار التام عن بهجة الحياة برمّتها.

وهي تجلس، فتبدو تمامًا مثل تمثال من صلصال جاف متشقّق ليس من حياة تدب فيه غير عينين مشقوقتين بالعرض تبدوان في محيط وجهها المتغضّن كخطّين من حبر باهت وكلّ ما تفعلانه التفرّس اللحوح في الغادين والرائحين، مضت تتابع بعينيها هاتين الثلاث صغيرات -بنات ابنها- وهنّ يتدافعن -كأنّهنّ يتسابقن- بضفائرهن المجدولة، والملقاة لأسفل حتّى خصورهنّ، نحو بائع جوّال أخذ من أول الشارع يصيح:

- كتاكيت، كتاكيت.

فتصرخ في حدّة واهنة:

- يا بنت، والله لتأخذي علقة محترمة أنت وهي.

عجوز، قديمة قِدم البيت الذي راح يتوارى بفعل الزمن خلف طبقات الإسفلت التي تراكمت طبقة بعد أخرى على كاهل الطريق، لم تكن لها عادة غير الجلوس منذ طلعة الصبح وإلى أن تغيب الشمس أمام فم البيت تراقب العابرين بعينيها الضئيلتين

وفضولها الذي لا يُخفى على أحد، ذلك الفضول الذي يميل له هوى البعض ولا يستسيغه آخرون، تراقب براءة العيال الذين يلهون أمامها وسط الآثام التي اكتسبت بمرور البؤس لمحة من وجه البراءة نفسه، وقد يبدر من شفتيها تعليق ما على أيّ عابر -إن أمكن- ربما لا تسمعه هي نفسها من شدّة خفوت صوتها.

تجلس متكوّرة وقد بدا جسدها الذي تداخلت ساقاه في بطنه من فرط الهزال كقوقعة مهملة على شطّ مهجور لها أمد، تقزقز اللب -عادة أخرى تلك- وتغزل خيوط النهار، الواهن منها والعفيّ، لتصنع أفقًا ترفع نحوه رأسها كلّ فينة وفينة فتقلّب عليه بصرها الذي استحلبه مضيّ الزمن من دون أن تشعر أصلا أنّه مضى.

في «الكرنك» يسمّونها «الخرفانة»، لم يكن ذلك نعتًا من باب السخرية أو الاستهتار أو الاستخفاف، وإن ظنّ الغريب هذا، إنّما لائتلاف المقرّبين من أهل «الكرنك»، والجيران الذين يعرفونها، مع روحها الطيّبة وتعوّد صغيرهم وكبيرهم مشاطرتها -وبمحبّة بالغة- الدعابة التي لا ينطق فمها إلّا بها، ولم تُعرف بين الناس بميزة أو غواية سواها، ولدها نفسه الشيخ «غالب» لم يكن يخاطبها إلّا بذات النعت، بناته كذلك ينادونها: يا جدّة «خرفانة». وكم تحب هي ذلك، اسم «خرفانة»، لعلّ ذلك يلاقي هوى في نفسها، حيث يتيح لها استلام من تشاء وقتما تشاء بتهكّماتها اللاذعة، والسافرة بعض الأحيان، وبلا أيّة تحفظات.

- يا مقصوفة الرقبة.

تطارد حفيداتها اللواتي انطلقن نحو البائع الجوّال بصيحة مبحوحة قصيرة، وابتسامة لا تغيب عن وجهها تصاحب صيحتها،

تقول بعدها بنفس النبرة المبحوحة:

- اشتري قرطًا «فالصو» بالعشرة قروش وداري أذنك العريانة يا تالفة الرجاء أنت وهي بدل المسخرة ورمي الفلوس على الأرض.

وفي لحظة أخرى يشدّها الأفق المتخيّل فيترامى بصرها عليه وهي تمصمص بلسانها تجويف فمها الخالي من الأسنان في رتابة.

كان صوت البائع لا يكف عن الزعيق من آخر الشارع: كتكوت بعشرة قروش.

في أقفاص صغيرة الحجم من كرتون مقوّى صُنعت بجوانبها فتحات تهوية يضع البائع الكتاكيت التي يبتاعها أولاد الشارع، فيهرولون بها في فرحة وانتشاء طفولي، ربما كانت المرّة الأولى التي يمرّ فيها بائع ببضاعة كهذه، كتاكيت! حتّى الكتاكيت صارت سلعة! وكانت الحفيدات الثلاث قد اشترين ثلاثة كتاكيت كلّ واحد لا يتجاوز حجمه مقدار ضمّة كفّ واحدة منهنّ، وفي حرّ هذا النهار أخذت الكتاكيت تصأصئ بوهن شديد أمام عين الجدّة «خرفانة»، وهي تتأمّل ثلاثتهم في عطف وشفقة، شعرت بأنّ الكتاكيت أضعف من أن يدور بها بائع تحت وطأة هذه الشمس فقط من أجل بضعة قروش زهيدة، شعرت بحرمة ما، والكتاكيت لا تستطيع حتّى تحريك أجنحتها الضعيفة، مكان أولئك الصغار أسطح البيوت العالية الرطبة وداخل الحظائر الظليلة، وحين اقتربت «أميرة» أكبر الحفيدات بالكتكوت من وجه الجدّة حتى لا يكاد يفصل بينه وبين عينها بضعة سنتيمترات، وعلى وجهها تضيء غبطة التجربة الطفولية، قالت:

- شوفي يا جدّة، شكله حلو.

استقامت مع عين الكتكوت في نظرة متأمّلة، كانت عيناه كأنّهما نافذة لدراما مؤسفة، ماجنة، وفي بعض من أسى ومرارة ردّت:

- ليس عليكِ ذنب يا صغيرتي، الذنب على من جعل مثل تلك الأرواح المتهالكة لعبة في يد طفلة مثلك.

لم تفهم «أميرة»، لم يعنها أن تفهم، كان عليها أن تستمتع قدر حاجتها باللعب مع الكتكوت، وبنظرات لا تستقر دامت الجدّة تتابع البائع الذي لملم القروش من الأطفال وبدأ يغيب في متن الطريق، ومن ورائه قطيع من عفر تراب أحدثته تحرّكات الصبية من حوله.

كانت تداعب أفقها -كأنّها ليست تبالي- بنظرات واهنة ملّت تكرار المشاهد.

بوّابة مهمَلة عمدًا

دبيب الذكريات يسري داخل رأسه، يلجّم الأمل، ويزرع مع كلّ يوم يمرّ غفلة جديدة.

يا للحسرة! ألا تنتهي قط؟ أليس من سبيل لفرصة الراحة؟ مجرّد فرصة.

دار على الأطباء، من جنوب البلاد لشمالها، واحد منهم قال إنّ «البهاق» فيه مستحكم، ولا علاج له، إلّا الصبر على قضاء الله النافذ، فـ«الميلانين» في دمّه قد نقص نقصًا لن يُستدرك، يومها تشاجر معه، اعتقد أنّه يضلّله، وفي كلّ مرّة يعود للملّاحة، يغتسل، مرارًا وتكرارًا، بل ويتوضّأ، يصلّي على ضفتها راجيًا من الله القبول والشفاء والمغفرة، سافر «إسكندرية»، وغطس في الماء، قضى أسبوعين طامرًا جسمه تحت ملوحة المياه، ولم يجدِ معه ذلك، اتّجه نحو «البحر الأحمر»، أحد أصحابه قال: كلّ يوم في مصيف، يا بختك يا سيدي. هذا المغفل لا يعرف أنّه لا يتنزّه ولا يروّح عن بدنه، كان الأمل فحسب، هو الذي يدفعه لإبقاء جسمه من أول النهار لآخره داخل المياه المالحة، وكان يرفع عينيه إلى السماء، وجسده مختبئ تحت سطح الماء، قائلاً: يا ربّ، أنا مجرّد شاب لم يبلغ أعوامه الثلاثين بعد.

على أنّه يدري دراية ما، راقدة بلؤم في بطن تفكيره، أنّ الموضوع لا علاقة له بحسد ولا بعين كما أخبرته العرّافة، الموضوع

في الأصل إثم، والله يجازيه عليه، لكن أليس من الغباء أن يعيش مدنّسًا بالإثم ما دام قد استغفر الله طيلة الوقت الفائت؟ إنّما كيف يدري إن كان الله قبِل توبته أم لا؟

وجه «خنسو» المرتسم قمرًا في السماء بدا كأنّه يتشفّى فيه، ألم تدعني منذ قليل للشفاء على يديك وتحت أمواج ضوئك الفضيّ!

زفر في يأس مرير، طلع برأسه إلى أعلى قليلاً يتفقّد الطريق، كان الشارع يمتدّ معوجًّا في تواز مع سور كورنيش النيل، لم يكن ثمّة بشر في الطريق، مجرّد جروين كانا يتمسّحان في سور المعبد الذي يربض هنالك يحتوي فضاء المدينة وشوارعها في بأس وفي فخر.

يتقاطر الماء المالح من وجهه وهو يرتقي خطوات إلى فوق، منصرفًا عن ضفّة الملاّحة، خطر له أن يريح صدغه على الإسفلت، ثمّة نزوة طارئة تشدّه أن يفعل، ربما يرغب في التوّحد والأرض، هي الأم، وكما منها الداء منها الدواء، لم يكن يعرف أيّ خاطر هذا ولم يكن قد بلغ أيّة حافة للهلوسة بعد! لكنّه، وفي جنب الطريق، مدّد جسمه، أراح صدره فوق تراب السكّة الناعم، التصق بأذنه فوق الطريق وأخذ ينصت، كان جوف الأرض يخفق من تحته في ألق، نفس خفقان فؤاده المغبّر بالهمّ والأسى، وكان صقر وحيد يطوف خواء الجو في خمول، إنّما راح الوجيب الطالع من عمق الأرض يدقّ في نغم شجين، صرفه عن ملاحظة أيّة تفاصيل مجاورة، كأنّه يخبره بأبدية الداء.

في خبل عشوائي غير مصطنع أخذ يشتمّ رائحة الإسفلت، يتنفسها في شوق طارئ، خيّل له كلّما تنفّس أنّه يعبق كيانه

برائحة الجسد القديم، عندما كان يخرج من غطسه في مياه النيل رطبًا مغتسلاً، لا داء فيه ولا علّة، ويفرش زهوه وفتّوته فوق الوجوه وداخل العيون.

قلب الأرض لم يزل يضرب، ينبض بداخل عروقه، يموج في مرارة، ذات المرارة إيّاها، كأنّه يحمل في القرار تلك الذكرى المؤلمة، ويقدّمها له ليزيده حسرة وندمًا، ذلك التنبيه إذن لابد من أنّه بقايا من ذكريات الأمس البعيد، لكن كلاّ، الأمس انطوى منذ زمن ولن يسمح ببزوغه مجددًا، أيًّا كان مدى الاجترار واللوم، غير أنّ الرائحة التي تتسلّل داخل كلّ أعصابه، والتي خمّن أنّها رائحته القديمة، كانت مختلفة، هي رائحة ماء عذب، لا يمتّ بصلة إلى الماء الذي اغتسل به في النهر قبلذاك، تتشابه الروائح أحيانًا وتتخالط، يا للعجب! الرائحة فيها فُتنة جاهد أن يمحوها من خياله، رائحة أنثى، خارجة من الحمّام ومن تلابيب الذكريات ووجهها يبثّ عشقًا فريدًا، أنثى كانت، كالعصفور الوديع الذي فتك به طير جارح، كهذا الصقر الذي يحوم في السماء فوقه الآن.

يجوب الصوت في خلايا الأرض ويبلغ أذنيه من بعيد:

- متى سنتزوج؟

يغالب غيظه من الأرض ويتعمّد أن يستدير ليقي أذنيه رنين الصوت الملحّ، يستلقي على ظهره موسّدًا بين كفيّه رأسه، ينصرف نحو النجوم، يرمقها في تأمّل عابر.

وكم كانت النجوم هذا المساء قريبة!

كانت تفصله عن باب السماء، تصنع ذلك النسيج المتلألئ الأشبه بومضات ماض لا يرغب كثيرًا في أن يقف على تداعياته، على الرغم من أنّه عاشها على وجه الدقّة، ولحظة بلحظة، ماض لا يكف عن التوهّج في ذاكرته أو الصحو كلّما حاول أن يدفنه في قرار مكين.

- طيب، متى سنتزوج؟

يا لذلك الصوت! يتطلّع إلى السماء ثانية، يحاول الانهماك في فيض النجوم، كلّما رفع أنامله إلى أعلى أوشك على لمس النجوم، لكنّها كانت تراوغه، ماكرة، تنساب في نعومة غاطسة داخل صفحة السماء مثل سمكات ملساء متمرّسة في عالمها لا سبيل لإمساكها أو اللحاق بها، إنّما لا يعرف لماذا يشعر أنّها لا تراوغ بقدر ما تتحاشى ملامسته! لعلّها ترهبه، تقشعّر من ملمسه، تأنف منه هي الأخرى، وثمّة تحليق في السماء فوقه يبدو كالنذير، الصقر بدا يضرب على غير هدى، لكنه بدا كذلك يرسم حدود الوجه الذي يهرب منه في دقّة وتذكرة؛ الوجه الأبيض المتوهّج.

لا يدري لم تعبّأ فجأة بذلك الإحساس الآسن من الحرقة؟ خيّل له لوهلة أنّه على وشك أن يبكي. كلّا، بالأمس البعيد آويت ذاك الوجه في عمق سحيق وتناسيت، كلّا، كلّ تلك الإيحاءات المفجعة المنسابة في الخواء قبالته المفضية إلى الذكرى إيّاها مجرّد وهم ليس أكثر، لقد نسي، حتمًا فعل. لكن الصقر كان لم يزل يحلّق في الفضاء مثل الذكرى ذاتها المنسية، أو الغافل عنها الذهن في محاولة بدت ليست ذات جدوى.

لا يحتمل خوار الأرض من تحته، ولا الصوت القادم من عمقه

السحيق يردّد في خفوت: هه، متى سنتزوج ومتى...؟

يبتسم وهو يضع كفّه على فمها في حزم مقاطعًا قائلاً: لا تكملي.. فهمت.

يترامى على مدّ الذكريات شطّ مبهم من حنين، يتذكّر أنّه من راود، لم تراوده، ولم تكن الوحيدة التي راود، إنّما يؤكّد لنفسه الآن أنّها الوحيدة التي خلّفت في قلبه المرارة وأفُلت، أليس هو الحبّ إذن؟ العشق الآسر، ما دامت تعيش معه روحًا والجسد فان.

سمّاها الملكة، كان يناديها الملكة، لأنّها في الحقيقة كانت ملكة، كالملكات اللائي يكلّلن جدران المعبد في صلف وكِبر، قابلها حذاء جدار من تلك الجدران، كانت تجلس وعيناها شطر الغيب منقضية، كانت صغيرة الجسم ولا يقارن جمال بجمالها، لم يلفت انتباهها، بقدر ما فعلت هي، وثمّة شيء يستولي على تركيزها، قال في نفسه: أخيرًا تمثّلت لي «عاشيت»[١٦].

راح وجاء قبالتها لكي تشاطره أيّ اهتمام، بيد أنّها من الرصانة والهدوء ما جعلها -في غير كلفة أو ادّعاء- لا تبدي ما طمح له، كانت تُنقّل بين أرجاء المعبد الفسيح بصرها من دون بادرة، وتجوّل عينيها فوق رسومات الجدران كأنّها تراها لأول مرّة، يتطاير شعرها جامحًا بلا كبح، أدرك إثر فحص سريع أنّها كبرى بنات الشيخ «غالب»؛ إمام الجامع الذي مات مع من مات عندما سقط سقف المسجد على المصلّين، لم يعرف أنّ الزمن يجري بسرعة إلّا عندما رآها في المعبد، كانت منذ قريب مجرّد بنت صغيرة لا تلفت انتباه رجل، إنّها الآن نضجت، وصارت فتاة مكتملة الجاذبية، بل تحمل فتنة من نوع غريب، إحساسه بها لم

يخالجه في واحدة من اللواتي عرفهنّ من ذي قبل، أولئك كانت علاقته بهنّ تنتهي حينما يزرنه في منزله، منزل موروث من أب وأم يعملان في الخليج ولا يأتيان للمدينة إلّا حين تلّح الحاجة، يطمئنان أنّهما أنجبا ذكرًا وليس بنتًا يخشيان من غدر الخلق عليها، اقترحا عليه أكثر من نوبة أن يلحق بهما، لكنّه كان يعشق هذه المدينة، ومهنة الإرشاد، لعلّه يعشق على الأرجح إحساس الوحدة، أن يكون منفردًا بالفعل وبالتصرف، من دون رقيب ولا منغِّص، يأتي ما يحلو له ويعبث كيف يشاء، فالحياة برمّتها ليست تستحق إلّا العبث، إنّما إذ يخلو لنفسه يفتقر إلى شيء ما، ربما ذلك الحنين المُحبط للأسرة وللأبوين، لكن أيّ أبوين؟ من تركاه في أمسّ ما يكون لعونهما سعيًا خلف أكل العيش -كما يروق لأبيه أن يتذرّع- في صحبة منزل بائس يطلّ على النيل من جانب في غربة وجمود، ومن الجانب الآخر يطلّ على حجارة أقرب ما تكون للجحود، يعيش بداخله مؤرقًا أغلب الوقت ومحرومًا من مزية الدفء.

تساوره الأفكار وهو يتطلّع لها معانيًا تلك اللهفة للتحاور، أنتِ ابنة الشيخ «غالب»، كم كبرت! كيف لم أقف على مثل هذا الجمال منذ قبل إلّا في الخيال؟

تركها، حاول أن ينشغل بزبونين إنجليزيين يرافقهما لشرح المعبد، إنّما سريعًا ما رجع لها بعينيه يعاينها من مقربة، صافح الأجنبيين في عجلة متقمّصًا التعب وقال لهما: عذرًا، أشعر بإجهاد، لنكمل في الصباح. مضيا عنه في إشفاق، لم يكن الإجهاد إلّا حجّة لجأ إليها ليتفرّغ لها، اتّكأ بساعده على أنف أحد التماثيل وأخذ يراقبها، يود لو تنظر له نظرة واحدة ولو عابرة، سيقبض على

بصرها عندئذ ويجبرها على مبادلة الترقّب والاهتمام، لكنّها بدت لا تأبه بأيّ شكل للواقف أمامها يكالب أن تستدير وتوليه مجرّد نظرة، حفيف قدميها يعلو وهي تتّجه لموقع آخر، جدار آخر، من دون أن تشعر بوجوده في الأساس، لم يكن عليه أن يفعل أكثر من المضي خارجًا في انتظار فرصة ثانية قائلًا لنفسه: سيجيء الأوان يا «عاشيت».

وفعل.

كان وجهها في الليل قد راح يؤانسه، يفترش مسطّح السقف فوق عينيه ببياضه اللامع وبراءته الباهرة، وفي الخارج صرير حشرات ودبيب أقدام متناثر وبرد، كانت الرطوبة تخرج من بطن الأرض لتفتّت عظامه، دسّ جسده تحت الغطاء أكثر، وظلّ محدّقًا في وجهها.

هي «عاشيت»..

«عاشيت»، كم من المرّات زار -قصدًا- مقبرتها في البرّ الغربي، سواء من خلال شغله كمرشد سياحة أو من خلال تجوّل حرّ بغرض الفسحة والتأمّل، المقبرة التي اكتشفها الأستاذ «ونلك»[١٧] في موسم حفر عام ١٩٢٠، أميرة من أشدّ أميرات الفراعنة جمالًا، ماتت قبل أن تبلغ الثالثة والعشرين، كان يسافر إلى البرّ الغربي خصّيصًا من أجل تلك المقبرة، راعه فيها نحت التابوت المتقن منقطع النظير، نحته نفس الفنّان الذي نحت تابوت الملكة «كاويت»[١٨] الفاخر الساحر. على جانب التابوت الشرقي تجلس «عاشيت» وتحت عرشها يجلس كلبها مقعيًا، وخلفها نُقش رسم لوصيفة تحمل في يدها مروحة عبارة عن جناح إوزة، ولبّان يقدّم لها إناءً من لبن لتحتسيه في نشوة ملكية، طاف

مع «عاشيت» في رحاب تاريخ غبر أكثر من نوبة، كان يتحسّر لمجرّد أنّها مجاز ليس أكثر، صورة مترقرقة في خياله لا يمكنه أن يبلورها لتصبح حقيقة يبصرها عيانًا، عاش معها في قصرها الطائف في ملكوت الخيال ملكًا، يجوبان الأرض السفلى والعليا في موكب واحد فريد، يهديها العطور والنفائس، وتمنحه الوله والسحر، كم توسّد صدرها وتهامسا! كم تخلّل شعرها بأنامله وكم انتحب في حضنها! وكان قصرهما موطنًا للعشق والرقص والغناء ولسعادة لا تماثلها سعادة، كان يتأبّطها ويدور معها على أنغام سيمفونية من وجد في بهو القصر متأمّلاً عينيها الواسعتين، فيهما رغبة وفيهما شبق، يلامس بشفتيه جيدها، فتنحدر العذوبة من السماء وتحتوي جسديهما، ومتى طالت الرجفة جسمه من أوله إلى آخره، متى استراحت هي على صدره منهكة من رونق اللحظة، ولطالما راحت في الخيال تستجيب له دون مراوغة أو تحفّظ، لطالما لمّ أشواقهما المبعثرة طيلة اليوم منذ بدئه فراش واحد تحت ستر الليل المتصابي، وكانت دائمًا فورتها بمقاس فورته، يبدآن معًا، وينتهيان كذلك، بلا نقصان في رغبة أو زيادة، كأنّهما خلقا من نطفة متفرّدة واحدة، وتشاطرا الحياة في روحين شفّافتين.

صورة مترقرقة في خياله لا يمكنه أن يبلورها لتصبح حقيقة، الآن أبصرها عياناً..

هي إذن!

«عاشيت» ابنة المرحوم «غالب».

يجيء الصباح متهاديًا، أغلق على وجهها عينيه ونام، تعجّب من كون «عاشيت» تتقاطر من قافلة التاريخ البعيدة ويستحلبها

الزمن لتتجسّد فتاة معاصرة، أيّ حيلة تلك! أغلق على وجهها عينيه، وفتحهما عليه، كان ما زال مرتسمًا بنفس البراءة على بطن السقف، تمطّى وفتح النافذة، السيارات تجري بين خطوط الشوارع في تؤدة وفي رتابة، وكانت الشمس تحتضن سور معبد «الكرنك» الشاهق، تتخلّل أشعتها حجارته شبه المتلاحمة من بين ثقوب ضئيلة تتناثر عبر السور فتنفذ لما وراءه، تستريح قليلا داخل حرم المعبد ثم تستكمل دورانها حول الأعمدة العالية فتحاصرها، وتحاصر عينيه أيضًا، قال لنفسه: لو كانت فقط سمحت لي بالحديث معها!

الأيام تترى، وهو يتربّص لكلّ موقف وكلّ لفتة يمكنها أن تخوّل له فرصة، يسعل كثيرًا وهو عابر من أمام بيتها المقابل لمنزله لعلّها تنتبه، يتعمّد أن يقف طويلًا يحكي مع الجدّة «خرفانة» وبأيّ مبرر، يجلس أمام منزله على مصطبة ويصطنع شرب الشيشة، بل في الحقيقة تعلّم شرب الشيشة من أجل أن يشغل وقت الجلوس الرتيب ويلهي نفسه في سبيل الانتظار، انتظار أن تخرج فتنتبه، يدرك تمامًا أنّها تصرفات صبيانية صرفة، إنّما بدت له ملائمة لطبيعة المسألة، بات يقضي الكثير من الوقت في مسامرة الجدّة «خرفانة»، التي قالت له في يوم:

- تشرب الشيشة بشراهة يا ولدي، خف على صحتك.

كاد يقول لها: هي تسليتي الوحيدة يا جدّة في انتظار خروج الحبيبة حفيدتك أو دخولها، وإلّا قضمت يديّ من شدّة القلق. إنّما ردّ عليها قائلاً:

- إن شاء الله يا جدّة، ادعي لي أنت بالهداية والله المستعان.

تحيّر كيف يمكنه بسهولة سلب أيّ قلب من قلوب أولئك اللواتي يتقن لمجرّد التحدّث إليه، ولو في مناسبة عابرة، ولا يستطيع مع ذلك شدّ انتباهها ولو قليلاً؟ ألم تسترعها وسامته؟ أقلّه يمتلك الفلوس والتفرّد والشباب، ولا ينقصه شيء. صحيح قد تكون هذه أمورًا مغرية لأخريات، لكن ربما ليست لها. قال في نفسه: تختلف طبائع الإناث من واحدة إلى أخرى، لعلّه لا يروق لها بأيّة حال، وفي النهاية الهوى أذواق.

إلى أن كاد يملّ، كان شهر أو يزيد قد انصرم، وتيقّن من استحالة استمالتها بأيّ طريق، بدأ الموضوع يأخذ معه منحى الفتور والكلل.

حتّى كان أن ابتسمت.

كان ذلك مساءً.

لم يصدق نفسه ساعتها، ابتسمت! معنى هذا أنّها ليست بتلك الاستحالة، الغريب أنّها ابتسمت بجذل، والأغرب عدم توفّر داع مناسب لمثل هذا.

كان -كعادته- جالسًا على المصطبة يسحب أنفاس الشيشة في عشوائية وفي عدم خبرة، وكانت نظرته لها وهي تلج من باب البيت مجرّد نظرة مخفقة يائسة يعرف أنّها لن تقدّم ولن تؤخر، لكنّها استدارت نحوه في رفق، وركّزت فيه بنظرة ثاقبة، ثم رمته بالابتسامة، أوشك آنذاك أن يقفز من مكانه مهلّلًا، رمى ليّ الشيشة ومكث واقفًا لثوان، جاهد أن يتمالك أعصابه، فأخفق، ارتجف جسده رجفة خاطفة في غبطة، وكاد يصيح: انتظري. لكنّها كانت قد دخلت بيتها بالفعل، وأغلقت وراءها.

* * *

يقول أمل دنقل: (القطارات ترحل فوق قضيبين.. ما كان- ما سيكون) وذكرياته مجترّة الآن على ذات القضيبين، ما كان- وما سيكون. أمّا ما كان فقد ترك أثره بالفعل ومضى بلا رجعة، وما سيكون إمّا انحصار مؤكد داخل شرنقة المرض، وإمّا فرج من عنده، عند أن ينال رحمة الله القريبة.

هذا القلب المتعب، ما باله لا يفتأ يعبث بالجروح كلّما التأمت، أو بدا له ذلك؟

لم يزل يتطلّع إلى السماء ودموع تغرق الوجه المكبّل بالبقع، لا يحتمل الشفاء كثيرًا، أيّ أمل ليس أكثر من قشّة يتعلّق بها، فكّر في أن يهيل بعض التراب على وجهه لعلّ في التراب شفاء، إنّما سرعان ما شخص ببصره ثانية نحو السماء وسيارة في الجوار تعبر ببطء، صاحبها يرمقه في اندهاش، لعلّه يعرفه، يبادله النظر كأنّه يقول: لم أصب بعد بالجنون، إنّها مجرّد الذكرى، وعلى كلّ حال ليس الجنون ببعيد.

أيّتها الذكريات الأليمة أتوسّل لك أن تفارقيني الآن، قبل أن يصهرني الألم داخل جوف الأرض، ما زلت أسمع الصوت البعيد: متى، متى...؟

حين التقاها وجهًا لوجه، كان هذا قدرًا، كانت خارجة من باب بيتها وكان يدخل منزله، تسمّرا في نظرة ثابتة قبالة بعضهما، وثمّة إحساس تأجّج في ذات اللحظة، من جانبه هو إحساس بُني على مهل ومن غير تعمّد، أمّا من جانبها فلم يعرف تحديدًا إن كان هو إحساس مواز أم إحساس الغرابة؟ لكنّها وقفت تتأمّله في تروّ، كان الشارع شاغرًا من الخلق، لم يعرف إن كان ذلك تواطؤًا أم مباركة! أطالت إليه النظر فشعر كمن أجفل، كان عجيبًا أن

يشعر بمثل ذلك! لطالما انفرد هو ببثّ ذلك الإحساس من جانبه إليهن، لطالما افترض في نفسه الثقة من دون ريب، إنّما الآن لا يدرك ما الذي يحدث ولماذا يحدث؟ سقط في الشباك أم أنّ بعيد المنال دائمًا يحتلّ الشعور؟ ربما هي وجلة المباغتة، وستنصرف عمّا قريب، لكن كلّا، كلّ المؤشرات تؤدي إلى حتمية السقوط، تلك السخونة التي هفّت شفتيه، ذلك الوجيب الخافت الذي يرعش في كيانه، الدوار الذي اكتنف دماغه، تلك مؤشرات لا تأتي طارئة أو بطيش، إنّها عميقة بما يكفي للاتّزان الشعوري ووضع المفاهيم في سياق محايد، أنا أحببت من دون شك، كان يقول في نفسه وهي تتمحّصه في كثير من سكينة وارتياح وروّية. طبّ الصيد من غير تواطؤ، ومن غير احتمال، أليس كذلك؟ عليه أن يُسرع الانتهاز ويقتنص اللحظة، تقدّم نحوها، انفتحت شفتاه، إنّما انغلقتا ثانية، وكأنّ كلّ المختزن من الكلمات قد لاذ بالفرار، أحسّت فابتسمت عفوًا، تشجّع قليلًا، قال من بين شفتين مرتجفتين:

- لحظة.

استدارت كاملة نحوه، ألقت خجلها بين عينيه فارتجفت شفتاها.

- أرجو ألّا يضايقك تطفّلي؟

ابتسمت ووجهها كلّه يرتسم فضاءً بحمرة البكارة.

- من الغريب أن نكون جيرانًا ولا نعرف بعضنا!

في ارتعاش وفي تلعثم، وفي نبرة غير متكلّفة كذلك، قالت:

- الجرأة شيمة الرجال!

تتّهمه بتقصيره في المبادرة، لكنّه اتّهام كمذاق الشهد، كاد يقول لها: كنتِ صغيرة على أن أشعر بك.

إنّما بلّم فجأة، لم يكن الحرج ولم يكن عدم التوّقع، غير أنّه كان الفرح الشديد، الذي دفع فؤاده لأن يختلج في قوة وفي عنف، والذي وضعه في مأزق الصمت مرّة أخرى.

تنحنحت لكي يفهم أنّها توّد المضي، إنّما بدا أنّ سطوتها الفاتنة الغامرة كانت أشدّ، كان يحجب بجسده -من دون عمد- طريق السير عنها، فأزاحته برفق متحرّجة وبأنامل وجلة وعلى شفتيها ترسو ابتسامة خفيفة، لم يحسب أنّ لمستها الخاطفة قد تكون بمثل هذا الجلال! ارتعش ارتعاشة أسفرت عن زفرة طلعت بلا قصد، دارت نحوه ثانية وقالت:

- على كلّ حال أنا «أميرة»، إن كنت لا تذكرني.

وضحكت ضحكة قصيرة حرِجة قبل أن تذهب، ضحكة تحمل مواساة من نوع محفّز.

تابعها ببصره، لكنّه على الفور صاح في نفسه: لستِ أميرة على الإطلاق، أنتِ ملكة، ملكة يا «عاشيت».

* * *

الأرض من تحته ترج؛ ليست تبالي -تلك اللحظة- بمدى الكرب الذي بلغه، تطوف الذكريات من حوله متأهبة لافتراسه، قال لنفسه: هذا هراء. ثم عاد يقول في استدراك حسير: لم تكن الذكريات يومًا هراءً! والرائحة إذن! تلك التي تستبيح جوفه وتحتلّه، رائحتها وهي خارجة من الحمّام يحوم معها دفء اللحظة، وتقول في قلق وتوجّس: متى سنتزوج... متى س...؟

فيستوقفها من دون أن يستمع حتّى: أعرف، أعرف.

متى كان يعرف أنّ الجحود شأن الأوغاد؟ يا رحيم! من لي سواك؟

ثمّة نمل يترك سائر مساحة الأرض ويلتّف حول جسده الممدّد في ركن من الشارع، تبدو صفوفه منتظمة وهو يدور من حوله باغيًا أيّ مسلك للنفوذ إلى ذلك الجسد الطريّ وقد وجد، أخذ -في شراهة- أو كما أحسّ هو، يوخز أطرافه ويقضمها، ضحك بحسرة: وأنت كذلك أيها النمل الضعيف تستمرئ قضمي...! لكنّه لم يعبأ، ترك إحساسه للذكريات، والنمل يسري بداخله في رحابة وفي اطمئنان، والصقر الأسود -أو ربما كما بدا له أن يتصوّر- يملأ كبد السماء رفرفة مصرًّا على تهيئة الذكرى واستقطابها من أبعد موطن في الذهن، قال: اذهب أيّها الصقر؛ كفاك، حضرت بالفعل كلّ الذكريات ويبدو أنّها لن تنصرف بيسر.

أيّ ذكريات أقسى ألمًا من تلك التي تغفو في باله على الدوام، أقلّه لكيّ تنبئه -باستمرار- أنّه آثم.. نذل؟ نتف ريش المسكينة ودفعها للتمرّغ في الطين المدجّج بالوحل من دون أن يهبها فرصة لأن تطير في الأعالي ثانية، يا الله! أيّ نوايا كنت أضمرها ولم أتوان لحظة عن تفريغها بغير أن أفكّر حتّى أنّني مجرم؟

فكّ من تحت دماغه كفّيه المشبّكين وفرد جواره راحتيه فوق الأرض، بدأ النمل يتزاحم حول الجلد الدافئ، واتّخذ صعودًا منظمًا، في وهلة كان النمل قد استقر داخل راحتيه وأخذ يعبث، أحسّ بأنّ النمل قد نفذ إلى عقله أيضًا، تغبّشت الصور وتضبّبت، وبقي صوتها يردّد: متى...؟

يتقهقر عقله إلى اللحظة التي قابلها فيها مرّة ثانية مصادفة في مساء بضّ من تلك التي يحتفل فيها السوّاح داخل رحاب المعبد، طيلة الوقت الفائت كانت قابعة في خياله بلا مبارحة، رآها جالسة على مقعد تحدّق في الجمع الواقف على خشبة مسرح أُعدّت لإلقاء الشعر والسمر، كان المهندس قد برع في تزيين رؤوس الكِباش بأنوار خلّابة، بدت كأنّها تخرج من عيونها الحجرية المصمتة، التي تتطلّع إلى بعضها البعض منذ آلاف الأعوام. أوحت له بأن يجلس جوارها، عند أن لمحته فابتسمت، كان يعرف أنّ ثمّة مساحة من بصيص ما لم يُترجم بعد تجمعهما الآن معًا، مدّ يده مصافحًا وقال:

- رُبّ صدفة...!

مدّت يدها في صمت، لكنها احتوته بعينيها في لحظة مارقة، جلس جوارها في الصفّ التالي للمحافظ وبعض الشخصيات العامّة، والشاعر فوق المسرح بدأ يرتّل في دندنة:

واستمرّ مناوئًا للغيب

مفترشًا بهاء العابرين إلى الإله الغضّ

الحالمين برحمة الفرعون وبسمة الكهّان

لم ينتبه

وملامح الغادين والروّاح تستجديه

كي يستشعر الألم المعشّش في الوجوه(***)

أخذ يتأمّل جانب وجهها، كلّ الحناجر من حوله تثرثر في لغط لا يستوضح خلاله صوت بعينه، إنّما بقيت هي متأجّجة أمام

بصره، كجذوة من لهب أسطوري، كتميمة عليه أن يستحوذ على سحرها كيفما يتّفق، خصلات شعرها تملؤها الرياح، تلفّت حوله تأرّقًا وقد بدا أن الثرثرة راحت تنحّيه عن الاندماج في حُسن «أميرة»، قال في نفسه: ألا ينتبه هؤلاء قليلًا للكلمات المتغزّلة القادمة من منصّة الشعر! أليسوا قادرين على السكوت والإصغاء؟

استديري نحوي يا حسناء حتّى يتمهّد لي السمت داخل عينيك، قد أتحوّل في لحظة إلى مخمور يصارع نشوته إليك وينازع الدوار برحيق شَعرك الهفهاف.

كان الشاعر لم يزل يُنشد:

من عام إلى عام

يجدّد زهوه

ويرتّل الأوراد كلّ عشيّة

ليجيء بالصور الجميلة حلمه

مذ أيقظته معاول الهدم المنظّم

وهو يبحث في خشاش الأرض

عن بلل يرطّب ريقه

ريقه جفّ من حلاوة اللحظة، ومن نشوة لقاء الصدفة، خيل له لو وضع كفّه يتلمّس سكينة ودفء يدها لاستجابت، لكنّه كان يخشى من تلصّص الموجودين، دنا منها، همس في صوت متكسّر واهن أدرك أنّه تبدّد في خضّم الثرثرة المحيطة فلم يبلغ أذنيها:

- أحبّك.

وظلّ الشاعر يُدمدم في خشوع:

يتذكّر الفيضان يطرح طميه

عن كاهليه المتعبين

ومن ظلام الأرض يُخرج قمحه وشعيره

ويضيء مصباح الحقيقة في البيوت

ذاقت حلاوته الفصول

فأبرقت للكائنات

وغيّرت ألوانها

* * *

المساءات في المدينة لها طعم الليمون المتفرّقة شجيراته في الأنحاء، ورائحته، يطلّ عليها من شرفته وكلّ عبير الوجد يسكنه. المساءات في المدينة لها طعم الليمون، وطعم الرغبة والوجد.

بداخل بيتها تجلس «أميرة» وعتمة المساء تلفّها، كغمامة من عشق حديث النشوء تتهادى أمام بصرها، تتساءل كيف أحبّته بتلك السرعة؟ ألم يكن ثمّة سبيل للهروب من ذلك الخطر؟ نتلاقى وهو خفية، من دون أن ترانا الأعين، نخشى على هذا الحبّ من التربّص، مرّة على باب بيته صدفة ومرّة في الطريق، ومرّات متفرّقة في حديقة متوارية، لكن المؤكد أنّني وقعت بلا أدنى ريب، طلّته استحوذت على جلّ كياني، كم أود لو أطير إليه من فرحتي! أشاركه هدوء المساء ورومانسيته الطاغية، آخذه

بين أحضاني وأغمره بالقبلات، أقول له: لم يكن قبلك، وليس بعدك أحد.

وفي الخارج يجلس هو أمام الباب والجدّة «خرفانة» تغويها الحكايات، أيّ تسرية تلك تُشغل الوقت أنجح فعالية من تذكّر الماضي! ولو يحمل الكثير من الوجع حتّى أو الحرقة، لم تزل الجدّة تحكي عن فقدها ولدها «غالب»، ولدها الوحيد، تتنهّد وتمضي ببصرها بعيدًا كي لا يرى أحد دموعها، وتقول:

- لم أجد إلى الآن سكّة للنسيان، ولو أن ذهني يحمل مقوّمات ذاك النسيان، يا الله، ولدي الوحيد مات، ما أصعب ذلك! كم قلت للجميع إنّ زاوية المسجد قديمة! تحتاج لإعادة ترميم، لكن في هذه المدينة المتعالية لا أحد ينصت، لا أحد يكترث، كنت أرى اهتزاز جدران الزاوية وجنود الإنجليز الذين يخرجون من مقابرهم في الليل بلا رؤوس يدكّون الأرض بخطواتهم الثقيلة في مشية عسكرية، كنت أراهم يطلعون من بوابة المقابر تلك...

وتشير بأصابعها المرتجفة ناحية مقابر الإنجليز عند آخر الشارع ثم تُكمل:

- لم أكن أخاف منهم يا ولدي، كنت أخاف على الجامع القديم، كنت أراه يهتز، جدرانه تتمايل مع وقع أقدامهم، وبيني وبينك كنت أدرك أنّه حتمًا سوف يتهاوى فوق رؤوس المصلّين، لا محالة، حذرت الكلّ لكنّهم استخفّوا بعقلي، قالوا: أتصدّقون كلام «خرفانة»! وتحقّق كلامي، لكنّه أتى لي بجرح غائر عظيم، ولم أكن لأنسى ذلك اليوم، لم أكن...

وتشرد لثوان، تدور بلسانها داخل محيط فمها في حركة

اعتيادية، ثم تزفر بمرارة، ينحرف بصرها ناحية أطلال الجامع التي ظلّت شاهدًا على المأساة، ترتعش عضلات وجهها الطرية، تسقي خدّيها بدموع بلا عمد، كأنّما تتوالد من عينيها في منظومة فطرية، تساءل «ممدوح» في نفسه: أتكون الدموع فطرة؟ تعاود النظر بدقّة نحوه، يجلس قبالتها -وعلى الرغم من تأثره بالحكاية- لا يروم غير طلّة من حبيبته، أهكذا يكون الحبّ؟ أرق وترصّد وعواصف تجيش في الأعماق؟ يتنهّد فتتشجّع الجدّة وتسرد مكملة في صوت أقرب للأنين المحبوس:

- كانت صلاة الفجر، وكنت قبلها بقليل قد شاهدت زمرة الجنود ممّن لا يحملون رؤوسًا يطوفون في الشارع مثل ترتيب قدري، مضى المسجد يهتزّ مزامنًا لوقع خطواتهم، لكن تلك المرّة كان يهتزّ كما لو أنّه يسعل، يلفظ أنفاسه الأخيرة، يهتز كبرميل صفيح فارغ تحمله سيارة تمشي في طريق وعر مليء بالحُفر، قلبي انقبض بعدها عندما انطلق صوت ولدي لآذان الفجر، أيقنت أنّني لن أراه ثانية إلّا طيفًا كتلك الأطياف التي تخرج من مقابرها، لا أعرف كيف وقر ذاك اليقين بداخلي؟ هل هو قلب الأم؟ آه، لست أعرف، لست أعرف، في لحظة يا بني انطلقت نحوي عاصفة الغبار مثل موج يتدافع من دون هوادة، بمصاحبة صرخات النساء وعويلهنّ، لكنّني فقط أغمضت عن العاصفة عينيّ، في محاولة فقيرة لاستدعاء ولدي من بين ركام الحجارة وأطلال المسجد، أغمضت عينيّ ولم تكن دموع، كلّ الدموع تحجّرت من هول الفاجعة، كان القلب يحترق وبركان من نار انفجر بداخلي، كان الطالعون يهرولون في وهن وكأنّهم نتف من دخّان أسود، كأنّ أجسادهم تبعثرت لآلاف من قطع فحم عشوائية، كانت العيون الجاحظة هي السند الوحيد لفكرة

أنّه ما زالت نبضة من حياة تسري في أجسادهم، العيون التي حاوطتها تكتّلات التراب، انطلق الغبار كمجموعة من أوجاع خبيثة نحو السماء، درج يتدافع متصاعدًا يعزّز المأساة، لم يتساءل أحد كيف تهاوى السقف، لأنّه يومًا كان سيفعل، لكنّ الجميع تساءلوا لماذا سقط في هذا الوقت؟ وجوف المسجد عامر بطعام الموت، لم يبق من الرجال إلّا القليلون، ولم يبق بعد الهول إلّا الإحساس باللاشيء، إحساس بالفراغ، كيف آنذاك توقف الزمن توقّفًا مباغتًا؟ وما معنى شعوري أنّي هباء نثرته ريح في الأفق؟ هل رحل ولدي؟ صدقني لم يفعل، إنّه هنا، دومًا في مكان ما حولي، أراه كثيرًا.

يحاول «ممدوح» رصد الدموع التي أخذت في النزول وباب البيت ينفرج، تظهر من ورائه «أميرة» فتبتسم مندهشة، تتابع القصّ من لسان جدّتها وهي تدرك أنّ الحكاية يعرفها جميع أهل «الكرنك»، تتمكّن منها الأماني، تستأثر بوجدانها، تطيل النظر نحو «ممدوح» الذي يغيب قليلا في تيار نظراتها، يستعيده صوت الجدّة وهي تقول مكرّرة مثل ممسوسة:

- ترى هل مات ولدي حقًّا؟ أراه كلّ يوم، يأتيني ويجلس معي، لم يتغيّر شيء، وجهه الأسمر الجميل وصوته الرخيم، وطيبة قلبه.

وتتوقّف قليلاً، ثم تشير بإصبعها جوار «ممدوح» وتضيف وعلى وجهها ابتسامة مبتهجة:

- ها هو، صافحه يا ولدي، صافحه.

تسحبها «أميرة» من ذراعها في رقّة لتدخل بها، تشير إلى «ممدوح» بعينيها معتذرة عن ذهاب عقل جدّتها، وهي تقول:

- تعالي يا جدّة، حان وقت النوم.

- أراك غدًا يا «غالب»، لا تتأخّر.

تلوّح بأصابعها النحيلة، وبانحناءة واضحة، وخطوات بطيئة، تدخل الجدّة، توارب «أميرة» الباب ولا تغلقه، في إيحاء مستتر، ترمق «ممدوح» بنظرة طويلة قبل أن يختفي وجهها، فيراوده الهاجس، إنّه نداء ملغّز، فأيّ شك! وأيّ غواية!

بعد قليل، والشارع يسبح في هدوء ليل أُوغل في سواده، طرح عنه كلّ مخاوف الاحتمالات، وكانت قدمه المضطربة قد ولجت لداخل بيتها، بعد تردّد، ووجل، وبعد اضطراب، أخذت عيناه تبحثان بهدى الرغبة والقلب عن غرفتها، تلك، كلّا، تلك، والحاسة المرتقبة، المختلطة برائحتها، تسوقه ناحية غرفة بعينها فيطرق بحذر.

لا تنتبه سريعًا للطرق الخافت الذي يتّابع على باب الغرفة، وجلت في البداية، انكمشت في فراشها وهمست: من؟ لكنّه يقول في صوت مرتعش عند أن يتعرّف على صوتها: «ممدوح».

هنالك لحظات نمر بها دون أن ننتبه لفداحة ما قد يترتّب، لم تتحرّك أولاً من مكانها، لبثت تستدرك ماهية الصوت، لعلّها لا تستوعب بعد، ترى هل هو حقًّا أم الوهم يصوغه؟ إنّما بعد قليل -وبعد أن وقفت على الاستيضاح التام- هبطت من فوق الفراش واتّجهت باضطراب وفي بطء -وفؤادها يدوّي- نحو الباب، وفتحت.

كان واقفًا هناك وثمّة ابتسامة مركونة على جنب فمه، كأنّما تبلغها بأن تطمئن، وتسألها: هل كلّ أهل البيت نيام هذه الساعة؟ حاولت أن تقول له: كلّا.. لن يمكنك الدخول. لكن

شيئًا جعلها تُفسح له الطريق باستسلام وانصياع وهو يتقدّم إلى صحن الغرفة، بدت مغيّبة أو أنّ قدرًا لا استيعاب له يسوقها، يهيئ جو الاستسلام ويحيك المؤامرة المستعذبة من دون تعجّل.

ثمّة أوقات على المرء فيها ألا يفترض الانحياز صوب العاطفة، عليه أن يتمهّل، ويتأنّى، لا أن يسلّم روحه لمثل ذلك الانجراف الأهوج، لو فكّرت ما كان دخل، وما كانت ترتجف أمامه الآن وهو متحجّر في وقفته يملأ عينيها بالكلام غير المنطوق، الليل شاهد على الحبّ أكيد، فدعينا لا نوقد الضوء، لنكتفِ بهذا القدر الواهن من النور، لنكتفِ بنور روحينا.

تسطع في داخلها ومضات من حروف قرأتها على جدران المعبد، ربما حسبتها طلاسم لا تُفسر، لكن حروفها المبهمة الآن تتحرّر من تلقاء نفسها داخل محيط عينيه، من أيّ عالم أنت؟ أخشى أن تكون مجرّد فكرة مبهمة استشفّها عقلي من داخل أحد الجدران؟

ينظر لها طويلاً، تجلس وجسمها يرتجف، فيجلس، يقول بشفتين محمرّتين:

- أوحشتني كثيرًا.

لا تنبس، جوارحها تهتّف في صمت: أين كنت؟ لقد انتظرتك أيضًا كثيرًا.

في وهن تضوّي المشاعر، وفي خجل، تحتكّ أنامله بأناملها، فيتضوّع جسمها رغبة واشتياقًا، تلك الرغبة الناعمة، وذلك الاشتياق المختزن، تأخذ المشاعر في التطوّر، تتلامس الأصابع في رقّة وفي حنو، يحاول كلاهما البحث عمّا يفتقده في جسد الآخر،

فتنزل الشفاه على الشفاه، ويعلو إيقاع من دفء ومن استجابة كاملة، تكتسب الغرفة حياة فريدة، ترتجف جدرانها في جذل، تتمطّى المسام لاستقبال تسرّب الأحاسيس، تهمس في أذنه وهي تبلع ريقها: أخاف من الغد. لكنّه يبادلها همسًا بهمس: أكثر منك أخاف. يلثم كلّ جزء من جبينها ومن خدّها ومن رقبتها، تُغمض عيناها بتلقائية ونشوة، يتحاوران بلغة مشتركة، لم يكن يتوق لمثل هذا التحاور قبلاً، إنّما الآن كلّ مقاليد الكلام بين يديه وكلّ الزمام، تبدأ الغرفة فيما قليل في الارتجاج، ارتجاج عذب لا تشعر به سوى عيون المساء المترصّدة، يحتويهما أسر الرغبة المشوبة بالاشتعال، تهيم في الهواء الملابس، تتطاير، تتأرجح كستائر من نسيم، تئن الغرفة في نشوة، تفح هي تحته، لا تستفيق، تطرد كلّ أصوات الكبت من داخلها، تمور، يتدغدغ جسدها بأناة ومن دون إدراك، تقبض على العالم الذي لم تتصوّره بيد من عزم ومن لذّة، ولا تضع التفاصيل ولا المرادفات ولا العواقب في حسبانها، تفتّتهم من حولها، فتغيب كليّة، ويتملّكها هوس النشوة الشبِق، تئن وفقًا لمتطلّبات جسدها، يجتاحها إعصار من شطط ومن خيال، ولا تستفيق، لا تستكين، إلّا حين يهدأ هو..

وحين يبذر البذرة.

* * *

تمور الأرض، في استفاقة مفاجئة ينتفض جسمي، يتفرّق النمل في خوف وفي هلع، لا أعاين الآثار الحمراء التي خلّفها فوق جِلدي، لا آبه، بل أنهض دفعة واحدة، ويتصلّب جسمي كسيخ من حديد قبالة وجه السماء، أرفع رأسي والدموع تتقاطر نحو الأرض، وآذان الفجر يدعو المدينة للقيام: (الله أكبر).

فأردّد: يا الله، أيّ جرم اقترفت؟

الصوت يجلجل في فضاء الكرنك:

(أشهد ألا إله إلا الله).

ويجلجل صوتها من قلب الأرض: متى...؟

(حيّ على الصلاة).

أصيح: حيّ على كلّ وغد رعديد، حيّ على الآثم وعلى الجبان.

تهدر دموعي فتُغرق تراب الأرض، أنتحب كوليد لا يجد الضرع، والآذان يدعو المدينة للقيام، يدعو قلبي للخشوع، وضميري للمثول.

(حيّ على الفلاح).

على كلّ من دهس نبتة خلقتها يا الله، ليس بعد الضلال معصية، ليس بعد الضلال.

(الصلاة خير من النوم، خير من النوم).

أتهاوى على الأرض وأشرع في الأنين بنهنهة متقطّعة.

80

تروس المعركة

برديّة «واح- عنخ- أنتف» الأولى

غمامة من سكون تساور الأجواء، الحركة هامدة في القصر إلّا من دبيب أقدام حذر لبضعة حرّاس، ينام الجميع في مثل هذا النبض الأخير من الدجى، وأنا أتدثّر بالركوع داعيًا الآلهة النجاة من هموم لا أجدها تغادر البال حتّى تعاود تفتك به في كلّ مرّة أشدّ، لا أدري كيف لا يتّسق منطق العرش مع منطق البراءة؟ كيف غفلت عن وعد قطعته على نفسي منذ زمن بعيد؟ كيف لا أستسيغ كوني المجيد الأكبر تلك الاستساغة الشافية النافية لأيّ إحساس لئيم؟ لا أدري ما الذي حلّ بجسدي جرّاء التفكير المضني؟ هل شخت؟ هل كدت أُودع في السماء مثل كلّ الراحلين؟

أركع وقِبلتي نحو تمثال الإله «آمون»، الذي يقف في شموخ أكسبته له براعة مثّالي الأكبر. أدمدم في خشوع: (لكِ التمجيد أيّتها الآلهة والمعبودات، يا سادة السماء والأرض والمحيط، ما أعظم خطواتك في فلك ملايين السنين إلى جانب الرّب «رع»، الأب والراعي، الذي يُفعم قلبُه سرورًا عندما يشاهد كمالهم فتسعد به أرض «توميري»! إنّ «رع» لسعيد، لقد استعاد شبابه عند رؤيتهم عظماء في السماء، أقوياء على الأرض، يمنحون النسمة للأنوف المزكومة، فامنحني يا «آمون» طلاقة البال

واستراحة النفس المعذّبة).

رأسي مشطورة، أظنّ الخلوة مباحة أحيانًا لذوي الكرب والبال المهموم مثلي، والتفكير العظيم، جيشي بعيد عنّي وجنودي يتناحرون في ثبات وفي صلابة لإسقاط فرعون «هراكليوبوليس»[١٩] مغتصب الحكم، لا بد من أنّه يعتبرني من وجهة نظره أحد الشرفاء المشاغبين ليس أكثر، مثلما كان يعتبر والده والدي الفرعون المعظّم «سهر تاوي»، يا له من مغفل! ويا له من مغرور أخرق! كيف لا يعترف بالانحدار الأصولي للسلالة الملكية للمبجّل «أنتف»، وبدنو زواله لا محالة؟ نحن أصل الحكم، ونحن الأعزّ نفرًا والأكثر ثباتًا وبأسًا أوان الحرب، جالس على عرشه في أدنى البلاد هنالك في الشمال ولا يرى كوني ملك الوجهين القبلي والبحري وفرعون كلّ البلاد الفعلي من أقصاها لأدناها، لعلّه لا يعرف أنّ الجنوب لا يوالي ولا يرضخ تحت حكم أيّ مدّع من دون أصل، لذا يكفيه موالاة الأحمق الغافل «خيتي»[٢٠]، بل يكفيه أن يكون عضده الأوحد في محاربة صعيد البلاد، محاربتي أنا على وجه الخصوص، يا للعبث! في نظره أنا لا أعدو كوني أكثر من أمير ثائر! لكنّني ملك يستحق المُلك بلا منازع. لم أكن أبغض قدر هؤلاء الذين يساندون الباطل قبالة الحق، من أجل الخنوع لا غير، والخوف يتملّك حياتهم كلّها، يسري في عروقهم سريان الدمّ، إذن احتفلا أيّها الفرعون الضرير عن رؤية الحقيقة أنت و»خيتي» -الخائن للقدر- معًا بالأكذوبة الوضيعة كيفما يحلو لكما، ما دمتما قد قرّرتما الوقوف مؤازرة في وجه الإعصار، دع كلّ واحد فيكما يهنّئ الآخر بنصر مزيّف وهمي، ولتتجرّعا مرّ الهزيمة القادمة إليكما عمّا قريب.

الخلوة مباحة ليصفو الذهن تقريبًا، أخرج إلى الجبل في غرب «واست» قبيل شروق «رع»، ليس لي من رفقة غير «ثثي» وخادمي الأخرس المقرّب إلى نفسي، والصقّار الذي يجعل ممارسة هواية الصيد أكثر متعة وإتقانًا وإثارة ويُشبعني بمهارته، أقلّص موكبي حتّى يتسنّى لي الإحساس بالخلوة التي تأتي كلّ فينة، يحلو لي الوقوف مترقّبًا في تلك الساعة المبكّرة من الصباح، حين تلوح في الأفق بوادر الإله المعظّم، وعند أن تبدأ المفردات في التعبّد بأسرار الطبيعة الأم التي ما أمسكت تغدق على الكائنات من سحرها طوال الزمن.

صقر ينطلق في متن الفضاء يحوم متيّقظًا لخروج فريسة من أيّ جُحر من جحور الجبل، يسعفني الخادم الأخرس -كلّما مرّ بعض الوقت ودرت بعينيّ نحوه تلافيًا للعطش- بكوب من الجعة الباردة، وأنا أتابع الصقر الباسط في الهواء جناحيه منتظرًا في تحفّز رصين لا كلفة فيه، كم أشعر أنّني والصقر متماثلان في الطباع، طبع التيّقظ وصحو الذهن والتحفّز، وطبع الافتراس، سأنقضّ على أعدائي كما ستفعل بفريستك بعد قليل أيّها الصقر، سأمزّقهم ولن أترك فيهم نسيرة إلّا ومضغتها، خاصّة أنت أيّها الوغد «خيتي» الخائن السافل، أيًّا كان مقامك في البلاد، وأيًّا كانت ألقابك الملفّقة، أميرًا كنت أو حاكمًا أو خازن مالية فرعون «هراكليوبوليس» عن بكرة أبيها، أو حتّى السمير الوحيد والكاهن الأول للإله «وبوات»[٢١]، فقط سوف أضع أمام ناظري تألبك -كثعلب يهوى الانصياع والتظلّل بكنف آخرين- على كرامة الجنوب وعزّته واستقلاله، تحاشيًا للزجّ بجيشك في معركة تحسبها أنت خاسرة ونتيجتها مضمونة، أيّ وهم! أنت يا «خيتي» مسكين، لا تستطيع ببصيرتك القاصرة أن تحلّل أو

تستشرف ما قد تؤول له بعض النهايات، فيا لغبائك!

تتهادى عيناي فوق صخور الجبل الناعسة بنيّة اللون، الأقرب للرمادية هذا الردح من الصبح، يأسرني شكل الطائر الرابض في جَلد مشكّلا نقطة داكنة قريبة في ثوب السماء، رابضًا للانقضاض المباغت، عيناه المستديرتان لا تفضيان إلى توقّع أو فراسة لأيّ احتمال آت، كانتا جامدتين تخلوان من تعبير، راسختين على صفحة الأرض في هدوء واطمئنان وثقة، متبّعًا في رصانة إيحاءات صاحبه الحركية المُرشِدة.

أعجب من تلك العلاقة التي تربط الصقر بمدرّبه وسيّده! مجرّد إشارة من يدّه كانت تكفي لأن يفهمه الصقر تمامًا ويستجيب لأمره، انتابني إحساس بحقد طفيف يداخله إعجاب، ليتني أمتلك من القوة الطاغية والسيطرة الأكيدة مثلك أيّها الصقّار، لباتت كلّ زمام البلاد شمالا وجنوبًا تحت إمرتي من دون عائق، ولما استطاع رجل أن يجابهني.

في الجوار كان أرنب صغير قد بدأ في هزّ رأسه خارج الجُحر تأهّبًا للطلوع، كتمت أنفاسي، بدا الأرنب يشتمّ رائحة أيّ صياد قد يعزف نيّته عن الخروج، أخذت أذناه تتقلّصان، وأنفه يتحرّك بشكل طفيف يمنة ويسرة لبضع ثوان، وكان «رع» قد راح يحتوي الجبل ومكوناته بصغار أشعته الطاهرة.

في السماء تحفّز الصقر أكثر، لمعت عيناه لمعة خاطفة، وبدأ يستعدّ على مهل ومن غير توتر، والأرنب يتحرّك في أمان أكثر، ويذرع خريطة التراب روحة وجيئة بحثًا عن طعام، في سرعة فجائية وثب الصقر من السماء، إنّما الأرنب كانت حاسته بالخطر أسبق، كان أكثر سرعة وهلعًا وهو يركض فارًّا ليحتمي ببضع

شجيرات كثيفة شائكة، ويتلصّص من تحتها في ذعر غريزي على الصقر الذي طلع للسماء ثانية يطوف بلا يأس أو نفاذ صبر، كدت أضحك جذلاً من الإثارة، وتحرّكت أوصالي في عربدة لذيذة لا إرادية، قد تستهويني المعارك من ذلك النوع كلّما فكّرت في المجيء إلى الجبل والاختلاء للتسرية والتفكّه وإراحة العقل من متاعب التفكير ولو قليلاً، لكن يستهويني أكثر ذلك الجو السادي الذي يشمل تربّص الصقر بفريسته، جو الاقتتال ما بين الصقر والأرنب بما له من غواية مميّزة، ربما جو الكرّ والفرّ عامّة.

جعل الوقت يروح دقيقة بعد أخرى، وأنا أراقب الصقر من غير سأم، كانت أعصابي نافرة، الأفواه من حولي جميعها مطبقة، والآذان مرهفة، لا يجرؤ واحد على قطع هذه السيمفونية العصبية بأيّ شكل، بدا الاحمرار الذي ضخّه الدم في وجهي كأنّه من فعل «رع»، لكنّه من سخونة التربّص ومن سطوة المشاهدة والأنفاس مخطوفة، الكلّ يتابعون ما يحصل في صمت وفي انتظار، أخذ الصقر يجوب حول الأرنب من فوق ليجبره على الخروج من أسفل لجّة الشجيرات، كان يدرك أنّه إن جازف وحاول اصطياده من بينها قد يُجرح أو يُهلك، فمكث بمكمنه في الأعلى يراوغ ويجتذب الأرنب للخارج من سائر الأنحاء محوّطًا إيّاه بصوته المجلجل الذي لابد وسيُفقده، ولو ببعض العناء، الروية والتنبّه، وسيدفعه للرمح محاولاً اللجوء إلى جُحره خوفًا، وبعد قليل، بدا أنّ الصقر كان متيقّنًا من طبيعة الفريسة، ومن أنّ الخوف حتمًا سيتملّكها، ويشتت اتّزان تصرفّها، خرج الأرنب على حذر، يتحسّس طريقه إلى الجُحر في توجّس، يثب خطوة ويقف قليلاً يجسّ عن مكمن خطر، ثم لم يدرك إن كان يرجع للجّة الشجيرات أم يُكمل قفزه نحو جُحره، وصفير الهواء في

الأعلى يدنو منه في سرعة مذبذبًا ذلك الشعور من الحِرص، والذي تلاه اطمئنان نسبي، كان الجارح قد شقّ سكون اللحظة بجناحيه واثقًا من أنّ الكبوة الأولى لن تتكرّر بحال، وحطّ على فريسته في سرعة وتباه وبأس، كطامّة ثقيلة هبطت من غير حسبان، غلّله بأرجله المتينة، طعنه في رقبته طعنة نافذة بمنقاره الحاد الذي يُشبه السّكين، واحتواه تحت جناحيه في سهولة، ثم راح يمزّقه في تلذّذ واستعذاب، ولم يكن يخرج من الأرنب صوت، ربما انكتم مختنقًا تحت حوزة الجناحين، وربما استسلم في الحال لتمزيق الصقر، بضعف الفريسة وقلّة حيلتها.

هبط الصقّار من فوق البغل المُجهد، وكان يتبع من عليه خطوط سير الصقر من أعلى في الفضاء ليتمكّن من التحكّم فيه أكثر بإشارات وإيماءات معيّنة لا يفهمها سواهما، نزل وأقبل على متدرّبه في خيلاء وغبطة، رفع له ساعده إلى أعلى، فرفرف الصقر بجناحيه وارتفع يمتطي يد صقّاره ظافرًا معتدًّا بقوته، لمّ على جسده جناحيه العريضين واستكان محقّقًا غرضه، وكان يرميني بنظرة بدت مؤدّبة من بعيد كأنّما يستقبل نظرة رضائي عنه والتهنئة.

أقبل عليّ الصقّار منحنيًا، يتلمّس في ملامحي انطباعات الرضا، هززت رأسي مغتبطًا وقلت:

- أتكفيك قطعتان من الذهب أيّها الصقّار على هذا السرور الجمّ الذي بعثته في قلبي اليوم؟

قال في صوت خفيض وهو يركع ممرّغًا جبينه في الثرى:

- أيّ هبة مفخرة ما دامت تأتي من جلالة عظمتك يا سيّدي،

يكفيني ما منحته لي من محبّة ورضاء.

ناوله الحارس قطعتين، فمضى متقهقرًا للوراء من غير أن يوليني ظهره، وكان لا يزال منثنيًا باحترام وتوقير مطأطأ بصره أرضًا، مضى في فرحة ليستأنف طقوس إنهاء مرسم الصيد، أخرج من حزامه الجِلدي سكّينًا وفتل نسائر من لحم الأرنب وناولها لفم الصقر فوق ذؤابة السكّين، التقطها الصقر في جوع ونهم وشراسة، وراح يلوكها بين أنيابه، مستلذًّا باللحم الذي كدّ في صيده واجتهد، وكان مدربّه يرمقه في اعتزاز وهو يبلع من لحم الأرنب في شهيّة ويمدّ منقاره باغيًا المزيد، يدرك المدرّب أنّ الصقر لا بد من أن ينال عطيّة ممّا جلب من صيد، حتّى ولو بضع شرائح قليلة تسد جوعه، وإلّا انقلب عليه وعصا أوامره.

راح الجبل من حولنا ينفض عن رأسه الخمول، يستعيد لون الحياة الحجري متأهّلاً لبدء نهار جديد، وكان «رع» قد بدأ يتوسّد خصر السماء عندما قفل الموكب غاديًا.

سرنا على حصيرة من الحصباء تمتدّ من بعد تماثيل الترانيم المقدّسة[٢٢]، تنبسط على اتّساع وفي التواء عارجة نحو قصري الملكي في مقاطعة «إيون»، تحفّها بساتين متشابكة من شجر «الجمّيز» الذي يظلّل الطرقات بإباء، ثم مرّ الموكب -عبر طريق مؤهّل لموكبي فقط- جوار قرية «عمّال الجبّانة والمحاجر»، والمعزولة مساكنهم داخل سور من الطوب اللبن، كانت شاحبة وكأنّ أهليها قد اصطبغوا جميعًا بصبغة الموتى، وكانت الرياح هذا الوقت قد طفقت تتخلّل فراغات التمثالين فيما وراءنا فيترنمان بأنغام شجيّة ويرتّلان الصلوات التي تعلن عن قدوم سفينة النهار الهادرة، ويودّعان الموكب في إجلال وسمو.

انتهى الطريق الملكي، وبدا طريق آخر طويل من الحصباء مكشوف، وكانت جماعات من العامة تتراصّ على جانبي الطريق رافعة أياديها إلى أعلى مهلّلة لمرور الموكب المتهادي ببطء فوق بساط الحصباء، لم أعر الهتافات بالًا، ربما كان «ثثي» هو من يلبّي تهليلهم ملوّحًا بيده، كان ذهني قد سرح بعيدًا وأنا مارّ بجوار مساكن عمّال الجبّانة، بذكرى الموت ذاته، إلى اللحظة التي ذهب فيها أخي الأكبر «منتو حتب»[٢٣] إلى الأفق، لا أعرف أيّ إحساس ذاك بالموت يخامر ذهني الآن؟ يومها كان والدي -مهدئ الأرضين ابن الشمس أنتف- بصحة سليمة، انتحب على ابنه البكر كما لم ينتحب من قبل، لا على أمّي ولا على أمّه، شارك بنفسه في كلّ مراسم دفنه، أصرّ أن يكون تابوته مزخرفًا بحبّات الذهب وقلادات الكرنالين والخرز والخزف متضامنة، وقد تلا عليه جميع الكهنة تعاويذ الانتقال ليطمئن في حياته الأخرى، وزيّنه من الداخل بكتابات من تعاويذ أخرى برّاقة تنتمي لعالم السحر الكهنوتي، حُفرت على إطاره صلوات ودعوات دينية بحروف غائرة، كان غطاء التابوت يمثّل السماء ونقشت عليه تقاويم فلكية، وصلوات الكائنات السماوية، ورُسمت فوقه ساق الثور المقدّس[٢٤] ثم تمّ تغطية جانبيه ونهايتيه بمتون سحرية، وعلى المتون صفّت الصيّغ المستقاة من تعاويذ الكهنة لملازمة روح أخي لكي تفلت من أخطار وشراك العالم السفلي لكلّ رائح إليه، وُضع جسد أخي في صندوق من نسيج الكتّان، ثم تغطّى بجلابيب من كتّان أيضًا ترتّقت بأجزاء من جلد التمساح، دُبغت عليها علامات القصر الملكي، وبجانب جثمانه وضع الكهنة تمثالاً صغيرًا له من الخشب الصلب حليت يداه بسوارين من الذهب.

آنذاك أخذت في النظر إلى جثمان «منتو حتب» قبل إيلاجه

في التابوت الحجري، فكّرت أنّي يومًا قد أسلّم جسدي من دون إرادة لعبث أيادي الكهنة والجنائزيين، قبل أن أمثل أمام «رع» قاضي وإله الشمس لمراجعة ذنوبي التي لربما اقترفتها في حقّ البشر، هذا قبيل أن أحاسب الحساب الشامل، لم أكن أذكر وقتئذ أنّني أقمت ذنبًا في شأن أحد! فلم يكن العرش قد لوثني بعد، إنّما مع ذلك انصرفت إلى الارتعاد، أشعر أنّني أتيت في حقّ نفسي ما لا يُغتفر قط، كنت خائفًا من القاضي «رع» أيّما خوف، فمن منّا يدري أوان مثوله إليه؟ أنا أدرك أنّ محكمة القضاة الذين سيحاسبونني لن تعرف الهون ولا التسامح يوم أن يجازوني على الشرور التي ارتكبتها، ربما لن تضع في حسبانها كم في الحياة عشت، فمدى حياة أيّ إنسان بالنسبة إليها مجرّد ساعة واحدة، وسوف أعيش بعد موتي، وأعمالي بأسرها من شرور ومن خير متكوّمة جواري، الحياة الأخرى هي الباقية، ولا يهمل أمرها إلّا غبي، تمنيّت أن أصل إليها مبرّأً ومن غير إثم، كيما أبقى هنالك إلهًا، أسير في السماء مثل البررة أرباب الخلود، وبخطى واسعة، لكن يا لها من أمنية!

يوم دلف «منتو حتب» إلى المعبر، دعوت «ماعت»[٢٥] أن يكون به رحيمًا، وأن تكون خطاياه قد أقصيت عنه، ومحيّ إثمه، ونظفت نفسه في بحيرتي «أهناس» العظيمتين.

يسير الموكب دانيًا من القصر، تغيب الأصوات كلّها من حولي، يتربّع «منتو حتب» أمام العين بهيًّا مثل طلّة من إله، لعلّ وفاته هي التي دفعت صحة مهدئ الأرضين أبي بعدها إلى التدهور، فترك لي حملًا ثقيلًا، ليت أخي من كان تحمّل عبء ذاك الحمل على كتفيه، ربما ما كان كاهله ناء به مثلما يحدث لكاهلي الآن،

ولصرت معاقرًا لديمومة الحرية ريثما أكتفي، عد لي يا مهدئ الأرضين بالنصيحة، عد لي يا «منتو حتب»، أنا في أمسّ الحاجة لمعاونتي، لم يكن لي سواكما، أخذت على عاتقي همّ البلاد، ولم أزل فتيًّا في ريعان شبابي، فشبت قبل الأوان، ما عدت ذلك النبع الذي بدا لن ينضب من الأمل والأحلام، بات كلّ شيء مضببًّا غير ذي استقرار، صرت أتخبّط في مجاهل الحكم عامًا بعد عام، ولم أعد أعرف يا نصيري من السماء، يا مهدي الأرضين، الخطأ من الصواب!

يُقبل القصر، تستقبلني روائح المانجو والتفّاح والزيتون آتية من قلب الحدائق، وروائح الكوكو[٢٦] وزيت النخيل والعنّاب والرمّان والأثل والسرو واللبخ والطلح، أغمضت عينيّ بعض الشيء وأنا أتنشّق عطور الأشجار، جمعت في حدائقي أنواع الأشجار كافّة، والتي تنمو في وادي النيل، كان يحلو لي أن أتناول في حدائقي الطعام صيفًا، أجلس داخل غرفة خاصة متواضعة قائمة من جذوع النخيل ومكسوة بالسعف وأشرب الجعة المثلجة من قلب أزيار الفخار التي تمنح أيّ مشروب البرودة والحيوية، وآخذ في استرجاع الماضي في حنين وفي تأنيب، آخذ أكثر في مساءلة نفسي، أجرد وأحسب، ما لي وما عليّ، ما أُهدر عرضًا في طريق الإلوهية وما أُهدر عمدًا، أتصوّر حجم الأمنيات التي كادت تطال لولا رحيل أخي، ومن بعده أبي، أشعر عبر جلوسي هناك بأنّني ذات الشاب القديم الذي اعترکته دوامة الحُكم بعد ذلك، وكان لم يزل غضًّا.

صفوف من الحرس والموظفين والكهنة يقفون في انحناء لمرور الموكب، تساءلت متى يستفيق عقلي من كلّ تلك

الهواجس والمخاوف؟! ترى هل جيشنا لم يزل متماسكًا أم أنّه بالكاد صامد؟ النقوش المحفورة التي تزيّن واجهة القصر تدل على قرب انتصارنا في الحرب، كما تنبّأ الكهنة ودوّن الرسّامون فوق الجدران، فمن بين أعمدة البهو أطلّ أنا وفي يدي رمح من فولاذ غرسته في قلب أعدائي تتقاطر منه دماء هزيمتهم، ثم رسم آخر لي وأنا أتقدّم حرسي مترجّلاً لأزور جنودي في ساحة المعركة وأُشرف على أبّهة الانتصار بشخصي، كذلك وأنا أقود عربتي الحربية لأتولّى قيادة الجيش أثناء المعركة موجّهًا إيّاه لطريق الظفر الأبدي، ورسم وأنا جالس مع كبار رجال الدولة أتفقّد جنودي وهم يتمرّنون وعلى فمي ترسو ابتسامة السعادة والطمأنينة.

تُرى أقد يخطئ التكهّن ولو قدرًا؟

أتنهّد والحرس من ورائي ملازمين، أتمعّن -لعلّي شارد- في الشرفة التي تتوّسط واجهة القصر والمخصّصة لجلوسي، مزيّنة في فخامة، تتقدّمها أعمدة أربعة طويلة بشكل ساق البردي، ويعلوها إفريز من طوابق ثلاثة، أدنى طوابقه نُقش برسم لقرص الشمس المجنّح الإله «رع»، والأوسط زيّن بخوص النخيل، أمّا الأعلى فقد رُسمت عليه رؤوس ثعابين متوّجة بهيئة قرص الشمس. هذه الشرفة لم أظهر فيها أكثر من عدّة مرّات قليلة متفاوتة خلال البضع سنوات المنصرمة، منها حين كان يُسمح للعامة بالتجمّع في الفناء احتفالاً بعيد «آمون»، من هذه الشرفة كنت أرمي على الشعب العطايا، فيبتهلون لي ويهلّلون فرحًا، غير أنّي كنت سرعان ما أنصرف عنهم في سأم وفي غير احتمال وهيئاتهم تكبّل رأسي، لم يعد يروقني ذاك الطقس من الصخب،

كانت للعرش طقوس شديدة الخصوصية ترفّه عنّي أكثر ممّا يفعل ذلك الطقس الذي أعجب من كونه لم يعد مستحبًّا بأيّ سبيل، وقد انمحت من عقيدتي سائر الأماني القديمة التي منيّت بها نفسي، حين خالطت العامة وأبيت على نفسي إلّا أن أشعر بهمومهم، لكنني الآن ملك لا يدري عن هموم الرعية قدر ما يدري المساء عن صباح بعيد. كانت الشرفة تتّصل بالمساكن الملكية، والتي يتوّسطها عدّة غرف من ذات الأعمدة، قاعة عرشي وغرفتي الخاصة بالحمّام، وكنت حذرًا، خاصّة في هذا التوقيت المقلق من الحرب، ففصلت كلّ هذا الجزء عن جناح زوجتي، إذ كان يحوي ذاك الأخير الكثير من الغرف والحمّامات غير المؤمَنة، ضممت زوجتي في جناحي وأمرت بفتح ممرات طويلة فيما بين الأجنحة تيسّر المراقبة والحراسة وتأميني.

أدلف إلى غرفتي، يموج فِكري ويتقلقل، ترتحل بداخلي الآلهة من أرض إلى أرض، ضجيج النصائح الباطنة يحيد عقلي عن الاتّزان، والآن كم تهفو نفسي إلى التسكّع مثلما كنت حرًّا لا تقيّدني أغلال العرش! ألهو مع الشعراء وأدندن مع المغنين، أتجوّل في دروب المدينة ورحابها من دون قيد ومن دون رسمية، أجالس -متنكّرًا- بعض الغرباء والمسافرين لسماع أحاديثهم عن البلاد التي يطوفونها، كمراس هوسي للخيال، وعن أنماط البشر الذين يقابلونهم، الأقزام والعمالقة، السود والبيض، أستمع لحكاياتهم التي لا تنفذ وأثمل داخل الحانات لحلول الصباح، ربما هذا الميل الواهن هو ما يجعلني الآن أقيم كلّ يوم مأدبة وقت الغداء يحفّها الشعر والرقص والغناء وتشملها البهجة، للتذكرة، حنينًا لتلك الأيام التي لن تعود مطلقًا، لكنّني أستغرب كيف باتت تضادد روحي الآن هؤلاء الذين اختلطت بهم من ذي قبل!

هل هي طبائع العرش اللئيم؟! لكن مع ذلك لماذا صرت منذ بتّ ملكًا أحب دومًا مضغ الطعام ورأسي تروح مع النغم وتجيء كما الثمل من نشوة الموسيقى؟! تمامًا كالشاب القديم إيّاه، لماذا لم أكن أشعر بأيّ ذنب وجنودي يكتفون بالقديد وشرب الجعة في المعركة بلا سمر أو تسرية وأنا هنا وفي رفقتي كلّ كبار الدولة نحتسي النبيذ الباهظ ونلتهم شتّى أنواع اللحوم والخضر؟! لعلّ لا ذنب، فهم على أيّة حال سيرجعون وينالون من رضائي ونعيمي ما شاءوا، ستوزّع عليهم الغنائم ويُمنحون الأراضي، سيجازون بالذهب والفضة ومكافآت من أملاك، سيُمنحون النفائس على هيئة عقود وكؤوس تماثل كأس «تحوتي»، فأيّ تأنيب!

تسافر رأسي تحت شلاّل من ماء دافئ في حوض الحمّام وتغتسل من عرق النهار الحار، يظلّ لساني يردّد: أين أنت يا نصيري؟ أرني من حكمتك، أرني.

ينتابني بعض السرور وأنا أدلف إلى قاعة الطعام، اكتفيت بوضع إزار فوق جسمي وهبطت لتناول وجبة الغداء، بعض الكبار جالسون ورؤوسهم متدلية في خشوع والحرّاس يتقدّمونني داخل القاعة وأصوات أقدامهم الجادّة العفيّة تزلزل أرض القصر، كانت المأدبة ممتدّة وروائح اللحم الساخن تفوح في الحجرة، ودخان يخرج من رؤوس الطير ومن أطباق اللحم، راقصات ومغنّيون وشاعري المفضّل «وني» -عازف القيثارة- راكعون أمامي، جلست فبدأ الجمع يستقيم ليتّخذ وضع الجلوس من حولي في تهيّب، وراح «وني» يُنشد:

«إنّي يا مولاي المفخّم -راعي الشعب والبلاد- أقدّم لك ألحاني، وأُنشد كلماتي، عساني أروّح عنك وأُسري، لننتفع بهذا اليوم الذي

يتّحد فيه كرمك يا سيّدي المبجّل برحمة الآلهة جميعها فيُسعد شعبك المُحب».

رحت أبتسم في رضا، وخادم يرفع الغطاء عن صينية لحم فيظهر جسد ماعز برّي يعوم في عُصارة من ثوم وكرّاث، لكنّني أولاً شرعت في التهام طير سمّان شهيّ الرائحة، وأخذت أرشف رشفات النبيذ الأحمر، وراقصة تتضوّع قبالتي، وخادمات يجلسن أرضًا يصفّقن لها، بعضهن يضربن بـ«منات»[٢٧] مصنوعة من قطعتين متشابهتين من العاج تتدلّى من رقابهن في عقود معلّقة، وبعضهن يشخشخن بصلصالات معدنية من رأس «حاتحور» مركّبة فوق مقابض، يدعمن الغناء المنطلق من المزمار والقيثارة، ويضبطن إيقاع الرقص، وفي المنتصف نزلت بهلوانة تستعرض، راحت تميل إلى الوراء فيتدلّى شعرها ويلامس بلاط الأرض، و«وني» يتغنّى بكرمي ونِعم الآلهة، تساءلت: أيكفي مثل هذا الانبساط للترويح الفعلي عن روحي التعيسة المتوجّسة من المستقبل القريب؟ أتكفي الألحان لبثّ روح الصبا في جسدي المُقبل على فناء وشيك؟ لكنّني أخذت أهزّ رأسي متناسيًا عن عمد كلّ ما شأنه بعث الكآبة إلى نفسي، أتابع الراقصة والبهلوانة مصغيًا لـ«وني»، مُغرقًا في التهام اللحم والخضر، تبًّا لهذا العرش! فصلني عن ذاتي ونفث في حياتي الأرق والخوف، لا أعرف ممَّ أنا خائف! أن يغتالني أحد الخونة، إنّه لشرف! ومع ذلك فحرّاسي لا ينامون، خائف إذن من الهزيمة، كيف والجنود يتقدّمون ويوشكون على اقتحام «هراكليوبوليس»؟ امضي أيّتها النغزة التي تستوطن فؤادي إذن ودعيني لهذا المرح.

وكان «وني» يردّد متقرّبًا بصوت يملؤه التفاؤل في ترتيل:

«منذ بدأ العالم وأجساد البشر تفنى وتعود إلى التراب عدا الآلهة التي لا تعرف الفناء، وما دام «رع» يُشرق كلّ صبح، ويغرب «توم» بحلول كلّ مساء ليستريح في «مانو»، فلن ينقطع الرجال عن التناسل ولا النساء عن الولادة، ومن خلال أنفك يا سيّدي العائش طويلاً يتنسّمون عبير الحياة، فلنصنع لك يومًا سعيدًا، لنوزع عليك العطور من أفخر الأنواع محبّة وإقرارًا بصنيعك في شأن البلاد، لتفعم الروائح الذكية أنفك حتّى تقر عينًا، لتحوّط قلائد النصر والزنابق أكتافك، لتحلّ رقبتك عقود الأبدية والرخاء، وليشنف آذانك الغناء وموسيقى القيثارة، تخلّ عن الآلام كافّة ولا تفكّر إلّا في المسرّات، وحتّى يجيء اليوم الذي نرحل فيه إلى أرض السكون، نحن نركع تحت قدميك ابتهالاً وتقرّبًا للآلهة، يا صاحب الصوت الحق والأب الإلهي الدائم الفاضل، يا صاحب اليد العفيفة الطاهرة المناضلة، ويا ذا الجدران المتينة الشامخة».

تناولت شريحة خبز مسقّاة في زبد وعسل، بان كدر على وجهي وسرحت عينيّ قليلاً فتباطأت في التهام الطعام، هل حقًّا ما تقول يا «وني» أم أنّها مجرّد ادّعاءات لا محلّ لها من الصحّة؟ هل يحبني شعبي فعلاً أم كان يحب أبي مهدّئ الأرضين أكثر؟ أخشى أن يكون الشعب يدعو عليّ بالرحيل!

شعر «بام» بي بعد أن أمسكت عن تناول الطعام، فجاء تحت قدمّي وركع وراح يتلو متعوّذاً بصوت هامس غير مسموع، وظلّ «وني» يرتّل قبالتي:

«منذ الأزل، خُلقت لتقودنا، انصهر الآلهة في ملكوتك فأصبحوا هم أنت، وأنت هم، روحك باقية لنا مهما تلاشينا، ليس لنا من

مأوى سواك يا طيّب السمعة إلى الأبد، ولو كنّا نستطيع الحيلولة دون لقاء الآخرة لفعلنا محبّة في ولايتك الخالدة».

كانت أنفاسي قد أخذت في التهدّج، و«بام» راح صوته بالتعاويذ يعلو ويغطّي على ترتيل «وني»:

«اتبع قلبك ما دمت على قيد الحياة، ضع البخور فوق رأسك، البس الكتّان، تطيّب بأفخر عطور الآلهة، اتبع قلبك وهيئ لنفسك السعادة أطول وقت مستطاع، توسّل للآلهة ولا تستهلك ذهنك.. توسّل «لآمون» و«رع» و«منتو»، واستمع إلى أولئك الذين يبتهلون لك على الرغم من صخب المعركة».

كانت الأصوات بالفعل محتدمة داخل أذني، لا تتطلّب التنويه، أصوات صليل السيوف وصياح الجنود، وغبار المعركة يغيّم بصري، الأشلاء والدماء والأنين، أُمسك رقبتي وأكاد أتأوّه، أنفاسي تختنق، وأكاد من ارتحال العقل نحو ساحة القتال وساحة التذكّر، يُغشى عليّ من فرط الاحتدام الذي بات يسكنني في بلادة جنونية.

بردية «حنو» الأولى (دون تحريف)

«ابتهج يا رفيع المقام، وأقم الأفراح في أجواء قصرنا، أُرسل لك مرسولي هذا يا أبي من بعد أن لاحت بشائر الفوز، أنت تعرف أنّني لم أراسلك ذي قبل، ليس لخطر محدق أو تجاهلًا بقدر ما كنت منهمكًا في غمار المعركة وفي قلب المعمعة، أو ربما لكي ما تقرأ لي بيانًا وافيًا عن الانتصار لا يحتمل تأويلًا أو إيضاحًا، فابتهج يا ذا الرفعة حيث يلوح الربح المحقّق التامّ بعون «منتو»، وقد منينا بتوفيق الآلهة منذ دكّت خيولنا الأرض الغريبة.

لكن سامحني يا أبت دعني أسألك أولًا أين أنت طيلة تلك الفترة؟ ألست كبيرًا لهؤلاء الجند؟ لماذا لا تطلّ ولو كلّ ردح على ما نأتيه من ظفر حتّى ما يرتفع شأن البلاد ويسود مُلك سيّدي عظيم الشأن؟ يسأل عنك الجنود ويبلغونك بألا تدع الأخبار تأتيك عن طريق مرؤوسيك غير ذوي النفع، لتُشرف بنفسك على حالهم وحال المعركة، يتقوّتون بك وتتقوّى معنوياتهم، إنّما لا موضع في مخطوطي للعتاب، فعلى كلّ حال أنا في أوج سعادتي لما أُلنا إليه.

لقد خرجنا من «أسيوط»، والآن نحن على أعتاب «هراكليوبوليس»، سندخلها قريبًا تحت لواء «منتو»، جيوش العدو يا أبتِ تتراجع مدحورة، غير قادرة على صدّ تيار جيشنا

المُبارك الصامد باسم الآلهة أجمعين، ونهرنا العظيم ها هو يربد بدمائهم الملوّثة بالخيانة، ويحتفل معنا بما حظينا من غلبة، تتراقص رؤوسهم فوق ذؤابات سيوفنا، يتقهقرون أمام اجتياحنا، هم ليسوا غير فقاعة من وهم وانفثأت، فاطمئن يا أصيل السمو، أشعر بأنّني ها هنا وُلدت من جديد، مؤكّد لم تكن تتوقع يومًا أن أحمل سيفي وأنطلق أحشّ من رؤوس الأعداء بتلك النشوة! أليس كذلك يا أبي؟ ألم تكن أنت من قال لي: لماذا تود الانضمام للجيش؟ ما الذي ينقصك؟ طالما اعتبرتني صغيرك المدلّل، إنّما لعلّك لا تعرف أنّني صرت في طور الشباب، صرت رجلاً، كان ينقصه الكثير، سامحني يا أبت، لا أقصد أن ألومك أو أتطرّق لأيّ تلميح من شأنه بعث الأسى في نفسك، لكنّني أحب أن أكون صريحًا متلفّحًا بالشجاعة، خاصّة في ذلك الخطاب، أخشى ألّا يتكرّر، وأخشى أكثر من عدم الرجوع، من منّا يا أبت يعلم متى تحديدًا سيرتفع للسماء؟

إذن لأكن محتميًا بالصدق والأمانة والشفافية ما أوتيت من عزم، أنا أحبّك وأمّي أكثر من نفسي، أحبّ إخوتي لأبعد ما يكون الحب، لكن كان ينقصني ذاك الشيء الذي يُشعر الرجل فينا بأنّه مسؤول، وأنّ له كيانًا مستقلًّا لا يتبع مقام أبيه ولا صفته أو رفعته في البلاد، اعذرني يا نصيري، لا أحتمل أن تغضب منّي لبوح تافه مثل هذا، لكنّك أقرب الأشخاص إلى نفسي والأولى بالبوح، لم يكن لي من سمير سواك، لابد من أن تعرف أنّ ما ينقصني هناك في المملكة وجدته هنا بين أصدقائي، في ساحة المعركة وفي خضم القتال، إنّها الحرب، التي تُشعرني بأنّني مسؤول، مسؤول عن وطن وعن استقلال وعزّة، لا تتخيّل مدى الهوس الذي يصيبني وأنا أجري بين صفوف العدو أمزّق الأجساد بسيفي، نشوة غريبة

الشكل لا تتملّكني فحسب، بل تتملّكنا جميعًا، أنظر لهم فأجد نفس التعبير والحافز ونفس الملامح، نفس الإصرار على الكسب، وكلّنا صرنا نشبه بعضنا البعض، لا ملامح محدّدة ولا قلوب، لا عقول ولا سمات، فقط جسد يتحرّك ليحصد جسدًا آخر من دون رحمة أو هوادة، أتعرف أنّني أسميت ذلك الشعور يومًا غفلة الدم؟ عند أن ظللت ذات يوم من المعركة أحش الرؤوس بسيفي بلا وعي، غير أنّها كانت غفلة مستلذّة، تجعلني أشعر بأنّ ذراعي الذي يرجف العيون ويضخّ الموت داخل الأجسام إنّما يستمدّ قوته أساسًا من الشعور الأكبر بأنّ عليه أن ينصر قومه ويزود عن العرش المبجّل وكبرياء البلاد.

كان يا أبت ذلك الإحساس موحدًا، الساحات أمامنا مليئة بأنصاف وأرباع الأجساد، الأذرع والأرجل والأطراف المبتورة، الرؤوس الممزّقة والدماء التي تشابكت على المدى الذي تبلغه الأعين كنسيج واحد، مع الخوف من أن يأتي سهم خاطف فيقتصّ الرأس أو ضربة سيف تنزعها من مكانها، هي الحرب، والكرامة، لم أحاول أن أسأل نفسي لماذا أشعر باللذّة حين يقع أحدهم صريعًا؟ هل هو حقًّا الشعور بالثأر؟ أم إحساس آخر خاصّ بحيوان النفس، ففي النفس ثمّة حيوان دموي ربما وجد له متنفسًا أخيرًا في كلّ العنف والقسوة من حولنا يستطيع من خلاله ممارسة طباع النفس الأزلية؛ الشرّ والسفك، الحيوان الذي يتحرّك بالداخل فتتحرّك معه جميع أجزاء الهيكل البشري، العقل الذي يترقّب، القلب الذي يخفق ويكتم دقّاته ما أمكن كي لا يسمعها العدو، والأطراف؛ تلك التي تعلّمنا خلال حربنا أنّ مهمتها الإبادة حتّى تفلح أو تُباد، لكن الغريب أنني لم أحزن للدرجة على شبيه لي سقط في بطن القتال، لا أدري يا أبي! ربما

كانت النيران التي تتدفّق من داخلي تُعمي عينيّ وإحساسي عن الحزن، تتدفّق من الداخل للخارج، نحو الأطراف التي تنفثها بدورها إلى الغذاء الماثل قبالتها، مئات وآلاف العرائس البشرية الحيّة تسقط داخل آتون المعركة، كقطرات مطر في ليلة شتوية ملبّدة بالغيوم، ربما كان كذلك اللون الأحمر الذي طفا فوق صفحة السماء حولنا، وكان بعضنا يصرخ، من نشوة الانتصار التي ترفعه لذروة مراتب السعادة فتُفضي إلى الصراخ، لكنّ ثمّة آخرين يصرخون مع ذلك، تلك الصرخات التي لا يسمعها غير الآلهة، مكتومة، محبوسة، جافّة، تعبّر عن نهاية رحلة داخل دائرة الحياة وبدء واحدة أخرى من الأرض إلى السماء؛ رحلة أخرى، مجهولة.

وعلى الرغم من هذا يا نصيري، فإنني كنت أرتجف أحيانًا، كلّ جزء في جسمي يرتجف مع كلّ رشقة سهم أو صفير امتشاق سيف، بل في الحقيقة كنت أرتجف أحيانًا وأنا أنحر بيدي الرقاب، أظلّ أضرب في بأس وعنف وبلا دراية كأنّني مغيّب، لكنّني لا أرى في واقع الأمر شيئًا ولا أحس بشيء، إلّا تلك الرجفة السريعة التي تطول بدني في لحظة، وربما أغمضت عينيّ حتّى لا أشعر بمدى الألم الذي يشعر به خصمي طريح الأرض، ومع كلّ عدّة أجساد أنالها أنفض رأسي في شيء من ذهول، هل أنا هذا الرجل؟ كنت تعرف أنّني لا أحب الدمّ، أليس كذلك؟ لم أكن أحتمل رؤية الدم فوق المذبح، فكنت أنقطع عن تقديم القرابين، إنّما اليوم لي هدف أراه في كلّ رأس للعدو تقع؛ القصاص، والدم هو الطرح الثانوي الذي يتخلّف عن عملية بيع وشراء الحق، أليس كذلك يا أبت؟ عند أن تصبح الأرض سلعة يتناوب تجارتها الأرزال بلا اعتبار للأرواح التي تتساقط على الجانبين في موسم

أشبه بموسم حصاد القمح.

هنا لم نكن نحتاج شيئًا إلّا المزيد من المساندة، أعني المساندة الروحية، الآلهة تتكفّل برعايتنا طبعًا، إنّما كنّا ننتظر أن يزورنا الملك المبجّل سيّدي «عنخ- أنتف» ليباشر نجاح جيشه وجهًا لوجه ويغمر أرض المعركة بالسرور، أو تزورنا أنت، أو حتّى أحد الكهّان لينكأ كلّ شروخ المعركة المترسّبة داخل نفوسنا بتعاويذه المباركة، ليس بيننا وبينكم يا أبت سوى رُسل كما يغدون كما يروحون، لا يبلّغوننا جديدًا، ولا يبلّغونكم، كلّ ما في الأمر أنّ الجيش ثابت على الظفر والتقدّم، وهذا ليس بجديد، هل تعرفون يا أبت كم واحداً منّا سقط؟ هل يعرف سيّدي المظفّر إلام يحتاج أبناؤه غير إمدادات الطعام والشراب والمؤن الكافية؟ ثمّة أشياء أهمّ كثيرًا من الأكل والشرب، ثمّة زهو وارتياح علينا أن نشعر به، وأنتم تسيرون بين الجنود تشعرونهم بالألفة والرضاء والتباهي، تمنحونهم لمسات المواساة والتطبيب، تعزّونهم في إخوتهم الذين ارتفعوا إلى أعلى، تلك أشياء يا أبي -لو تعرف!- غالية ولا تنتقص من قدركم بأيّة حال.

لكن عمومًا ذلك لا يؤثّر في مسيرة الجيش نحو «هراكليوبوليس»، ولا يثبط عزم الجنود، نحن الآن -في أثناء خطّي لهذه البردية- شرعنا بترك «أسيوط» في أعقابنا، لك أن تتخيّل أنّ «خيتي» الملعون قد جنّد رجالاً جددًا، معظمهم من حاملي الأقواس، لجعلهم درعًا صادًّا أمام جيشنا القادم من الوجه القبلي، لكنّنا فتكنا بهم في أقل من ثلاثة أيام، كان «رع» يباركنا يا أبت، فلم نشعر بجوع ولا عطش خلال تلك الفترة، اشتعل الجيش مثل جذوة لا تعرف الرحمة، ومضى يقتص من رؤوس

جند «خيتي» الضعفاء، أسقطنا منهم كثيرين، ومن تبقّوا لاذوا بالفرار كجرذان بين وديان الجبال وتصدّعاتها التي يحفظونها عن ظهر قلب، كانت الحكمة ألّا نتبعهم، أولًا: كنّا ندرك أنّهم قد تشتّتوا جميعًا ولن يتمكّنوا من ترتيب أنفسهم ثانية، ولو فعلوا، أي بعد وقت، سيكون ذلك فيما بعد خروجنا من «أسيوط»، ثانيًا: كنّا نخشى على أنفسنا من التيه والتشتّت بين مجاهل صحرائهم وجبالهم الغربية علينا، ثالثًا: إنّ جنود «مقاطعة الأرنب» كانوا في استقبالهم على مشارف المقاطعة، ذلك إن جازفوا وفرّوا نحو الشمال برًّا، وقد حضر قائد كشّافة جيش «مقاطعة الأرنب» بنفسه إلى معسكرنا قرب «أسيوط» يحمل رسالة من الأمير «كاي» يطمئن فيها جنود «طيبة» ويدعوهم للمثابرة ويحثّهم على الفتك بمن تبقّى من جند «أسيوط»، وقد قبع بين جنودنا مزهوًّا بما آلت له مصائر المعركة، مزهوًّا باستماتة جيش «طيبة» في قهقرة جيوش العدو، والتي لم ير لها مثيلاً في أيّ جيش آخر، مضى ليلته يستريح، أكرمه قائدنا وأراح ظمأه وجوعه، وتشاور معه في شؤون تخصّ ما هو قادم من تعارك، وفي الصباح التالي، وقف بيننا وفضّ رسالة الأمير «كاي» علنًا ومضى يتلو في سعادة وفي فخر:

«أنا حاكم مقاطعة الأرنب الخامسة عشر في الوجه القبلي، والمخلص لفرعون مقاطعات الجنوب الخمس، ملكي المعظّم «واح- عنخ- أنتف»، أنا «كاي» العظيم ابن «نحري» المبجّل، الذي فتح بيته لكلّ من انتابه الخوف في يوم النزال، وبات قلعة يأوي لها جميع الناس، أنا الحاكم الذي ترتعد الناس منه، وخوفه في أفئدة القوم مثل «سخمت» في يوم الواقعة، وعندما يجن الليل يمدحني أولئك الذين ينامون على الطريق لأنّهم كانوا في

أمان كأنّهم في بيوتهم، وكانت قوة جنودي المخيفة هي حمايتهم عندما كانت وحوش الحقول تنام بجوارهم، قد جنّدت جنودًا آخرين غير أولئك الذين تشتّتوا من ذعر المعركة السابقة وآثروا التراجع، جنودًا من شباب الناس عددهم عظيم وإخلاصهم أبدي، بدل الجنود الجبناء الذين استقروا في بيوتهم هلعًا وباتوا من عموم القوم وحطّة الشعب، للعلم أولئك وجبت عليهم لعنتي، ووجب عليهم عقابي، لكن الحكمة تكون في الصبر لما بعد أوان الحرب، كي لا يشغل «كاي» العظيم شاغل إلا طموح النصر الباهر، وأقلّه كي يتمّ الترتيب لعقاب يناسب فداحة الجرم.

لك أن تعرف -يا مهدئ الأرضين- أنّني قد أعددت جيشًا خارت قبالته مقاومة جيش فرعون «هراكليوبوليس» الضعيف، الذي أدرك أنّنا طوفان هادر، لكن لأسفي بعدما لم يعد للندم موضع، لغبائه كان يظن أنّه سيظفر بالإله «حابي» حليفًا، فجهّز أسطولاً ليحاوطنا من جهة الماء، وقد جاء من جهة الشمال مخالفًا لسير النهر العظيم ذاته، حسبه أن يتمكّن من إنزال جنوده فيفتكون بنا على مشارف الصبح عقب محاصرتنا، لم يكن يدرك أنّ بلوغ موطننا جاء بعد مشقّة وجهد وقد كان جنده متعبين، وأنّ جنوده هؤلاء لا يحترفون فنّ النزال من فوق أسطح السفن، فنحن من نشأ في حرم النيل العظيم، ونحن من تربّى على ضفافه، لذا كانت ثقتي في رجال ميدان المعركة البحرية كبيرة، وبحكمة قائدهم انتظر متخفيًا على ضفاف النهر ليلة كاملة، حتّى ينجلي الظلام، وتستطيع عيون الجنود رصد جيش «هراكليوبوليس» الهزيل، وحين أسفر الصبح عن نور عفي، راع قائد جيشهم أنّ «مقاطعة الأرنب» عن بكرة أبيها كأنّها كانت تنتظر على الضفّة، جنود كثيرو العدد، وتشكيلات من رماة سهام، وحملة قسي،

وفرق رماح، أضف إليها عددًا مهولاً من عجلات حربية حديثة الصنع ومتقنة الحبكة، قام جيشنا عليهم بلا توان، كسرب من ذباب لا يعرف التراجع، وقد تمّ الإطاحة بكلّ من تجرّأ وتقدّم من ناحية البرّ، تطايرت السهام كالذباب، وكان لكلّ سهم نصيب محقّق من دمّ العدو، في لحظة أن أخذت مراكب صيد صغيرة تلتفّ من حول أسطول «هراكليوبوليس» بحذر ولؤم وفي حيطة، كيما يتسنّى لجنود الفرقة البحرية تسلّق جدران السفن واعتلاءها في هدوء، كانت خطّة محكمة، لا تعرف أيّة ثغرات، كانوا يتحصّنون بـ«حابي»، وكنّا نتحصّن بآلهة الجنوب جميعها، لا يدركون أنّ «حابي» المقدّس حليفنا نحن منذ البداية، وسيشرع في التهامهم بأسرع ممّا يتخيّلون، كانوا ينتظرون الصباح، ونحن ننتظر في سواد الليل ونتأهّب، نضرب بلا هوادة ولا يثبط من همّتنا ضربهم، أدركت أنّنا في أيّام قلائل سنمحوهم لو دام قتالنا على هذا النحو، لا صدّ لتدافعنا، ولا رادع لعزيمتنا، كانت البسالة والتفاني في القتال والشجاعة من صفات جنودي الأفاضل، وها هي حياة جديدة تبعث في جسد المقاطعة، دماء تجري تسيل نحو النيل المقدّس فيصطبغ بالاحمرار، ونحو أرضنا المقدّسة فترتوي لذروتها، خوذ تقتلع، رؤوس تتقاذف، أجسام تهوي نحو قاع النهر المبارك، بدا أنّ إله الموت أخذ يستقبل من العدو بغير قدرة على الاختيار، حظّه من الأرواح كان وفيرًا، وأنّ الغريم المغرور لا يدري كم أنّ قواه واهنة أمام قوانا، أجهزنا عليه، لم نبقِ على أحد من رجاله، لم نعد نرى إلّا الأفق الأحمر المغرورق بالهزيمة النكراء للفرعون المتكبّر، وعمّا قريب سوف نطيح معًا التاج عنه، فيلبس رداء الحداد، ويركع تحت أقدامنا راجيًا العفو، فقط ادع الآلهة يا مولاي أن تصبر، واصبر معها، فالنصر الحاسم وشيك».

بوّابة قديمة

تمضي الوساوس من خلفي وأمضي بدون تماسك، يتردّد صوت «عيط الله» في رأسي كبوق ملّح: قف. لكنّني أروح في هرولة لا اتّزان لها حيث الشوارع خالية والسكون يفرض على الأجواء نمطه، تتباطأ قدماي أمام بار «الترِس»، أجد هاتفًا مستفزًّا يرغمني على الانحراف نحو مدخل البار، لم أكن في حياتي قد وطأت مثل تلك الأماكن، لا أعرف! لم يكن يستهويني وقوع كلّ الوجوه على أصولها وحقيقتها، خاصّة في لحظات الانفصال عن الأقنعة.

في عدم تركيز رحت أجوس الجميع، وكانوا ينظرون نحوي بلامبالاة، تيقّنت أنّ ها هنا تتلاشى كلّ التحفّظات، أجلس منزويًا، أنفاسي اللاهثة تتبدّد وسط لغط السكارى والمنتشين، «الترِس» يدور بيننا بزجاجات البيرة الملآنة ويرصها فوق الترابيزات، ثم يلم الفارغات ويختفي داخل عمق البار قليلاً، يطلّ برأسه نحوي من وراء صفّ زجاجات الخمور المتنوّعة الذي يحجب بطن البار من الداخل ويقول في استهزاء:

- منوّر يا «متعوس».. أول مرّة تزورنا يعني!

لم أعره بالًا، لو يدري أنّني لم أجد مكانًا أنسب للاختباء من «عيط الله» غير هذا البار! رحت ثانية أتفقّد الوجوه المبتسمة من حولي في كثير من عدم اتّزان ورأسي تمجّ بشكل الملعون «عيط

الله»، لكنّني لم أمنع نفسي من التساؤل عن سرّ هذه الألفة التي تجمع البشر هنا؟ ينسلخون من رداء النهار ويتلبّسون الليل بكلّ ملكوته وانبساطه، ينسون كلّ ما يدور في أثناء يوم يحفل بالمآسي والهموم ليرتحلوا نحو دنيا الغياب.

لم أعتد شرب البيرة قبل ذلك، هي مرّات شحيحة ولم ترقها نفسي، يروق لي شرب الحشيش أكثر، بما يترك من لسعة وراء الأذن، وفي ثنايا المخ، يُشعرني أنّني لست هنا، على تلك الأرض القاسية، بل هناك، في أعلى من مستوى جميع الموجودات.

العرق لم يزل يتصبّب، وليس من أحد يهمّه في الواقع معاينة بقيّة الجالسين، كنت أعرف أنّني أضعت «عيط الله»، إنّما أنا واحد من قليلين شاهدوه عيانًا، فكيف لا أظلّ مرتعدًا لأيام! بل لشهور طويلة.

أخذت في التحديق من حولي وأنا أفكّر: أيّ من تلك الوجوه سوف يستدير الآن لي ويستنكر وجودي ها هنا؟ أيّهم سوف يهزأ بي ويقول: يا ابن إبليس؟ أيّ من هؤلاء شهد يوم ولادتي! أيّ منهم كان حاضرًا الفضيحة وأبصر الفجيعة! أيّهم كان ينتظر معهم الوضع بفارغ الصبر! حين انصرفوا عن كلّ شؤون حياتهم وتفرّغوا بالكلام والحواديت والرغي فقط لأمّي.

طفت ببصري في الجميع، هه، ألم يكن يوم مولدي مشهودًا؟ عندما تجمّع كلّ أهل القرية أمام بيتنا، وشيخ البلد علّق عينيه بالسماء كأنّه يستبق الفضيحة، جلستم في انتظار كلمة «حميدة» الحاسمة، إلّا أبي، كان قد تدروش وهجّ، لا يعرف أحد إلى أين؟ ولم يهتم أحد به، الموضوع أكبر من «عرفان» فاقد الرجولة، الموضوع شرف القرية وشرف كلّ رجالها.

كأنّ بي أرى دخان السجائر وثرثرة الحريم تحوم حول البيت، الطلق أوشك، و«حميدة» قابعة بالداخل هنالك تترقّب نزولي، تكتم أنفاسها لأنّ كلمتها هي حدّ السيف الذي إمّا ينال من رقبة أمّي وإمّا ينال من يقين أهل البلد، الوقت يلهو بينهم، والتوّجس يداعب الأذهان، لعلّنا ظلمناها، لعلّ ما تزعم هو الصواب، لكن صرخاتي تصدر تشقّ صفوف الخلق خارج البيت فيندفعون للداخل ويتزاحمون قبالة «حميدة» التي تنحدر بعينيها تحتهم وتتنهّد قائلة:

- الدمّ كان كثيرًا، تخالط، لم أستطع تبيّن دمّ العفّة من دمّ المخاض.

وكأنّها كانت متآمرة مع الجميع، وكأنّ كلامها إشارة إلهية تفصح عن الجريمة، هي لم تؤكّد شيئًا بكلامها، ولم تنفِ مع ذلك، إنّما الحكم صدر فوريًا بأنّ عقاب أمّي أن ترحل عن البلد الطاهرة، حتّى قبل أن يلتئم فرجها وتصبح قادرة على تحمّل مشقة الرحيل.

كنت مُضغة غير واضحة الملامح حين أجبرتموها يا أوغاد على أن تحملني على كتفها وتغادر، لم تكن هناك فرصة للدفاع، كان غضبكم وانحيازكم لصوت التربّص أعلى، ضاع دفاعها عن شرفها بينكم، وشيخ البلد يصيح:

- هاه يا عمدة، صدقتني، إنّها فاجرة وكذّابة، لم أكن مخطئًا، لقد ادّعت عليّ بالباطل.

بالمشاعل تابعتم خطواتها، بوداع جعلكم تزفرون أنفاس الخلاص، راحت تركض كالمجنونة تشعر أنّ همساتكم تحتوى

أذنيها، وصوت أبي يأتيها من بعيد ساخرًا، ضحكاته تجلجل على المدى، وخطواته التي تحمل الشرّ تلهث خلفها، راحت تركض بين دروب الألم وصرخات الظلام قد لا تعرف أنّ كلّ جريمتها أنّها من دون سند تتكئ عليه، وأنّها تزوجت العاجز الوحيد في بلدة طاهرة.

البيرة تسري بداخلي فيعتريني الدوار، أتطلّع في كلّ هؤلاء الذين بدءوا يتشابهون وتتماثل وجوههم، أرفع زجاجة البيرة إلى أعلى وينتابني ضحك طفيف وأكاد أصرخ: أيّها المجرمون، ألا يستمع لي أحدكم؟ فهذه حكايتي.. وهذا أنا...!

* * *

من هنا أقف مشارف كلّ صباح، يرنو بصري -من فوق الجبل- إلى الجهة الشرقية من البلد؛ «الكرنك»، تتماس أناملي والطيور المحلّقة قرب رأس الجبل، تمضي في سعادة نحو موطن آخر ولا تكترث لفجيعتي، تنغرس دفقات الهواء البارد في لحم وجهي فلا يعنيني، لم يكن الألم يومًا ذا علاقة بالجسد، أصعب الأوجاع وأقساها تلك التي تكمن في قرار الفؤاد.

- كفاك شرًّا يا بني.

هذا ما كانت تقول أمّي لي دائمًا، وكنت أقول لها:

- أيّ شرّ يا أمّاه يضاهي شرّ أولئك البغاة؟ أنسيتِ المهانة؟

- انس ما جرى، كن متسامحًا يعفُ الله عنك يا ولدي ويسدّد خطاك.

كنت أنظر لها بدون أن أردّ، هل ما زلت بمثل هذه السذاجة يا أمّاه؟ أقول في نفسي بغيظ دفين: يا لطيبتك! وهل أنا مؤمن كفاية أو طيّب للتحلّي بفضيلة الغفران! وهل كانت لي حيلة غير اعتناق طريق الجريمة؟ هل أبقى لنا أحد أيّ مسلك آخر؟

أنا والجبل والسماء كنّا أصدقاءً تجمعنا جلسة واحدة آخر كلّ ليل ويجمعنا همّ واحد ومزاج متوافق، علّمني الجبل من عزته وقسوته ومن لؤمه ما جعلني موجوعًا كفاية طيلة السنوات لأختلي -كلّما استعرّت النار في أعماقي- برأسي وغليلي داخل كهف صنعته لي الأقدار في جوفه يومًا، وكشفه المطر ذات ليل، أمسك في يدي قلبي الذليل المُهان وأظلّ أعصره في غيظ، آه لو تكتسب القليل من الشجاعة ومن البأس! أصبو لنزول «الكرنك» أرشف من دماء الخفافيش الذين يسكنونها على مهل، لكن أيّ وهم! كم أنا منكسر وجبان وذليل! لو فقط أتمّكن من الوقوف من دون خوف أمامهم لأذكّرهم بأمّي، المرأة التي تكالبوا على شرفها، أذكّرهم بالولد الذي لم يشفقوا على ضعفه وتركوه عرضة للموت هناك؛ خارج حدود بيوتهم، في قلب الليل وفي برد الشتاء، أنبّههم إلى أنّ (الخول) إيّاه أنجب رجلًا سوف يذلّهم ويخضعهم قسرًا لانتقامه -العبثي- متشفيًا.

وأقول لأمّي كذلك: قد يأتي اليوم الذي فيه تسترجعين قسطًا من كرامتك المُهدَرة، اليوم الذي فيه تبتسمين ابتسامة راضية كابتسامتي، وتعرفين أنّ ولدك لن يرحمهم، من يعرف؟! لعلّ طبائع الشخوص تختلف باختلاف الزمن، لعلّني أكتسب البعض من القوة ومن الجسارة.

لكنّني يا أمّي لم أحسب حساب اليوم الذي ترقدين فيه

أمامي، صامتة ككلّ سنوات الغمّ، اليوم الذي سأتركك فيه ممدّدة دون حراك مؤجلا دفنتك داخل أحشاء الجبل، متمنيًا أن أهبط إليهم بكلّ غضبي، أدوس على رؤوسهم رأسًا رأسًا، أجعلهم كلّهم يفحّون كالأفاعي أسفل أقدامي راجين العفو، قائلين يتوسّلون:

- الرحمة يا ابن «عرفان».

* * *

لم يبق لي إذن مكان غير الضلال.

شاء القدر أن تكون الفضيحة منذ زمن، وأن أكون.

لم يكن في الأمر طرافة كما يحلو لي أن أوهم نفسي كلّما ألمّ بي عصف من الجرح أو الوجع، أو صدفة، بل كان مفجعًا، حملت تعاسته في قلبي كلّ ذلك العمر بدون أن أشكو إلا لله.

في أحضان الجبل ترعرعت، كان رحيمًا علينا قدر قسوة أهل «الكرنك» وربما أكثر، عزمت -فيما بعد- أن أدخل المدينة سواء أكنت منتقمًا أم ناقمًا أم مفسِدًا أم مغلوبًا على أمره، الأمر سيان، والمرّ طعم الحنظل، لنا في المدينة بيت ولو عشّش فيه العنكبوت.

لا أذكر كم كان عمري، ولست أحفل! كما لا أذكر أنّ أحدهم قد أشفق على عزلة أمّي وفكّر أن يسأل عنّا، لا من أقاربها، ولا من أقارب أبي الذي لا أدرك إن كان أبي حقيقة أم لا؟ ليس غير اليقين المتواري في ثنايا عقيدتي بأنّ أمّي هي الشرف نقيًّا خالصًا بلا أدنى ريب.

لم يكن يسأل أحد، كأنّهم يباركون خروجنا من مدينتهم الفاضلة بمثل تلك الفضيحة، كأنّهم لا يصدقون حكايتها التي أقسمت بحدوثها، والتي رحلت بسببها، رحلت وسكنت بعيدًا، أقامت بيتًا من طين في بطن جبل «القرنة» في البرّ الغربي -ولم تكن تعرف غيره ملاذًا- عند آخر حدود البلد، تعيش وأعيش معها على حدّ الكفاف، حيث الجيران أفاعي وسحالي وجرذان، وبضعة بيوت متناثرة من بعيد في شحوب، أشبه بومضات في ذاكرة بالية، لكنّني أذكر بشدة وقوفي فوق نتوءات صخر الجبل، أتأمّل من أعلى ومن بعيد تفاصيل المدينة القاسية المجحفة، التي تضوّي أضواؤها من هناك، من البرّ الشرقي، أتأمّل في تمنّ ركوعها أسفل قدميّ، كأنّ بها تسألني المغفرة، وقد أغفر؛ قد أغفر لهم جميعًا، كلّ من شارك في مؤامرة النفي، بشرط أن يأتوا ها هنا ويبثّوا الحياة في جسد أمّي الممدّد أمامي من دون حراك، بشرط أن أسمعهم جميعًا يهتفون في صوت واحد:

- أنت من صلب «عرفان».

هنا قد أسامحهم وأرحل، أقيهم شرّي ومكري والدهاء، أرحل عنهم بكلّ قهري وحرقتي المتغلغلة في جذور النفس والحسرة، لكن.. ليعترفوا بي أولاً، فربما لا يدركون مدى احتياجي لمثل ذاك الاعتراف.

* * *

ولم يكن يسأل عنّا غيره؛ الشيخ «خلاّف»، لعلّه الوحيد الذي آمن بأنّ القدر له من العجائب والمعجزات ما لا تستوعبه عقول أولئك البغال.

كان كلّ عدّة أيام يصعد صوب الجبل لزيارتنا، على الرغم من كهولته وتجاوزه السبعين خريفًا، تحمل يداه خضراوات أو دجاجات، كان يدرك أنّ أمّي أمامها الكثير من الوقت كي تستأنف مسيرة الحياة الطبيعية، من دون أن ينغصّ عليها تلك الحياة ألم.

سمعت الحكاية بكلّ تفاصيلها أول ما سمعت -قبل أن ترويها لي أمّي- من لسانه، بعد أن أخذت أسمعها بشكل متناثر من ألسنة المتعمّدين السفلة حتّى قضى الله أمرًا كان مفعولاً وأرغمته -في ود- على أن يقصّ ما كان، آنذاك جلس قبالتي، أخذ يرشف الشاي في استحسان وفي شرود، كانت نار الحطب متوقّدة بيننا، تمامًا كنار قلبي، رحت أرمقه حالما ينفضّ من احتساء كوب الشاي، سند أمامه -بعد أن انتهى- الكوب ومضى يجوس في عينيّ بعينيه، قال:

- اسمع يا «عبيد»، لا تحتمل الصدق فيهم بقدر التآمر والبغض والغباء والتحيّز للجهل، لم تكن أمّك يا ولدي جميلة لدرجة الفتنة، لكنّها ملفتة وبلا رجل يؤازرها، وكانت عزيزة النفس عفيفة الجسد، وهم حين يحدّثونك عن الخبر، إن يريدون إلّا إذلالك، ذلك لأنّ أمّك المرأة الوحيدة التي تجرّأت وتطاولت على شيخ البلد وأراقت دمه.

صمت للحظة، تنهّد، رفع عينيه نحو السماء وشخص، ربما يدرك أنّني سمعت أجزاء متفرّقة في الحكاية بالفعل من لسان أراد إذلالي إلى لسان يحتقر وجودي في البلد، رجع لي ببصره مكملاً:

- هه، كانت عاجزة يا ولدي، تخلّى رجلها عنها من دون سبب، ولشكّه المفرط في رجولته، حاولت أن أزود عنها يا ولدي، لكنني

لم أكن قدر عنادهم وجبروتهم، قلت لهم: لعلّها معجزة، لماذا لا نحاول -ولو حتّى بأدنى مستويات التفكير- تصديق حكايتها؟ وقالوا في استخفاف: إنّ زمن المعجزات ولّى يا عمّ الشيخ.

يحملني المساء من همّ إلى همّ، أتفاوض مع لسانه ليُكمل، قل يا شيخ بالله عليك ما تمّ وما جرى في شأن المسكينة أمّي، لا حرج ها هنا ولا استحياء، فلم يعد للثأر الفعلي في قلبي مكان، بل ثأر ضعيف، قوته في أن أبدّد راحة مضاجعهم، أنا واه وأنت تعرف، ليس لي أحد أتّكئ عليه سوى ربّي، ليست لي قدرة على مجابهة تلك المدينة الداعرة بجبروتها وقسوتها، قد أتهاون، بل ربما تنسيني الأيام، إنّما أكمل يا مولانا لكي أستحلّ غنائمي منهم أكثر.

أضواء سيارات تشق ظلمة الليل من بعيد، ومضات نافقة من قلب ركية النار تطقطق في الهواء، والجبل حولنا يغفو في شموخ وفي سكينة، تطوف عينا الشيخ «خلاّف» في متن الظلمة، يشعر بأن الوقت تأخّر، لكنّ غواية الحكي وفضّ المسألة من كلّ ملابساتها، وربما محاولات أكثر جدّية لنفي أيّ اتّهام عنه من قبيل الاستسلام أو الرضوخ أو حتّى مسايرة طبيعة جري الأمور، يجعلونه يلوذ بدفء الركية أمامي ويتمهّل، ويشرع في سرد ما جرى وعيناه سابحتان في الفضاء المجاور:

- تتحوّل شخصيات الرجال بمسير الزمن يا ولدي، فمن يبدأ حكاية يستحيل أن يستشرف نهايتها، ومن يبدأ قويًّا قد ينتهي واهنًا مثل قطعة خبز يابسة هشّة تفركها أيّة يد بسهولة، إنّما عوّل كثيرًا على مطحنة الحياة يا بني، عندما بدأت الحكاية لم تبدأ هكذا، ولم يكن أحد يفطن إلى ما آلت إليه، ومن المعقول أن

توّجه الرؤوس بعض العادات وبعض التقاليد والمفاهيم الجامدة الموروثة، وبعض من جهل، لكن ليس معقولاً أن يكون الظلم هو الأداة. من كان يدرك أنّ «عرفان» سيكون مسخرة المدينة وعاجزها بعد أن كان واحدًا ممّن تحمل أنفسهم أمل الدنيا وما فيها! صحيح كان فقيرًا، لكن الفقر لم يكن أيّامها عيبًا، كانت المدينة تحبّه، ويحبّها، كنّا جميعًا على وفاق بطبيعة حال عشيرة المكان الواحد، بدت زيجته من أمّك كأنّها فرحة كلّ الرجال، لن أحتسب اليوم الذي كان فيه الزفاف يومًا عاديًا، فلم يكن، ليس لأنّ «الكرنك» بأسرها كانت تموج من الفرحة، وليس لأنّ البلد لم ينم حتّى حلول الصباح، لكن لأنّ ما حدث ليلتها كاد يشيب الرؤوس.

وصمت لقليل مسبلًا جفنيه.

- كان ذلك قبيل الفجر، ومراسم الزفاف أوشكت على زفر أنفاسها الأخيرة، والأرض مفروشة بفوارغ طلقات البنادق المجاملة التي لم تنقطع منذ بدء الليلة، والرؤوس معظمها لم يعد موجودًا من فرط احتساء خمر «الترِس» المضروب المختلط بالسبيرتو، لم أجرّبه يا ولدي، لكنّني واحد ممّن يعرفون أسرار كلّ شيء في المكان وظروفه بحكم النشأة. كنّا جالسين وشاهدنا بأعيننا، ولو حكى لنا رجل ما رأيناه أمامنا ما صدقناه، ولصار لنا مهزأة. في آخر تلك الليلة يا ولدي، خرجت من الأرض، والله من الأرض، كأنّها برزت من العدم، كانت عيناها حمراوين ككلّ الحكايات المنتشرة عنها داخل المدينة، «الرقّاصة»؛ الجنيّة التي تخرج للرجال تغويهم وتصطحبهم معها إلى أسفل، خرجت من الأرض عارية والشبق يتقدّمها، كنّا مثل قوم حطّ على رؤوسهم

الطير، وكان فمها يزبد بالمجون والعربدة، أخذت تطوف بيننا نحن الرجال والرؤوس رجعت من غياب، لم تكن أنفاسنا تخرج، كبّ الله علينا صمت الدنيا، هو الهول يا ولدي ذاته متجسّدًا قبيحًا كحمم من نار الله تتساقط على الرؤوس، لم نعرف أنّ الجان يبينون علنًا، وبمثل تلك الجرأة، كان أبوك غايتها، لم يعرف أحدنا سببًا لذلك، لماذا هو تحديدًا دون سائر الرجال؟ ما الذي يستثيرها فيه؟ لماذا اختارته ليصبح حظوتها من رجال الأرض؟ لكنّه القدر، الذي يكتب المقدّرات بغير أسباب.

مضت «الرقّاصة» تتلوّى أمامه على الكوشة في نشوة، وتدنو منه، ويبتعد في فزع عنها وعيناه متحجّرتان لا تستوعبان ما يحصل، لم يعد واحد فينا يتحرّك، سابت مفاصلنا، خشينا أن تستدير نحونا لو لفتنا بصرها، فتركناها بجبن واستئثار ومن دون حيلة لأبيك، ما دام غايتها فلا دخل لنا فيما ستأتيه من فعل. أغشي على أمّك في الحال، ولم يفكّر رجل في الاقتراب -مجرّد الاقتراب- كيما يسعف العروس فاقدة الوعي، كلّ الأساطير يا «عبيد» لها أصل في الواقع، والأسطورة التي تمثّلت أمامنا رآها البعض من ذي قبل واتّهمناه بالخرف، كنّا نقول إنّ أساطير «الكرنك» بدعة ابتدعها الأقدمون وفنوا، لنتلظّى نحن بنارها، لكن الحقيقة الواضحة قبالتنا أبدًا لم تعد حكاية مأثورة، بل واقعًا مخيفًا جعل أشجع الشجعان يبدو كهرّ وضيع وهو مقرفص من الذعر.

مضى يجول بعينيه في المحيط الأسود، وبدا فيهما شريط من ذكريات يتوالى، كأنّ رأسه قد عادت فعلاً للوراء كلّ تلك السنوات، أو ربما ليسرد الحكاية بدون أن يغفل أيّة تفصيلة،

وأكمل:

- أخذت «الرقّاصة» الملعونة تحوم حول أبيك، رحنا ندعو الله أن يكون ذلك مجرّد حلم، تفيق منه الرؤوس بعد اكتماله، لكن لم يكن الحلم ليتّفق الجميع على رؤيته، الجنيّة كانت تدور حول أبيك وقد سرى في جسدها ارتعاش لم يكن له مثيل، مثل إحساس لا ينبغي أن يسري في بشر، وكلّ أطرافها تتحسّس جسد أبيك، الذي جعل يشهق في روع، ورحنا نهمس لأنفسنا: آه يا «علوان»، طلعت الجنيّة من تحت الأرض عشقًا فيك، فهل ستتركك لتنعم بليلة مع العروس، ولو لمرّة واحدة؟

كان أبوك قد غمره عرق الهول، ونحن من تحته لم نقو على الحراك، والعصافير التي تعوّدنا على أن تفتتح يومنا قد خرست هي الأخرى، كأنّ «الكرنك» بأسرها طالها ذعر «الرقّاصة»، كانت مجرّد دقائق، دقائق قليلة، هي التي ظلّت فيها «الرقّاصة» تتلوّى كحيّة أُشعلت فيها النيران، إنّما مرّت علينا اللحظات طويلة كدهر جامد، ولم نفق، إلّا حين اختفت فجأة كما ظهرت، واختفى معها عقل المسكين «عرفان» بعد أن لبسته.

طبّ أبوك على الأرض جثّة هامدة مثل جوال من خيش، تحوّلت الليلة إلى ليلة من رعب وقلق وانعدام النوم، أفاق بعد وقت طويل، وكانت عيناه تحملان تلك النظرة الساهمة، نظرة مخلوق آخر، تبحثان في ارتياع عن «الرقّاصة»، طبعًا زُفّ إلى بيته في صمت، ومضينا كلّنا في صمت، وقد عدمنا حيلة المواساة في حدّ ذاتها، ومن بعدها بدأ يجوب المدينة كممسوس، من أول صباح في زواجه، قال البعض إنّ أمّك مشؤومة، لم يدخل عليها يا ولدي، يقينًا لم يفعل، ظلّوا يقولون لأمّك: ليس منه رجاء،

فاتركيه لحاله. لكنّها تقول: ظِلُّ رجل. لم يدخل عليها، إنّما كذلك لم تكذب أمّك حين قالت إنّ شرارة وولّعت في جسمها كلّه، كانت وبكلّ كبرياء، تبرّر لهم أمّك حملها بك بحكاية عن أبيك العنين، الذي كان يرقد فوقها في شرود، إنّما لا تتركه حتّى يداعبها وتداعبه، وحتّى يأتي، تقول لهم كفاية تحملتّه دون شكوى، تحمّلت عينيه الزائغتين، ولوثة مخه، والآن تتهمونني بالخطيئة. ترفع وسط النساء رأسها وتقول: لم يمسّني رجل غير زوجي.

هيا أكمل يا عمّ الشيخ، أكمل لتكتمل الحكاية في رأسي، ذات الحكاية التي لن أسأم سماعها طيلة السنوات، لعلّي بذلك أؤسس لردّ فعل محكَم وأُبقي على نار قلبي متأجّجة لا تخبو.

- عجز أبيك جعل أمّك -قبل أن تحمل بك- مطمعًا لحظّة رجال المدينة، خاصّة شيخ البلد الذي...

سكت طويلاً وهو يتصنّع السعال، ثم أكمل في حشرجة متجاوزًا هذه النقطة:

- المهم، تمر الشهور وتخبر أباك بحملها، فيجن جنونه ويدرك أنّ رجولته كانت واهنة على أن تبذر بذرة طفل في أحشائها، يخرج إلى الملأ ويقابل كلّ الناس ويصيح:

- من فيكم نام في فرشتي يا أولاد الملاعين؟

كانوا يستهزئون منه، ومن أمّك، وكانت تبرّر للجميع:

- شرارة وولّعت في جسمي كله.

ولكن عقولهم لم تستوعب أن نطفة منه قد تقفز بداخلها فتثمر، لم يفكّروا في أنّها قضت لياليها بائسة كُتب عليها الجفاف

ولم تخن، لم يفكروا في أنّها امرأة، وكلّ امرأة منهن تنعم بدفء زوجها، إلّا هي، فأي جُرم إن أخطأت! ولو مرّة! إن فرضنا ذلك من باب الجدل الضرير اليائس.

لكنها أصرّت وقالت:

- أنا بنت بنوت، استنوا «حميدة الداية» لمّا تكشف عليّ.

«حميدة الداية» قالت إنّ الخطر -كلّ الخطر- لو كشفت عليها الآن، سيسقط الجنين، فلينتظروا وقت الوضع...

وساعتها قد تعرف كلّ شيء.

وتنهّد وكان قد انتوى فضّ الحديث، لم يعد الإرهاق ولا الجهد ولا حتّى السهر لمشارف الفجر عوامل لقصّه الحوار بمثل تلك الكيفية، لكنّني أحسست بأنّه قد يبوح بأيّ شيء إلّا ما ستره الزمن.

رحت أنظر له في احتقان.

كدت أهتف: سوف لن تمضي وتتركني بلا راحة، أتخشى يا مولانا من قول قد دار بين ألسنة الجميع؟ لا تكترث لي، ماله شيخ البلد؟

ما ذلك السرّ الذي يجعلك تنصرف بعينيك نحو السماء موجوعًا هكذا؟

هل حقًّا نام شيخ البلد مع أمّي؟

بوّابة خَرف

فضّ الحكايات غوايتي، وجوه الخلق ملاذي من الذكريات، قد لا أحتملها أكثر من قدر ما يحتمل ظهر بغل هشّ طنّ من حديد، أحاول في الغالب لملمة شتات عقلي الذي يروح كثيرًا بغير أن يعود بسرعة، أرى كلّ ما لا يراه غيري، فيقولون: «خرفانة». لكن الخرف يكون في اختلاق الوهم، وأنا لم أر وهمًا قط، أرى كلّ الحقائق إيّاها، التي لا يرغب أحد في المجاهرة بها، أو البوح عن رسوخ إيمانه بها بداخله رسوخ اليقين، «الكوم الأحمر» الذي قبع في مأواه البعيد بعد أن لفظته حياة المدينة، ولون الدمّ القاني يصبغ هيئته، «بورة العيال» المهجورة، والتي تخرج منها «الغولة» مستفردة بعيال المدينة، كرم نخيل «السكري» المهجور، والذي تخشاه الأقدام، ينبض أمام بصري نبض الحقيقة، كأنّه يلوم الناس: لماذا تخشونني؟ مستكين في بقعته المظلمة بالناحية الأخرى من الطريق كمنطقة معتمة من نسيان تعيش في ذاكرة مدينتنا، تلك بعض من أساطير يعرف الناس هنا مدى تحقّقها بينهم، لكنّهم لا يودون الاعتراف.

ينحرف عقلي نحو اللحظات البعيدة من الذكرى، أضحك في سرّي، أتذّكر ولدي «غالب» وهو يهرول ناحيتي مذعورًا، يهتف في فزع:

- صفعني جنّ الكرم يا أمّي.

أربّت على وجهه، أقول له:

- أيّ جنّ يا عفريت؟ جنّ الكرم طيّبون.

كان صغيرًا، دفعه الفضول لتسلّق واحدة من نخلات الكرم في وضح النهار، كان الأولاد يوسوسون له بأنّ لا جنّ هناك ولا يحزنون، فاعترته الجرأة وبدأ في التسلّق، وقبل أن يبلغ آخر النخلة، كان نصيبه صفعة على وجهه من أحد الجنّ الذين يقطنون حشايا نخل الكرم.

أضحك كثيرًا حدّ الدموع، من يومها -ولمّا كبر- وهو يخشى مجرّد المرور من أمام الكرم، ولو صادف ومشى من هناك، يتعثّر، يبسمل، ويقرأ المعوذات، ويجيء وفوق وجهه رعب الدنيا.

أضحك مغمضة العين، أنا نفسي رماني «أبو العقّيط» بحجر من ناحية الكرم؛ واحد من جنّ النخل، أظنّه كان يداعبني وهو يرميني بالحجر، وقتذاك ابتسمت ورفعت عينيّ تجاه الكرم وقلت له معاتبة:

- اعقل يا «أبو العقّيط».

تدور أعين الناس من حولي كأنّها تبحث عن جدوى، أبصق قشر الّلب على التراب، أو أبصق الّلب نفسه، لا أظنّني أحمل أسناناً تقدر على القزقزة، وأظلّ أتفرّس في معاناة الوجوه، كثيرًا ما حاول «أبو العقيّط» مصالحتي، فكان يغنّي لي من بين تلابيب النخل بصوت يشبه الصدى، لم أكن الوحيدة التي عانت من «أبو العقيّط»، البنت «أميرة» طالها أحد أحجاره في يوم، وتورّمت رأسها، قالت لي في براءة ساعتها:

- يمكن غضبان من أجل الكتكوت، لكن غصب عنّي.

ضحكت متعجّبة من أمر الصغيرة التي أوعزت تحرّش «أبو العقيط» بها لموت الكتاكيت، فقد مات اثنان من الكتاكيت التي اشترتها البنات، لم يحسنا تربيتهما، قلت لهن: انتبهن، الكتكوت كالطفل تمامًا، ليست لديه مناعة. لكنّ واحدًا مات غارقًا في طست الماء وهو يجاهد -في جهل- أن يشرب، كانت البنات قد نسين أن يضعن له الماء في طبقه الصغير، فوجدنه سابحًا على وجه الطست وقد تعبّأ جسمه بالماء، أمّا الثاني فمات من المرض، لم يعد يأكل أو يشرب وانزوى في ركن، اعتقدن أنّها نوبة عادية لم يفهمنها، فتركنه، حتّى مات في صباح وجسمه الصغير مليء بالداء، الثالث قرّرت البنات أنّه لابد من أن يعيش، اهتممن به وبرعايته على أحسن ما تكون، كن يتبادلن حمومه كلّ منتصف نهار، يشرفن على طعامه وشرابه مناوبة، أطلقن عليه «الوحداني»، ربما لأنّه الوحيد الذي نجا وثابر على تكملة الحياة، تشاركن ملكيته فصار لهنّ جميعًا، يطعمنه ويلقمنه حتّى الحبّ في فمه، أصبح بعد أشهر ديكًا سمينًا، مختالاً، فصنعن له حظيرة صغيرة بعيدًا عن بقية الفراخ كي لا يُجهزن عليه ويردينه، كثيرًا ما كان يحاول الطيران، لكنه يفشل ويسقط من فوق سور السطح مهزومًا، ويوم أن قرّرت أختاها ذبحه والتهامه، فُجعت «أميرة» واعترضت بشدّة وصاحت:

- إلاّ «الوحداني».

انتصرت عليهما، قالت لي إنّه رغب في الحياة، فبأيّ شرع نسلّمه للموت؟ كنت أراه يحوم في الشارع أمامي يلتقط الفتات متباهيًا، وفي مساء من تلك التي يخرج فيها صفّ الجنود الإنجليز عديمو الرؤوس، في عادة بلا ميعاد ثابت، وجدت «الوحداني»

يهرع من تحت أقدامهم وفي عينيه نظرة تحد، دنا منّي شبه مذعور، كادوا يدهسونه فصحت في غيظ:

- هو يرغب في الحياة يا بهائم، يستمسك بها، قد نجا من الموت مرّة، ولن يموت تحت قدم شبح منكم، انصرفوا لعنكم الله.

بردّية «سنت» الأولى

شجرة «البردي» تتشابك أغصانها فوقنا والزورق الصغير يتمايل على مياه الغدير، تشدو المعالم بقدوم شمس الصباح المتمهّلة، يختلس «حنو» قبلة سريعة من ورائي فوق كتفي المنحسرة عنه ياقة الرداء الحريري، هديته لي، فأدفعه في رفق بيدي، وأستدير برأسي نحوه، يحكّ أنفه بأنفي في قبلة أخرى خاطفة، يكاد يستولي على كياني جزع اللمسة المفاجئة، ينعقد حاجباي، فيداعبني وهو يتصنّع دنوه السقوط في الماء، يرى شهقتي فيندفع إلى ضحك مبتهج، يصيح:

- تحبينني لهذه الدرجة؟

يختلج وجهي خجلاً، يتناول ساعدي لأشاركه صيد العصافير الغافية في أعشاشها بين أغصان «البردي»، تدب رعشة في أوصالي، تتراقص أناملي ونحن نرفع العصا في تروّ، لنبدأ معًا في جلب العصافير التي تفزع وتشرع في صأصأة خافتة، يتأرجح الزورق يمنة ويسرة فيكاد جسدانا يهويان نحو مجرى الغدير، يتلقّفني «حنو»، تتصادم عيناه بعينيّ، لا أجد حرجًا في مبادلته نظرة عميقة، أقلّه تخبره بما يحمله قلبي له، يتخلّل شعري بأنامله، يقول في تهدّج:

- أول وجبة سنتناولها في يوم عرسنا سمكة ضخمة بحجم إله، ولسوف أصنع حربة قوية وأصيد لكِ السمكة بنفسي.

يشعر بالاضطراب الذي يسري في ملامحي، تنكسر نظرة عيني وتوشك دموع على النزول، يتجهّم قائلاً:

- ما الذي جرى؟

- أخشى عليك، أخشى أن تصبح الأماني وهمًا.

يبتسم في رقة ملاك، يحتويني في عينيه بنظرة آسرة، ويقول:

- أنتِ تعرفين أنّني لا أستطيع إلّا المثول لنداء «منتو»، غير أنّ كلّ شباب «طيبة» امتثلوا، لا تقلقي، الحرب مع فرعون «هيراكليوبوليس» أتفه من شعورك بالخوف.

- في النهاية هي حرب، مؤكد سيسقط ضحايا.

- دعكِ من هذا الحديث، أسابيع قليلة، نقضي على جيشهم الهزيل وأعود لكِ ظافرًا.

«حابي»، أيّها النهر المبارك، أيّها الرسول الطيّب، لم أكن آتي إلى ضفّتك سوى لأملأ جرار الحلم وأمضي، لم أكن آتي إلاّ كي تداعب مشاعري فيض المياه الراحلة صوب موطن الشوق فتفضي له رسائلي آملة في أن تصل إلى قلبه القابع بين أسوار الغربة، «حابي»، أنت رسولي الأمين، موجك حروف وكلمات يخلقها خيالي لأناجي بها ضالّتي البعيدة، أنت الشيء الوحيد الباقي لسماع شكواي هذه اللحظة، فأبلغ «حنو» شوقي البليغ إليه.

بعض الصيّادين يجرّبون قواربهم قريبًا من ضفّة النهر، يختبرون قوتهم والمهارة قبل الخروج على الصيد، يضعون تيجانًا من الأزهار فوق رؤوسهم تبرّكًا، يتلاحمون بعصيّ طويلة في تهريج، يتبادلون الشتائم تسرية، أقف طويلاً على ضفّة النهر

وعيناي تجريان نحو الشمال، لك عام يا «حنو» وأكثر، ولم تعد كما قطعت لي من وعد، لو أمكنني السؤال عنك، لكنّني أسأل قلبي الذي يتوجّس خيفة، ماذا جرى لك؟ أما زلت سليمًا أم أصابك مكروه يا وليفي؟ هل لم أزل في بالك أم أنّ غبار الحرب ضبّب صورتي؟

* * *

«هوي» أخي، متى ستزيل من رأسك تلك الهلاوس المزمنة الكامنة؟

على سرير من إطار خشبي تقوم عليه عارضة تحملها أربع قوائم بشكل الثور يجلس شقيقي، كلّما أراه وهو يترك نفسه للهزال والفِكر العاصف اشتدّ في فؤادي الحزن أكثر واستفاض، يدرك أنّ أحدًا لن يصدّق حكايته، لأنّ الجميع هنا لم يعاينوا الأسطورة كما عاينها، بدأ الخطر الخبيث يتولّد في كلّ يوم يترى، خطر أن يتوارى العقل خلف فكرة ما تستغرق اتّجاه الحياة كلّه، نمضي مع كلّ يوم يروح نشعر بانزوائه وهزاله، ففي النهاية ما حصل له لم ينجل تمامًا، وهو قابع بالبيت لا يخرج ولا يتكلّم مع أحد ولا يمارس طبيعة الحياة التي نمارسها، فقط قابع أمام ذاك الإناء من الماء المالح وبداخله قطعة مبهمة من شجرة «سنط». ما أشد لوعتنا عليه! أذكر أبي حين نصحه:

- ولدي، ورثنا مهنة تقينا شرّ الدنيا، فلم التمرّد؟

- وهل يرضيك يا أبت الفقر الذي لا ينصرف؟ أقلّه يزداد دخلنا قليلاً.

- لكنك لا تعرف عن مهنة النجارة شيئًا!

- قضي الأمر، اتّفقت مع رب العمل.

كان أخي أعور، بعين واحدة، فتجاوزه وحش الحرب العاتي، فقد عينه -عرضًا- في طفولة بعيدة وهو يلهو مع الأولاد عند ساقية القرية، انغرس وتدها في عينه فصفّاها في الحال، أذكر تلك الأيام، كنت أكبر أخي بثلاثة أعوام، لم تنم أمّي لليال طويلة وهي ساهرة بجواره تتبع نصائح طبيب القرية الذي ولّف لأخي تركيبة من العقاقير كيما يلتئم جرح العين، وكانت خلال تلك الليالي تمارس طقوس طرد «ست» الذي سكن وتد الساقية فأطاح بعين أخي، ثم بات يسكن قريتنا المحشورة داخل سور عال من الطوب اللبن.

لم يعد بعدها أخي يلهو مع الأطفال كما تعوّد، بل صار يرافق أبي -ولم يزل طريّ العود- إلى الجبّانة ليباشر عمله في حفر القبور ودفن الجثث، في الحقيقة نضج قبل الأوان، بحلم آسر في الرحيل، وبات بداخله بغضًا مستترًا لمهنة قريتنا، وصار أكثر من مرّة يحلم بقيادة سفينة، توجّست أمّي حينما حكى لها أخي الحلم، فسّرت العرافة الحلم بخطر وشيك وقضية خاسرة، غير أنّ «هوي» كان جموحه لمغادرة عالم قريتنا أكبر من أيّ تفسير، وفي يوم، وجد له سكّة مع نجّار يصنع السفن والزوارق والقوارب، لمّ حاجياته وغادر على الرغم من تحذيرات أبي من المخاطرة وامتهان شغلة لا يعرف خفاياها، ليلتها رفعت أمّي رأسها للسماء تخاطب «آمون»، ترجوه ألّا يشتّت ذكرها الوحيد، وأن يعيده إلى بيته سالمًا ومن دون قضية خسرانة، راحت دموعها عليه تفيض، قبضها أبي ذات يوم، فصاح بها:

- هو رجل في كلّ الأحوال، لن أخاف عليه، والآلهة سترعاه.

كانت تشعر بالخطر الداني، تقول لنفسها: منذ ولدت يا بني والتعاسة تلازمك، وسوء الخطو، فأيّ حظّ!

رحل أخي ذات صباح من غير أن يودّعنا، في جزع استيقظت أمّي، لم تتمالك دموعها فسالت أمام كلّ ناس القرية، مضت تشكو لهم ابنها الذي غاب عنها وفي قلبه قسوة، بعدها بات لأمّي كلّ همّ الحياة، ليست من وسيلة للاتّصال به وليس من سبيل للاطمئنان، كلّ يوم يمضي تجلس على قارعة الطريق وبصرها معلّق بأفق ناء، بدت تسيل مع دموعها مياه الحياة من جسدها، فاستسلمت للهزال، وللمرض، لم يكن أبي ينكر مدى حاجتها لابنها، غير أنّه كان يصيح فيها في أحيان كثيرة:

- ارحمي نفسك ترحمك الآلهة.

ثم عاد أخي «هوي» بعد أسابيع في إجازة قصيرة، دخوله علينا كان بمثابة حياة جديدة تدب في جسد أمّي. على الرغم من غضبها عليه، فإنّ الحنين كان أقوى، تركت نفسها لرميته على صدرها، وسحت الدموع منهما معًا، برّر رحيله المفاجئ بأنّ الوداع دائمًا ما يترك في النفس أثرًا عسير المحو، فخشي عليها وعلينا من الوداع، خصوصًا أنّ رحلته لم تكن مأمونة المخاطر، حبّذ أن يأتي التجربة أولًا ثم يشاركنا إيّاها، وبالفعل، جلب معه صنوف طعام لم نكن لنعرف عنها، لحم ماعز برّي ولحوم ديوك رومية، تين وعنب والكثير من قوارير النبيذ، مضى يحكي لنا فرِحًا عن الأشجار التي يقطعها ويشذّبها لبناء السفن، عن الصنادل التي تنقل المحاصيل الزراعية بين أرجاء البلاد، والمراكب التي تنقل الحجّاج إلى «أبيدوس» وإلى مدينتي «بيه» و«دب»، قال لنا:

- كان «حابي» ودودًا، لم أر وجهه الباش إلّا في السفر ومرافقة الحجّاج، كان ينبطح انبطاحًا مباركًا تحت متن السفينة فيذلّل مخرها لمياهه، يلتقي أمام وجوهنا بـ»رع» فيقضيان كلّ نهار معًا، يمتدّ نحو الشمال مثل أسطورة لا آخر لها، تتقدّم أمواجه -كأذرع مفرودة في محبّة- سفينتنا وبكلّ ترحاب واعتزاز. لم نكن في حاجة لسعادة أكبر من تلك التي تغمرنا ونحن فوق ظهر السفينة، نداعب «حابي» ويداعبنا، نصطاد سمك البلطي ونطهوه في كلّ عشيّة، وكان يُسمح لنا بقضاء الليل في حلقات السمر تسرية، فينا من يغنّي فيطرب حواسنا، ومن يختلق النكات فنفترش أرض السطح من الضحك، وفينا من يعلّمنا حكمة الآلهة، ينصحنا بالتقرّب إليها كي نتجنّب غضبها، نرى النجوم تتلألأ في وجه «رع» الليلي كعيون ألماسية فينتابنا سحر جميع الآلهة، آه لو تعرفون كم فاض قلبي عشقًا للحياة تلكم الأيام! رأيت الجبال الخضراء بعينيّ؛ الجبال التي تكسوها خضرة نابضة، كنّا نقف فوق سطح السفينة ونراقب الجبال التي تخالفنا الاتّجاه سائرة نحو الجنوب في انبهار وفي دهشة، تسحب أعيننا معها للوراء، وتسحب قلوبنا نحو «طيبة» ثانية.

قابلنا من الحجّاج أشكال الوجوه كافّة، البيضاء والسمراء والحمراء، يجذلون لنا العطاء، يمنحوننا من الهبات ما كان يكفينا لأيام طويلة: «الروم» و»النبيذ» ولحم الضأن والبط. وكنّا نسهر على خدمتهم ورعايتهم، ونهرول إن كانت السفينة في حاجة لإصلاح أو صيانة، كانت الحياة تعتمل بداخل أرواحنا، نمسي في لعب مع القرود التي يتركها لنا أصحابها من الحجّاج لوقت السمر. لكم أن تتخيّلوا أنّ أحد القرود قفز على كتفي ذات مساء، تعرفون أنّني أخشى صنوف الحيوانات، كلّها، الأليف

والشرس، فتقهقرت للخلف في وجل وكادت قدمي تزلّ فأقع في رحاب «حابي»، لكنّني -وفي اللحظة الأخيرة- تمكّنت من أن أسند جسمي على سور السفينة، اقترب منّي صاحب القرد وقال وهو يضحك في جذل:

- لا تخف، ما دام قد وثب عليك فهي محبّة محمودة، وقردي يرغب في أن تبادله تلك المحبّة.

ونشأت بيني وبين ذاك القرد ألفة لم أكن لأتوقعها، لم يعد يأكل ثمار الموز ولا التمر إلّا من بين يديّ، يتراقص من حولي ويتابعني بعينيه كأنّه لا يتراقص إلّا ليثير إعجابي لا غير، يسلّي الجميع ويًدخل في قلوبهم البهجة ما دمت بجواره، يأتي بوجهه الحركات المضحكة ويقفز ويفاجئنا بألاعيب جديدة بمعاونة الأقزام وحدب الظهور الموجودين فوق المركب؛ حاشية بعض الأكابر. أدرك الجميع أنّ القرد أبدلني بصاحبه، وأصبحت أنا وليفه الجديد، وكنّا بتنا على مشارف «أبيدوس»، أصرّ صاحب القرد -وكان من بلاد «سورية»- أن يهديه لي امتنانًا على حسن خلقي، لكن ربّ عملي، وهو رجل صارم جلف لا يعرف للود بيننا طريقًا، قال له في حزم:

- إنّه عبد، والعبيد لا يتطاولون على السادة يا مولاي.

نظر لي الرجل ولم يبد أنّه يود أن يرهق نفسه في مجادلة لا طائل منها، أشار لي بيده:

- «هوي».

دنوت منه، قلت في أدب:

- خادمك سيّدي.

ناولني سلسلة القرد ومعه قارورة نبيذ فاخرة، ثم قال:

- هديتي لا ترد، منذ اليوم القرد قردك، وهذه زجاجة نبيذ لا يشربها إلّا الأمراء والملوك.

في غل ابتسم له صاحب العمل وحيّاه كاتمًا غيظه وأخذ يلوّح له بيده وهو يهبط من المركب وحارس يحمل متاعه، ثم التفت لي وقال بصوت آمر مليء بالحقد:

- القرد ملك للسفينة من الآن، إنّه مبلغ لا بأس به من المال، ولا ضير أن تحتفظ بالنبيذ.

تخيّلوا! استلب الرجل هديتي بقلب بارد، لم أشأ أن أزج بنفسي في خصومة حتمًا ستؤثر عليّ بالسلب، فتقطع عنّي خيوط مستقبل عظيم في رحاب النهر، أومأت برأسي وأنا أحقن بداخلي الغضب، وقلت له في صوت مغموس بالكبت:

- أنا نفسي ملك لك يا سيّدي؛ افعل فيّ ما بدا لك.

انطلت عليه مجاملتي المزّيفة، ابتسم مختالاً وهزّ رأسه من دون أن يتفوّه، ومضى عنّي لكنّني تابعته ببصري والحقد يرقد في طيّات روحي نحوه، وددت لو أقفز عليه لأرديه صريعًا.

* * *

قضى أخي وقتذاك ثلاثة أيام في الدار، يخرج إلى القرية في بهجة لم تكن من قبل، يقابل أصحابه القليلين ويظلّ يسامرهم لمشارف الصباح، يحكي لهم عن العالم الذي اندسّ في قلبه غفلة، ولم يكن أحدهم ذا حظ مثله في مراودة ذاك العالم، أمّي نفسها أصابتها نوبة عجيبة من صحّة، لم تنم طيلة الأيام الثلاث، كأنّها

لم تخلق إلّا لرعاية أخي والقعود على خدمته ليل نهار، ذبحت له كلّ أنواع طيور «الكركي» الموجودة في البيت، «الجات» و«الأيوو» و«الجا»، ذبحت حتّى أفراخها الصغيرة «الأوجا»، كلّ ذلك شكرانًا «لآمون» الذي لبّى دعواتها وأفاض على ابنها بالغبطة، قال لها أبي ممازحًا:

- غدًا يرحل «هوي» وتفرغ الدار من لحم الطير الذي كددنا أشهرًا كيما نربّيه.

نظرت له بعتاب، وهمهمت:

- ليكن، من يعرف متى يعود للدار ثانية؟

في صوت خافت تأوّه أبي، كما لو أن الكلمة التي طلعت من أمّي بلا عمد قد نالت من مشاعره التي طالما تباسل من أجل ألا تبين تجاه «هوي» فينفضح، حاول كثيرًا أن يتقمّص رباطة الجأش ورسوخ الأعصاب، غير أنّه يتمزّق في أحشائه منذ أن شرخ أخي في معمعة الحياة بالخارج هناك، خارج سور قريتنا التي أُغلقت على نفسها فانفصلت عن كلّ ما يجري فيما حولها.

كان الوداع تلك المرّة أقسى ألمًا من رحيل طارئ سابق، لا سيّما من أمّي، لعلّ قلب الأم يدري عن أشياء اختصتها بها الآلهة دون غيرها، طال ارتماؤها في حضن «هوي» وكان أبي يبتسم إشفاقًا، قال لها:

- هذا شقيّ ابن شقيّ، أين سيروح من فقر بلادنا؟ سيعود، اطمئني.

كثيرون تجمّعوا لوداع أخي، كأنّه سفير القرية في عالم خارجي، منهم من منّى نفسه بعطية من بلاد الحج، ومنهم

من يأسى للفراق مثل بعض أصدقائه، ومنهم من ينتظر بركة الآلهة التي سيزورها أخي في عادة لم تكن لأحدنا، شهقات أمّي الممزوجة بدموع غزيرة استوقفت «هوي» أكثر من نوبة، وكان يستدير ويلتفت نحوها ثم يعود ليرتمي في صدرها، في النهاية قال بصوت محزون:

- تبكين بدلا من الدعاء! أمّي، ليكن رجاؤك للآلهة في العودة ممتلئ اليدين.

امتدّ بصرها فيما وراء البوابة المفضية نحو العالم هناك يرافق «هوي»، وكان «رع» يغيب ببطء، بكلّ بطء.

* * *

قريتنا محظورة، يقول الفرعون الإله إنّ لعنة «سِت» تسكن قريتنا..

قريتنا محظورة على الجميع إلاّ نحن، نقطنها برضا، يبدأ يومنا في سلام وينتهي في سلام، الملك المبجّل «واح- عنخ- أنتف» يرى شؤمًا كلّما مرّ جوار قريتنا، صنع له نبيّ «آمون» الأول المعظّم طريقًا مقدّسة لا يطرقها سوى موكبه، نافذة جوار قريتنا، طريق حُرّمت على العامة أمثالنا، حجبتها عن الأعين أشجار الزيتون والكروم المتشابكة والزهور اليانعة التي تحفّ جانبيها، لكنّني أحببت كثيرًا أن أروي فضولي، أنسلّ في أوقات الظهيرة التي يشرع فيها «رع» سيوفه علينا، فتكون القرية في قيلولة معتادة، آخذ حمّامًا في طست «شا أوتي»، أدلق الماء من إبريق له صنبور، فيهبط باردًا منعشًا، أتمشّط وأتدلّك بزيوت الأشجار، أتوجّه لخزانة التمائم.

لم يكن لي من حظ في اقتناء أيّ عقد أو أسورة أو حتّى خاتم من تلك التي يصنعها الصاغة، غير هذه التمائم بخسة الثمن، التي تعد لنا أكثر غلوًّا من ذهب المدينة، أخرجها من مخبئها، ألبسها بأكملها، على الرغم من عدم جواز ذلك إلاّ في مناسبات بعينها، إنمّا أتزيّن -دون أن يراني أحد في البيت- وأخرج كي أدوس بقدمي الطريق المقدّسة المحرّمة على العامة.

رغبة محمومة، أعرف، لكن كلّ الرغبات لا بد وراءها من سرّ ما، سرّ لم أقف على هويته بنحو واف، ربما لأنّ كلّ المحرّمات في النهاية مرغوبة، يسوقنا لها الفضول الأعمى، أتساءل: ما معنى العامة؟ وهل تود الآلهة بالفعل فصل الجنس وتمييز البعض عن بعض؟ أخرج، تلهبني سياط «رع»، يدرك أنّني منساقة للخطيئة بعينها، أخشى من عقابه، لكنّني لم أعد أحفل، أكثر من مرّة تلصّصت على تلك الطريق المقدّسة ولم يكن لي عقاب، وددت لو أرى إلهًا يتمثّل في الطريق، كيما أخاطبه وجهًا لوجه، فأشكو له فعل الملك الإله برعيته، خصوصًا نحن، أسرنا داخل قريتنا فلم نعد نرى أحدًا أو يرانا أحد.

لقائي بـ«حنو» جاء مصادفة، هيّأه لي القدر من دون قصد، كنت جالسة على جنب الطريق، أود لو ينبت لي جناحان فأرفرف أستكشف العوالم البعيدة، أستمر أنظر إلى السماء أتابع أسراب الطيور مختلفة الألوان والأشكال وأتأمّلها شبه غائبة، أتمتم للآلهة، أسألها: هل أنتِ منصتة؟

لم تكن قدم في الطريق، ولم أكن لأسمع خطوات الجوّاد القادم ومن خلفه سحابة من غبار، فقط فوجئت به وهو ممسك بسرج الحصان وثابت أمامي يتفرّس فيّ.

انصرفت مختبئة خلف تعريشة من شجر، كان القلق قد عصف بروحي، خشيت أن يكون أحد جنود الملك فيقبض على عاصية مثلي، أخذ بدني ينتفض كعريانة في ليلة شتاء، وأنفاسي بدأت تتبدّد في بطء، لكنّه ترجّل وتعقّبني وسمعت حفيف أوراق الشجر بين أنامله وهو يزيحها ليتمكّن من رؤيتي مليًّا، دنا قائلاً:

- لا تخافي، نحن نرتكب ذات الذنب تقريبًا.

التفتّ نحوه لا أكاد أسيطر على أعصابي، وجدت في ملامحه طمأنينة عذبة، غير أنّها بدت طمأنينة مرعدة على الرغم من ذلك، دنا أكثر، بدا يتملّى فيّ من دون حياء، أبعدت عنه وجهي ثانية والتساؤلات تصطخب، من يكون؟ أهو جنّي من هؤلاء الذين يطوفون في نهار «رع»؟ لكنّه أمامي من لحم ودمّ، أمّا أنّني لم أر إنسيًّا يدك الطريق من ذي قبل غير الملك وموكبه فهو أمر لا يعني عدم تجرّؤ الإنس على الدخول، فأنا فعلت، وقد تساور غيري جرأة الفضول، إنّما هذا لا يشبهنا في شيء، لا في السمت ولا في الهيئة، جنّي إذن، كنت أعرف أنّ مغامرتي لن تسفر إلّا عن مصيبة، هذا ليس واحدًا من العامة، إمّا جنّي وإمّا أحد الأمراء، وفي الحالتين وقعت في المحظور.

في صوت هادئ وديع همس:

- ليس من سبب لذعرك، أريني وجهك.

بدأت في الالتفات مرّة أخرى، وأقسم إنّ شيئًا في عينيه كان يبرق، تمامًا مثل ألماسة بكر، تيقّنت أنّه غير بشري، فركبني الارتعاد أكثر.

- اسمي «حنو»...

لم أكد أبادله الحديث حتّى جفّ في حلقي الكلام، وبدا يتطلّع نحوي بكثير من التركيز كأنّما يستكشف عن تساؤلاتي، وفي لحظة كانت ابتسامة مشرقة تحيي ثغره، وهو يكرّر:

- «حنو».. أنا «حنو».

لا تنتظر الرّد، أفصح أولا عن طبيعتك، أأنت منّا؟

مدّ يده بمصافحة، كانت محاولة مؤدّبة فمددت يدي في حرج، وبدا يجاهد أن يزيل إحساسي المتوجّس حياله، فتنهّد مقبلاً عليّ أكثر، وهو يقول:

- أنا «حنو» ابن القائد «ثثي».. خادم الفرعون المبجّل.

قد عرفت أنّ يومي لن يمرّ في سلام، قد عرفت، واحد من السادة ها هو يُمسكني بجرم مؤكّد.

كاد يُغشى عليّ، وبضع غيمات يملؤها اللون الرمادي استراحت تتراقص أمام بصري، قلت لنفسي: تفضّلي جزاء تهوّركِ.

كان المدى قد تحجّر في مشهد قاس، والتفاصيل شرعت في الانكباب على صدري ترشقني كالسهام، وكان صوته يتلقّف وعيي كما لو أنّه من بعيد:

- قلت لكِ لا تخافي، نحن شركاء في ذنب واحد.

عمّ تتحدث؟ هل أنت جادّ؟ أيّ ذنب نتشاركه؟ ليس بعد الفضول ذنب.

- ليت كلّ نساء المقاطعة جميلات مثل جمالك!

مغازلة صريحة، هل هي ثمن عفوك عنّي أيّها السيّد؟

تلقّف يدي، أراحني على مقعد من خشب «بلّوط» تحت أحد الأشجار، وجلس جواري، أكمل يقول:

- هل تعيشين هنا؟

استدرت نحوه ببصري، كدت أقول: أنت إمّا مجنون وإمّا لئيم، لكنّني أجبته بصوت خفيض:

- نعم، إنّها قريتي تلك التي تتوارى خلف الطريق.

- لا شيء أحلى من صدفة عابرة.

ونهض، توجّه لحصانه ورأسه لم تزل متّجهة صوبي، قال مبتسمًا:

- ما اسمك؟

قلت في نبرة مقتضبة متحشرجة:

- «سنت».

أطال لي النظر قليلا، ثم استطرد:

- اسمحي لي بزيارة أخرى إذن عمّا قريب.

وقبل أن يسمع ردّي، امتطى جوّاده ومضى.

بوّابة معاناة

ألا ينبغي على التفاصيل المعتمة أن تبدو متفائلة قليلاً ما دام نور الصباح يأبى المثول؟ وعلى الليل الذي يبدو ألاّ آخر له أن يكون أليفًا ولو لليلة في معاناتي، وإلاّ أجهزت عليّ الذكريات ونالت من تماسكي.

يتّجه المصلّون بعد صلاة الفجر كلّ إلى مضجعه، وأبقى أنا في ظلمة الشارع كاستطراد معنوي لألم قديم، تستحضر صفحة البحيرة مشاهد من ذكريات حاولت طيّها قبلاً، إنّما يبدو أنّ الفشل رفيق يصعب صرفه، وها هو نفس الصوت يعلو بداخلي:

- بانت على جسدي المعالم.

كانت قلّة الحيلة وضباب التخوّف قد تمكّنا من اتّزاني، لم أعرف كيف أجيبها، تركت عينيّ تقومان بدور الهروب الكافي لخلق نظرة الفزع في عينيها، راحت تهمهم:

- ماذا أفعل؟ ما زلت أحبّك.

كدت أسألها: وما الفارق؟ أنتِ تحبينني الآن مجبرة، ولو كان لك اختيار لاتّخذتِ التجاهل ملاذًا مثل حالي تمامًا، لكنّني لذت بالصمت، منذ رأيتها ذاك اليوم وأنا على يقين من أنّ خطبًا سوف يحدث قد يفزع المدينة بأسرها، غير أنّي لم أقف على أيّ تفسير منصف، اعتراني تخوّف وأنا أراها تشرد كثيرًا، ثم يمتقع وجهها أحيانًا، ثم تضحك بهستيريا، ثم تبكي في حرقة، لم تدع لي

مجالاً للتفكير الحيادي، بدت مثل مخبولة لن تكف عن اللوم الملحّ، وهي تبدأ حوارًا، ثم تنهيه قبل أن تُكمله، ثم تصمت تمامًا، حين يبدو عليّ أنّني لا أرغب في سماع كلمة ممّا تقول.

كانت شمس النهار قد صبغت فضاء الغرفة المطلّة على الشارع بلون ذهبي رقراق، فاستغرقت في متابعة تلك الالتماعات التي تبدو من عينيها، التفتت نحوي وأخذت لبعض الوقت تتأمّل في صمت أشعة الشمس الرجراجة فوق نتوءات مقاعد الأنتريه ثم قالت:

- نفس الشمس، ونفس الدفء، طبيعة لا تنبثق عن جديد، لا يتغيّر غير القلوب.

لم أكن في حاجة لتذكيري بما جرى، وتأنيبي بهذا الشكل، والتوسّل، والاستعطاف، وغير ذلك من الأمور التي قد تصل بي إلى الصراخ في وجهها: كم سئمت!

لكن الإحباط يملأ عينيها، يجعلها تبدو أمامي مهزومة وتجعلني أبدو في أسوأ التصوّرات أمام نفسي، وهل بيدي حيلة؟ تناقشنا من ذي قبل عن خطأ غير مقصود قلب الدنيا من حولنا، وعدتها بالزواج، نعم، غير أنّ الزواج نفسه كفعل حياتي في تلك الظروف، وبتلك الكيفية، سوف يكون خطأ أكبر.

أخذت أتمعّن في النظر إليها وقلبي يود لو يشاطرها السلوان، لكن يكفي أن يشاطرها الإحباط عينه.

ما زلت تحبينني، ولم أزل، لكن من أيّة ثنية من ثنايا المجهول المخيف خرجتِ لي يا «أميرة»؟ فاتنة، مثل جملة غزلية ابتدعها شاعر مجنون، أنعشت روحي بعد أن كادت تنزوي من ملل لا

نهائي، الحب يا ملكتي يشبه السلالم، نصعدها سلمة سلمة، ثم نهدأ، ثم نصعد، من دون اضطراب أو تسرّع، ولغاية آخر سلمة، إنّما العجل وخيم العواقب، صدقيني، لا أنا ولا أنتِ قادران على تحمّلها، المضحك أنّني مشفق عليك وعلى نفسي، وفي الواقع أبحث عن حلّ بكلّ تفكيري، وأنتِ لا ترغبين في اقتراح أيّة حلول غير الزواج، اقترحي، سهّلي لي المهمة. مساكين نحن الرجال، هل تعرفين أنّ نوايانا في الغالب حسنة؟ المشكلة في التوقيت، دائمًا في التوقيت، ولا أجد أنّني أستحق كلّ هذه الدموع؟ أم أنّ الآخر الذي يلهو في أحشائك هو السبب الأوحد؟

تبتلع ريقها، أشعر أنّ حلقها يجف باستمرار، فتتناول كوب الماء كلّ عدّة دقائق، بحذر أحاول الاقتراب من يدها، في نعومة وفي مواساة ضمنية أدسّها بين أصابعي، تستسلم في صمت، لعلّها تخشى ضياع فرصة من الود -ولو أخيرة- تيسّر الاستمالة وكسب التعاطف الصادق، أضغط بأناملي على يدها، باردة برودة قطعة ثلج صمّاء، في رأسها تدور تساؤلات، وفي رأسي، ماذا لو نهرب؟ لو نترك كلّ هذا العالم وننجو ببراءة مشاعرنا، كلّا، مشاعرك أنتِ من عليها أن تنجو في الحقيقة، أمّا مشاعري فلا أظنّها بريئة كفاية لحدّ النجاة، إنّ حلمك يا حبيبتي مكان قصيّ ليس يعيش فيه سواكِ، أمّا حلمي أنا فتلك الأرض، بمن فيها ومن عليها.

تنكفئ بوجهها على ظهر كفّي وتقبّلها في رجاء، تغرقني دموعها، أحسّ كأنّ شظايا من حمم تأكل يدي، كما لو تريد إخباري بأنّها ليست فرجًا أولغت فيه فحسب، بل هي معين لراحة ألفت بين قلبينا. في سرعة أشدّ يدي.

أنظر لصفحة البحيرة، أتناول بضع قطرات، ترتبك صفحة

الماء ولا يرتبك وجه «أميرة» المرتسم، أكاد أُغرق نفسي عمدًا، وقطرات الماء المالحة تذكّرني بدموعها، أين أهرب من الذكرى إذن؟ ينفرج فمها المرسوم أمامي في البحيرة وهي تغمغم في صوت مخنوق:

- ما الذي يحدث؟ وكيف حدث ما حدث؟ ولماذا أنت؟

ثم يتحشرج صوتها فلا تكمل، تضرب أشعة الشمس عينيّ، فأشعر بدوار مؤقت، كأنّ صهد الدنيا قد سكن رأسي، تنكفئ على يدي ثانية، عقب نظرة عميقة فيها دلالة مخيفة، هل تكرهني الآن؟ حتمًا، هذه النظرة بالذات لا تخرج من قلب محب، ليست استجداء ولا رجاء، هي نظرة كراهية، واضحة وصريحة ولا تتطلّب أيّ تأويل آخر، كراهية بحق، ومن قلب أفجعه اليأس.

جالت بذهني تساؤلات أمرّ دلالة، ماذا تنتظرين منّي؟ هل أدركتِ الآن أنّ الحبّ شيء والحفاظ عليه شيء آخر بعيد تمامًا؟ دعينا ننصرف إذن إلى فكرة مخيفة حقًّا لكنّها مناسبة تمامًا لمثل حالتنا، آه لماذا يطرأ ذلك الخاطر السخيف؟ إنّما ليكن، دعيني أسألك إذا فعلاً خُيّرتِ أن يموت أحدنا فمن سيكون اختيارك؟ هو؟ أنا؟ أحدنا يموت، هكذا ببساطة، بسهولة، بدون أيّة مشاعر من تلك التي تحملينها لكلينا، عليكِ أن تُعملي عقلك لثوان فقط، ولنر، من ستختارين؟ ابتسامتي العاشقة أم ركله لجدار بطنك؟ من؟ أنا بكامل مشاعري وحبّي وعشرتي التي لا أظنّها تهون، أم الدمّ الذي يربط كليكما بالآخر؟ هه، أجيبيني، لو لم أكن أنا سيكون هو، ولو لم يكن هو سيكون الحبّ الذي لن يفتر أبدًا، هه، لنتّفق.

بتلميح ماجن خبيث أطرف بعيني ناحيتها والفكرة اللئيمة تناهز الاكتمال داخل عقلي: ليكن هو، هه!

بردّية «واح- عنخ- أنتف» الثانية

الرموز الدنيوية تحلّلها نشوة الجسد فتصبح هباءً لا يعكّر صفوًا، ألوذ بجسدي ممّا تحفل به مجاهل الحكم لراحة النفس المرجوة، ذلك الجسد الذي ينفذ إلى ضمور، وهذا العبد الأخرس تخيّرته دون العبيد كلّهم ليطفئ اشتعال الشهوة المنغّص، يشاركني الفراش، ويشاركني حلاوة المتعة، أتحرّر من سائر المفاهيم المعقّدة التي تسطو على هيئة الفرعون وأنا معه نتبادل القبلات، نحتسي النبيذ، أو نتوحّد لنصبح جسدًا بروحين مؤتلفتين، نصير وجبة دسمة من سعادة، نجرع رشفات اللذّة بغير احتساب، تخيّرته أخرس لكي لا تكون لديّ حاجة للتشكّك، قضيت على ثلاثة أو أربعة قبله نتيجة ذاك التشكّك، أتقافز أمامه من فرط الامتلاء أحيانًا وبلا تحفّظ، وحين يتلاطم جسدانا في شهوة وفي جذل أجد أنّني وهبت له وقاري بكثير من طمأنينة، تغيض في مرمى المجون كلّ أوجاع العرش، لا أكفّ عن اللهو، لا أقيّد غبطة روحي قط، أتركنا نرتشف الارتواء من دون رقيب، أترك الفرعون المعقّد خارج سياج الغرفة حين نغرق في صمت التجلّي، أداعبه أحيانًا، أداعب وجهه الغليظ وملامحه الجهمة، العبد يعرف أنّ الطاعة وجوب، وهو يعرف أنّ اللذّة وجوب أشدّ، فيعطيني إيّاها على مهل وبروية ومن غير أنانية، لا يقتصد إطلاقًاً في رفعي نحو السماء البعيدة، أسافر ويسافر جسدي

معي، أسافر أعلى من عروش الآلهة، فأنا الإله الذي تيسّر له سبيل الاكتفاء من دونهم، أقول له: أنت لي، وحدي، يا لك من فحل! فيبتسم برضا، أشعر بأنّ كفايته أن أنعم عليه بالرضا، وأجزل له عطاء الهبات.

يزوم فوقي كعجل برّي، فأتأوّه كلعوب منتشية، أزيح أسمال العبء الملكي عن كاهلي المثقل وأكون له طيّعًا كحمامة وديعة، فيقلّبني كيفما يروم، يجيء من فوقي مثل رمح مفاجئ أو من تحتي كسهم منطلق، يفطن بحاسة الاستمتاع لمزايا جسدي فيُغرق في شي أعصابي على نار هادئة، أهتف مسحورًا من وقع اللذّة: «أنا الملك الصالح الذي شيّد لكلّ المعبودات معابدهم، ونحت لهم تماثيلهم، وجب لي بعض التسرية من لؤم العرش».

تمتّع يا أليفي بجسم ملكي مستلّ من منافذ النعيم وبروح مراهقة صبيّة، اربض فوقي، سأرفع ساقيّ واحتلّ فراغهما، ها هي الرغبة المحتدمة تزفر في أنين، استلق عليّ كغطاء يدفئ الأحاسيس جميعها، ما تصاعد منها وما خار، تداخل فيّ كي أكون عاجزًا ومبهوتًا فلا أسمع العالم، وهل لي حاجة لسماع العالم؟ يكفي سماع الأصوات التي تتهادى حولنا بتلقائية، كيف استطعت أن تحتويني هكذا؟ آه لا أتصوّر مثل هذه اللذّة، كيف تسنّى لك أن تأخذني بتلك السرعة؟ وسط جلاميد ذلك العالم العنين، أشبعني، فإنّ المتعة والألم لهما ذات المذاق في لحظة السمو، ادهسني، كن نبضي الملائم، كي أنبعث مجدّدًا من وهن النهاية للحظة تكوين جديدة، انطلق، دع قواك الجامحة تمرح في أحشائي، ولن أوقفك أبدًا، سأدمدم في اشتياق، قد أعاني، قد أغيب عن المادية، قد أصرخ في وجهك: من أيّ غواية جئت؟

مزّق ما شئت من حوافيّ، لست ملكًا ولا فرعونًا، فأنا المبتهج الأول في تلك الحياة، أنا الطائع مسلوب القوى مشجوب الهوية.

تشرئب أعناق الطيور من كبد السماء تتلصّص على غرفتي المسكونة بنشيج الغواية، تحوم رياح الكون حول نافذتي، يضوّي «رع» في فم السماء كسنّ ذهبية في فم صبي لم يولد إلّا في هذه اللحظة.

أستفيق ولا أفيق، أصوات قادمة من عالم آخر بعيد، ربما العالم خارج غرفتي، يحيط بي ضيق الدنيا عند أن يفزع الأخرس من فوقي فيرتخي في لحظة الوجل، أزيحه من عليّ وكلّي كبت، أحاول عبثًا مقاومة التبدّل الطارئ، غير أنّ اللغط الذي يعترك في قوام الحياة بالخارج يرغمني على المثول لنفس فزع الأخرس، لم يكن ليجرؤ رجل على طرق باب الغرفة وإلّا طارت رأسه، لكن الطرق لم يكن عاجلاً فحسب، بل غاضبًا مذعورًا وبيد معتاد، على عجل ألقيت نفسي في رداء من حرير وجلست على مقعد بجوار السرير في عدم ارتياح وفتح الأخرس الباب.

كان ولدي «نب- أنتف» واقفًا على عتبته ووجهه يربد بآيات الاكفهرار، في حدّة هتف:

- اقرأ يا معظّم، اقرأ، طير زاجل رمى البرديّة في قلب الحديقة.

ما الخطب الذي يستحق إقلاقي بهذا الشكل؟ أخذت مرتعشًا أفضّ الرسالة، كانت تحمل كلمة واحدة سهمية التأثير: «فاسدون».

ارتدّ وجهي للوراء في عجب وغضب وفزع وفي عدم تصديق، ما هذا؟ لم أكن أتوقع، لا يوجد نفر على الأرض قد ينكر ما

وهبته لتلك البلاد، لقد ملأت مخازن الحبوب بالوفير من الشعير والغلال والقمح، شيّدت للرعية القصور والهياكل والمدن والقرى والمعابد ونقشت اسم «طيبة» في السماء إلى الأبد.

يا لوعتي! أنا واهب البهجة سمير الآلهة، ابنها وصنيعة ذراعيها، أقاموني ملكًا له الحياة والصحّة والقوّة على كلّ الأرض، ولأجلي أعملوا الكمال على الأرض، إنّي أؤدي وظيفتي الموكلة لي من السماء في سلام ولا يألو قلبي جهدًا في البحث عن كلّ ما هو نافع وضروري لصالح شعبي، أنا.. يسبّني أحد عبيدي! يا للعبث! أيّ جرم يُرتكب؟ لقد عممت الرخاء في أرجاء البلاد التي كانت خربة من قبل عهدي، دوّنت النقوش الخالدة، زرعت الأراضي بمقتضى قراراتي السامية، وضاعفت أعداد قطعان الماشية والمراكب والصنادل، قدّمت كلّ القرابين للآلهة من دون نقصان أو تقاعس، صُغت الذهب والفضة واللازورد والفيروز في بيوت النفائس، راجعت الكنوز وأكملت ما نقص منها بمجهودي وحكمتي، ولو كان كلّ ذلك حتّى ليس هو التقرّب الحقيقي للرعية، فأيّ عبث!

كنت أتساءل: كيف أحاول التنصّل من رؤية الحقيقة؟ لكن الفرعون العنيد مضى يزوم في أحشائي ويوسوس، فصحت وغلّ الدنيا يغمر كلّ أطرافي:

- ائتوني بهؤلاء قبل أن يجف عرق غضبي.

المؤامرة

برديّة «ثتي» الثانية

يا له من عقاب!

ما الذي بدّل حال مولاي المبجّل ناحيتي؟ لعلّي أغفلت وتركت رأسه لغيري، انصرفت عنه لهمّي الشخصي، واستثمر أحدهم نأيي عن مولاي تلك الأيام الأخيرة واجتثّ من داخله محبّتي، وسوسة شيطانية تلك، ترى من اشتغل في عقل سيّدي عظيم الشأن وقلب الموازين تجاهي؟

إنّما هل من المعقول أن يولد الجفاء بين عشية وضحاها؟ لا أذكر أنّ مولاي قد أوحى -لا من قريب ولا من بعيد- بمشاعر من مثل ذلك الصنف قبل ذلك الأوان، دائمًا ما كان يوليني الرعاية والاهتمام والود، لكنّها غلطتي أنا في الأصل، سمحت لغيري بأن يؤلبه عليّ، هل كنت من الغباء كيما أثق في كفاءتي ومكانتي وموضعي بقلب مولاي لهذه الدرجة؟

كانت الشمس لم تزل تنفض عن عينيها النعاس عندما قدم إلى قصري في مقاطعة «الكرنك» رسول سيّدي المنزّه، وفي يده برديّة، انحنى بتوقير وهو يسلّمها لي، ولو فضّ ما فيها لما انحنى من الأساس ولاكتفى بنظرة متشفّية، هكذا شعرت وأنا أفرد البردية المطوية وألتهم بعينيّ ما خطّ داخلها:

«العزيز رفيع الشأن: ثتي...

نظرًا لما تمر به البلاد من وعكة في الزاد وفي مؤن الجيش،

ونظرًا لمتابعة مرؤوسيك أمور وظيفتك في الدولة، فقد أسندنا لك -وبشكل مؤقّت- الإشراف على بعثة البحث عن الجرانيت الأحمر في مقاطعة «الفنتين» لما يتوفّر لديك من إخلاص ومن وفاء، بهذا يمكن لخزينة الدولة أن تتّسع للمزيد من المال بفضل الجرانيت الأحمر الباهظ، وسوف تعود إلى منصبك عند انتهاء البعثة».

انتهاء البعثة! قد تنتهي بعد أعوام، ثم أيّ خزينة تلك التي تحتاج مددًا! ليس أعمر من خزينة دولتنا، إنّ فرعون البلاد ينفيني باحترام مبقيًا على بعض الود الموصول، يتحرّج من التصريح بأنّني لم يعد لي مكان في منظومة الدولة، مجرّد مشرف أنفار في «الفنتين»، يا لها من حطّة! بأيّ قلب هنت على سيّدي؟ وكيف لم أستشرف نهايتي؟ هل طاب لي المقام لدرجة الغفلة؟ وسرقني الزهو حتّى زلّت قدماي وسقطت متهشّمًا تحت عرش لا يعرف الرحمة؟

لوّحت بيدي فانصرف الرسول، غصّة في حلقي تمنعني من استكمال كوب الجعة الباردة، كيف يكون الحلّ؟ هل تكفي زيارة لقصر سيّدي عظيم الشأن؟ غير أنّي هكذا أعترض بشكل سافر على قرارات الفرعون المبجّل.

كان مجرّد التفكير دافعًا كافيًا لإتمام الأمر ولو باعتناق المخاطرة، ومن دون موكب كاف خرجت والأرض ترتجّ تحت سير الخيل، لماذا يا مولاي؟ لقد بجّلتك وخدمتك طائعًا لسنوات، كنت سرّك وكنت أمينك الأوحد، كيف تهيّأ لي أنّني أعرفك تمام المعرفة وفي حقيقة الأمر لا أعرف عن طباعك ولا عن نواياك شيئًا؟ كلّ ما بيننا يُختزل في رسالة مقتضبة مهينة بهذا الشكل،

آه، يجيء التفرّد في المقام بغير احتساب، ويزول بلا احتساب كذلك.

روائح الأشجار تستقبلني وهي تُثقل على أنفاسي، يتقدّمني حرس الملك، ينفتح باب الردهة والملك جالس ومن حوله يجلسن أرضًا بضع جاريات يروّحن عن نفسه بالتهوية بريش نعام، عن يمينه يجلس ولي العهد «نب- تب- نفر- أنتف» يحتسي كوبًا من نبيذ أبيض، وعن شماله مقعد شاغر، ابتسم ابتسامة موحية عند رؤيتي، تسحّبت نحوه على قدمين مرتعشتين منحنيًا، أومأ برأسه أن أجلس عن شماله فجلست.

تنهّد وهو ينهض عن كرسيه المذهّب، أخذ يطوف في الردهة ببطء، عاد ببصره ناحيتي وقال:

- آه يا عزيزي، كلّما امتحنت بني الإنسان زاد حبّي لكلبي.

تلميح لا يحتاج أيّ إيضاح يا مولاي، أكمل، ماذا فعلت لأستحق مثل هذا التوصيف؟

أضاف في نبرة اعتذار:

- عذرًا يا «ثثي»، لكن نفسي تمور من شدّة الاضطراب، وأنت تعرف قدرك عندي.

- أعرف يا مولاي، فقط زدني معرفة بما تعتمل به روحك الشفيفة يا سيّدي وقد أهدئ نفسك بنصيحتي المتواضعة.

في سخرية بدرت من «نخت- نب» ضحكة، التفت نحوي الملك وحدجني بنظرة لوم فارتعدت، شعرت بأنّي تجاوزت الحدّ، ولم أشعر مع مولاي بأيّ شعور من هذا القبيل في السابق،

لكنه سرعان ما فكّ انعقاد حاجبيه واستطرد:

- أعرف أنّك حسن النيّة في القول، وفي الفعل أيضًا.

- هكذا تربيّت في كنفك يا مولاي المبجّل.

في همهمة خافتة قال وهو يدنو من عرشه ثانية ويرتقيه:

- وردتني أنباء لا تسرّ يا «ثثي».

- خيرًا يا سيّدي.

- خزانة المال...

ثم استدار تجاهي بكامل رأسه وسكت، أيّ اتّهام ذاك يا سيّدي؟ لابد من أن تلك الحجّة مفتعلة لاستبعادي من منصبي.

- أعرف ما يدور بداخلك، لا أتّهمك بالتحديد، لكنّك مسؤول عن فقدان بعض المال، لُهيت في أمورك الخاصة وتركت إدارة الزمام لبعض الحمقى.

- وكيف لي أن أدرك ما يجري من وراء ظهري يا سيّدي؟

بصوت هازئ قال «نخت- نب»:

- ومن يدرك إذن؟

رماه الملك بنظرة ناهرة ثم قال في أسى:

- لقد قدّمت للغرقى سفينة، وللعطشان ماءً، وللجوعان طعامًا، أرحت الشعب كي أستريح، وفي يقيني أنّ المصري أكثر بني الأرض حبًّا لوطنه، إنّما في واقع الأمر ثمّة زمرة تقوم بحركة مريبة في المقاطعة..

ثم تنهّد في عمق وأضاف بنبرة أسى:

- تفضّل اقرأ.

وألقى نحوي ببردية تناولتها من فوق البساط ومضيت أقرأ، كانت تحمل كلمة واحدة، مفجعة: (فاسدون).

في مرارة قال سيّدي:

- أمامك شهر، اعرف هؤلاء، وإلّا حاسبتك أنت.

وأولاني وجهه حسيرًا، ثم أشار بيده في حزم داعيًا إيّاي للانصراف، تقهقرت للوراء ورأسي تشرع في سخونة مباغتة، وأخذت أسأل نفسي: هل تهاونت فأفرطت لدرجة أن يتّهم واحد من الرعية فرعون البلاد الأعظم بالفساد؟

بوّابة تشظّي

«أعطني حريتي أطلق يديّ»

دندني يا ست، دندني وبدّدي كربي قليلاً.

تدور أكواب البيرة وكؤوس الويسكي بين الترابيزات، وثلاث زجاجات يقبعن أمامي، «الترس» يحملق فيّ مندهشًا، وأنا أهزّ رأسي منتشيًا مع النغم، أتناول حبّات «الترمس» ثم أبصق القشر من فمي شارعًا في خلق فوضى فوق الترابيزة.

كنت أجلس وحدي، أتمايل بجسمي في أناة، وأرمي «الترس» برسالة من عيني: اكتسبت زبونًا جديدًا. قلت لنفسي: والله لو دخل «عيط الله» هذا المكان لانسجم مع عبق السكارى.

تدخل روحي حيّز السلوان وسريعًا ما تخرج، ترى عيناي أشياءً ولا تفسّرها، وتحوم بداخلي تفسيرات غير مرئية عبثية المعنى، حين يختلط حدّ الحلم بحدّ الواقع، إذ تنشق الأرض في منتصف بار «الترس» عن الملعونة، التي سحبت أبي معها تحت الأرض وتسبّبت بلوعة أمّي، أخذت أتابعها وهي تتلوّى مثل أفعوانة، تنشد تكملة مشوار الأب مع خلفه، تنشع عيناها النار، والأغبياء الجالسون لا ينتبهون.

مضى ريقي يجف، بيد منتفضة سندت كوب البيرة قبالتي، وخفت أن أتحرّك، كانت «الرقّاصة» لم تزل في مجون تُشعل حمم الماضي في أعماقي، كثيرًا ما وددت أن أعاين هيئة من

خرّبت حياتنا بأسرها، لكنّني لم أكن على يقين من أنّها مخيفة هكذا، مخبولة في رقصها، جميلة لحدّ الإبهار، باردة لحدّ الإحساس بقشعريرة البدن.

ركّزت نظراتها تجاهي تحديدًا دون الآخرين فذُعرت أكثر، إن كان سمح أبي بالعبث معه فلن أسمح، للتو نجوت من «عيط الله»، وكلّكم أغلب الظنّ متشابهون، لا فرق بين جنّية ومارد، فاتركيني وانصرفي.

راحت -وبشكل أكثر وضوحًا- تدنو بنظراتها، حاولت تفاديها مرّة تلو أخرى، عبثًا، بلا جدوى كنت أهرب من سيطرتها وكانت تقتحمني، تمامًا كشرارة كهربائية، وثمّة سرّ يلوح في الأجواء، سرّ مراودة منذ زمن كانت، سرّ لا يعرفه إلّا ذووه، هي وأبي والعليم ببواطن الأمور.

ابتعدي، أنتِ لست لأحد إلّا الغواية الماكرة. الشرر، خطّ من لهيب يصل بين عيوننا، عيناي لا تقويان، وعيناها سافرتان، لئيمتان، بيني وبينها مسافة زفرة نفس، وبينها وبين امتلاكي أقلّ من لحظة تفكير. نظرات عميقة، جذبتني كمغناطيس من قاع الانبساط لذروة يقظة مشوبة بالانفعال، لا شيء يمكنه تنبيهي إلّا استغاثة بوجوه الخلق المتناثرين من حولي، أنتم، أيّها الأشقياء، أغيثوني، غير أنّي كلّما استغثت بوجوههم ألفيت ذات التعبير المتراكم منذ بعيد، تعبير اللامبالاة والحقد والتجبّر، وها هي الإغاثة تجيء في هيئة المسكينة أمّي التي تظهر روحها بيننا كسحابة من طمأنينة، ولا أطمئن، انتبهت هذه المرّة على إحساس آخر مروّع، مفزوع، كنت أمام «الرقّاصة» مثل غريق، كنت أمام شيء خرافي من ذعر.

أمّي، حلّت من السماء البعيدة لتطوف فيما بيننا وتجاهد انفصالي عن لحظة التبدّد في عالم من خيال ومن ألم، والوجوه جميعها تلفّ في دوامة الماضي، فأخذت أتساءل أكثر: يا من تحتسون آلام الآخرين بغير تأنيب، ما الذي أقامته أمّي في حقّكم فذرفتموها كدمع فاسد استقر في مآقيكم، جعلتموني أترعرع وأنا أحمل بداخلي سخطًا لا حدود له، كنت أعطف على أمّي التي تحوم بينكم الآن وأصدّق حكايتها، أمي التي تركت كلّ مكونات الطبيعة القاسية تربيني معها، ثم هل كان لها مكان آخر تلجأ إليه غير الجبل؟ فلا أطهر إذن من أم تحمّلت وعرة هذا الجبل كي تربّي ابنها! ولا أسفه من بشر لم يفترضوا فيها أيّ شرف، ولو بمجاز الشفقة!

أيّ حكاية توازي بؤس ما تحمله حكايتنا؟

غادرت بي أمّي مدينتكم الملعونة وهي تحملني فوق كتفها، تهرول بعيدًا عنكم، ومشاعلكم الكثيرة تتبعها تبغي طردها، تتدثّر عن أعينكم بستائر الظلام، تزوغ مقهورة نحو الجبل، وتقطنه، زرفتموها من بينكم لمجرّد وهم اختلقتموه لا غير ومن دون رفق، لم تفكّروا حتى في تحليل المسألة، لم تفكّروا من فيكم كان هذا الآخر الذي وطأها مكان أبي؟ أبي الذي خرج حين عرف بحملها، وهام على وجهه في المدينة من أولها لآخرها يصرخ:

- أنا عاجز، عاجز يا بشر، من أين كبرت بطنها؟

ألا تعرف يا أبي؟ ألا تعرف أنّك كنت غائبًا في ملكوت بعيد؟ فمن أين لك بمثل ذلك التوكيد على العجز التام؟ ما سمعته يا أبي لم يكن نصف إشاعات ولا نصف تخاريف، لم يكن استنكارات

فحسب، ولم يكن اتّهامات عبثية، بل سمعته كحقيقة لا يفترض التشكيك فيها تحت أيّ ظرف، ولا بمسمّى آخر سوى الجريمة، من أجرم بالله عليك يا أبي؟ أمّي، أنت، الرجال الأفّاقون، النساء المراوغات، «الرقّاصة»، شيخ البلد، أنا، هه.

«الرقّاصة» ممتدّة بطولها لأعلى مثل شجرة فارعة من لهيب، شاهقة البياض، لا شيء عليها يُخفي حسنها الممجوج غير رداء شفّاف لا حول له، أول مرّة في حياتي البائسة أرى -بغتة- هذا الكمّ الهائل من الرعب، أفقت بها وعليها، وجدت نفسي غير قادر على الحراك، اندفعت ألهث كجرو مذعور، وقعت في شرك الماضي بغير حيلة، جئت هنا للفكاك من الشيطان، وإذا بالشيطان متمثّل في صورة فتنة طاغية بشعة لأقصى ما تكون البشاعة، لكن هذه المرّة لن أهرب.

وقفت، نهضت لاهثًا مرتعدًا مشوبًا باليأس، مكبّلا بحيرة الماضي المكين، أخائف أنا؟ لست خائفًا، لن أهرب، سأضاعف الغضب في عروقي وأظفر بأيّ تنفيس عنه، الآن ليس من عذر أيّها الشيطان، كانت تعرف أين أنا وجاءت، بمحض إرادتها، لتنال بعض العقاب، لم تكن تعلم يا «عبيد» من قبل أنّ لك شجاعة في نول مرادك، مع أنّك لا يحلو لك التذكّر إلاّ محاطًا بالخزي، وإلاّ على هيئة جبان، وإلاّ في أكثر الأماكن بعدًا عن الناس، فوق جبل ناء ومع رجل قليل الحيلة غامض الحكمة، وفي عتمة ليل دائم، وأنّك هذه الساعة تعود إلى نفس النكتة القديمة، بمآسيها وفواجعها، نكتة الانتقام العبثي.

هذه المرّة اشتدّت إرادتي، انقضضت على «الرقّاصة» مثل صقر ينبش عن فريسة، لا لتصل إلى السماء، ولا لتعود على

أسفل الأرض، لكن لتتهاوى بشكل أخير ونهائي كخرقة عديمة الجدوى، تتهاوى على الأرض أمامي، وعلى الأرض أمام الجميع تموت.

السواعد من حولي تكلبش في جسدي، نعم أنا أعرف، نجحت أخيرًا في أن أصبح رجلاً، كأنّي خلقت وحدي لهذا الدور، كان لابد من أن أُمتحَن، أعرف أنّي لو صحيح نجحت، فسأعرف أنّي أخيرًا بالقبول بينكم جدير، وسأجعلكم تهنئونني وتستجدونني غفران الماضي.

السواعد تتمكّن منّي، وفي هلع يصيح «الترس»:

- هل جننت يا أخرق؟ هل اشتغلت البيرة في رأسك لهذا الحدّ؟ البنت كادت تموت في يدك يا جحش.

برديّة «حنو» الثانية

«أبشر يا والدي، دخلنا «أسيوط»، كانت بلدة قاحلة، تحوّطها سلاسل متقاربة من الجبال غامقة اللون، يضيق بين سهولها النيل كجسد محشور، وتفترش حوافه أعواد البوص الجافّة المتشقّقة الذاخرة بارتخاء من شدّة الضعف لا يمكّنها من الانتصاب بشكل طبيعي، يكسو سماءها لون ترابي بدا كرماد حرائق الحروب، في الأفق لم تكن هناك طيور، ولم يكن في المدينة مكان لتفاؤل، يهفّ على وجوهنا الهواء رطبًا واهنًا، تساءلت في نفسي: ما الذي اقترفته في شأن «أسيوط» أيّها البائس «خيتي»؟ كيف تركتها لمثل هذا القحط الذي ترك آثاره فوق السحن وعلى أجسام أهلها؟

شعرت بالشفقة، وبرغبة في الفتك بـ«خيتي» على الفور، وأنا أرى بعض سكّانها وهم راقدون في الشوارع والدروب بقلة حيل من شدّة الكفاف، يفترشون التراب في انتظار أن نمّن عليهم بالطعام والشراب، لا يقوون على رفع أياديهم أو فتح أفواههم طلبًا للمعونة، إنّما أعينهم راحت تومض بالفرحة وجنود الجنوب يهلّون عليهم ظافرين محمّلين بالإعانة وبالفتات الذي قد يقيم الأود، آثر قائدنا أن يشاركونا بعض الطعام والشراب، والملبس حتّى، قال لي حين سألته عن مغزى حكمته من ذلك:

- نحن أهل فضل أكثر من «خيتي» الذي تركهم لمثل هذه الحال ورحل، وعلينا مع ذلك تقدير الاحتمالات بفراسة وفطنة،

من يدري ربما احتجنا هؤلاء!

كان «خيتي» قد ارتحل بأسطوله نحو الشمال، صعد في النهر إلى «هراكليوبوليس» لا يأبه ببقية جنوده أو ببلدته، لعلّه شعر أنّنا طوفان لن يعرف للهوادة طريقًا، وهو جبان في الأساس، فتوخّى السلامة وهرب، استطاع بحيلة لا نعلمها أن ينجو من جند «كاي»، ويجوز أنّه أبرم صفقة من نوع ما ليتمكّن من المرور، لا أستبعد ذلك عن «كاي»، إذ ربما افتدى «خيتي» نفسه ببعض العطايا والجنود والنفائس، فالغنيمة لـ»كاي» وقت الحرب تعويضًا معقولاً.

استقبلنا بعض علية القوم في «أسيوط»، كانوا يتأمّلون عدد الجنود وقوة أجسامنا في استغراب، قبعنا في «أسيوط» مسافة العشرة أيام، كان أهلوها قد راحوا يقابلون معروف القائد -الذي طمأنهم ألّا مساس بمدنيّ داخل المدينة- بتقديم النساء والمرح للجنود، بعد أن سرى فيهم مفعول الطعام والشراب الذي غنمناه من طول مسير الجيش بين القرى الموالية لـ»خيتي»، وراحوا ينهلون منه كعطية غير متوقعة، وكأنّهم لم يمسّوا طعامًا أو شرابًا قط، فتحوا لنا الحانات التي عمرناها بما تأتّى من خمر جلبته فرقة «المؤن» معها من «طيبة».

في اليوم الأول واجهت عقبة قدّر لي تجاوزها، كنت جالسًا وكانت إحداهن تغازلني، حولي كؤوس النبيذ والجعة ورأسي مثقلة من شدّة الانتشاء، وفي نفسي تسكن «سنت» وتمثّل عائقًا عن الانخراط في لذّة الليلة المكلّلة بالنجاح، جلست الفتاة جواري، أخذت تمسّد شعري بأناملها فركبني الارتعاش، كان جسدي سقيمًا من كثرة الدماء التي انتثرت عليه، وكان يتطلّب

سكونًا وراحة وبعض الانفلات النسبي، ثم لابد من أنّ اللذّة معادل موضوعي للتحفيز، واستكمال شأن الحرب بروح حيّة، والفتاة جواري لا تكف عن مسّ جسمي فتطولني قشعريرة بعد أخرى، وارتخاء ذهن وخمول، لاسيّما الخمر تشارك ببراعة في سلب الإرادة، في لحظة طويت الفتاة بين ذراعيّ وكدت أقوم بها، لولا أنّ مغفّلا -بدا لي من أذيال «خيتي»- أقبل مثل محموم، وبادرني معنّفًا يقول:

- هنا لا موضع للتطاول أيّها الطيبي.

أخذنا ننظر لبعضنا في استهانة وفي عدم رضا، وقلت:

- يبدو العداء نافرًا من نبرة صوتك يا هذا.

لكنّه شدّ الفتاة ناحيته فاعترضت تزوم ما بين عينيها وتسحب ذراعها محتدّة، وهي تبادله تعنيفاً بتعنيف، وسبّاً بسبّ، وتتحرّك عيناها تجاهي تستغيثان، فانطلقت عليه بضربة لا يوجد غيرها، استقمت على رأسه بسيفي فشججتها نصفين في الحال، ذعرت الفتاة وصرخت صرخة طويلة وارتمت عليه منتحبة في تناقض فجائي، رفعت عينيها نحوي تصيح:

- هذا زوجي، ماذا دهاك؟

للحظة شعرت بتسرّعي، لكن الخمر قد غزت كامل أعصابي واستلبت تعاطفي، جذبتها لي في عنف واستهتار، واستطردت مستخفًّا:

- زوجك! أظن ّألاّ جدوى منه بعد الآن، فما نفع جسد ميت؟

استسلمت وهي لم تزل تغمرها الدموع، والبعض في هلع

التفّوا يحملون الصريع وفي عيونهم يقطن خوف هائل، لم تكن لي رغبة ساعتها في فعل أيّ شيء إلّا إتيان هذه الفتاة، كنت أعرف أنّها مجبرة، ولا حيلة لها، لكنّني صمّمت على إفراغ حاجتي، وفعلت.

بعد تلك الواقعة، وبرضا نفس مشوب بالتخوّف، كان «الأسايطة» يؤدّون دور الخدم طواعية، ويجاهدون إثبات انفصالهم عن جيش «خيتي» المتواطئ مع ملك الشمال، والولاء، وتفانيًا في تأدية دور الإذعان والاستسلام -ربما خشية أن يحدث طارئ فينقلب جيشنا عليهم- جاء كبير قوم لسيّدي القائد وسلّمه برديّة كتبها «خيتي» بخطّ يده، وأُهملت سهوًا مع ما خلّفه وراءه وفرّ، سلمها للقائد كأنّها هدية تؤكّد وصمة الخزي والعار على «خيتي» نفسه، قال: لابد من أن تصل لسيّدي «عنخ-انتف» مبتدع الجمال ليرى من حطّة الملك «خيتي» وليتبرأ أهل «أسيوط» المغلوب على أمرهم من ذنب الانحياز لفرعون الشمال.

تلاها القائد علينا ولم يكن يحجم نفسه عن الضحك في كلّ جملة:

«لقد جعلني فرعون البلاد الأوحد وملك الوجهين البحري والقبلي سيّدي ملك «هراكليوبوليس»، حاكمًا. له الفضل ولي الوفاء، كنت لا أزال طفلا طوله ذراع عند أن وضعني على رأس أولاده وجعلني أتعلّم السباحة مع الأمراء الملكيين، وكانت «أسيوط» سعيدة بقيادتي، وشكرتني «هراكليوبوليس»، وقال عنّي الوجه القبلي والوجه البحري إنّني مثل أولئك الذين تربّوا مع الملك، ومن ولائي وحُسن رعايتي لبلادي «أسيوط» أنعم

ملك الوجهين على مدينتي بقرار حفر الترع، حيث الجدب بدأ يشيع بأركان البلاد».

أخذ القائد يصفّق بكفيه وفمه ينثر اللعاب من فرط القهقهة، وقال:

- سحقًا لك يا «خيتي»! لتلعنك الآلهة، إنّها ليست مذكرات، إنّها وثيقة تذلّف واسترضاء.

وأكمل بعد لحظة توقّف يسترد فيها الأنفاس الموغلة في ضحك:

- ثم أين تلك الترع التي منّ بها عليك إلهك وفرعونك!

انطلقنا في الضحك من بعده، بعث القائد أحد الرُسل ليوصل البردية إلى سيّدي عظيم المقام في «واست»، وكانت أجسادنا آنذاك قد بدأت تستريح من عناء القتال قليلاً، كنّا نتجمّع في حانة كبيرة قرب معبد الإله «وبوات» في المساء، كان النهار للنوم، أمّا المساء للسمر والتلهية، منذ أن يطلّ «خنسو» من السماء، وإلى أن يغادر ليضطجع.

جلسنا نجرع النبيذ والجعة في الحانة، ومن حولنا يشدو أحد شعراء المدينة إكرامًا لنا وضيافة:

إنّ حبّ أختي على ذاك الشاطئ المقابل

وبيني وبينها مجرى ماء غير زائل

يربض على شاطئ الرمل تمساح

لكنّي حين أنزل في الماء

أسير على الفيضان

من دون غرق ولا فناء

وقلبي جسور على المياه

التي أصبحت كاليابسة تحت قدمي

وإنّ حبّها الذي يبعث فيّ تلك الجسارة

يعمل لي رقية في الماء

من غدر التمساح

تعترينا فُتنة الشعر، تغيم أمخاخنا من نشوة الثمل، تشتغل الألحان، وتتمايل الراقصات على أنغام «السستر»[٢٨] و»الكمكم»[٢٩]، فتنتشي الرؤوس، ونذهب لنتمايل معهن، حيث تختمر الأذهان بعيونهن الآسرة، يا لها من مِنح تلك التي يتقرّب بها لنا قوم «أسيوط»! نساء «أسيوط» كنّ جميلات رغم النحافة، وديعات رغم شراسة نداء عيونهن، يميّزهن تدوير للمؤخرة لم أره في نساء «الجنوب» على اختلاف مستويات الجمال هناك، تدوير في تناسق، يلهب حفيظة أيّ رجل، ويجعله يود لو ينقضّ عليها في التو، يتشرّب من لذّة القوام.

كان جنودنا كثيرون، ونساؤهم أكثر، فتح لنا القوم بيوتهم كأرحب ما يكون حُسن الضيافة، أو حُسن الرهبة، كانت البيوت معظمها بالطوب اللبن، تترامى حول معبد الإله «وبوات» في غير انتظام.

خلال العشرة أيام، قطن جيشنا تلك البيوت، وكانت له الحظوة في نساء المدينة والمرح، لهوت لثمالة الروح، ومن رأسي

طردت كلّ ما يسكنها من صخب المعركة، ومعه، صارت صورة حبيبتي «سنت» التي تقبع في «طيبة» بانتظاري باهتة، لم يعد فؤادي مستمسكًا بالحفاظ على ضمير العاشق بداخلي، ربما حاولت أن أستطيب الترف المنقضي حتمًا عمّا قريب، قلت في نفسي لذّة عابرة لن تضير.

حاولت أن أتذوّق من نساء المدينة الطيّبة ما أمكنني، فكانت لي واحدة في كلّ مساء، كنّا نتبادل النساء بيننا حتّى لا يشتهي أحدنا حُسنًا، كنّا ندري أنّ تروس الحرب سوف تستدعينا بعد أيام، وأنّنا لن يتيّسر لنا التمتّع بذاك الحُسن الجائع المعوز بعدها، رحت أضاجع كلّ واحدة كأنّني لن أحيا بعد ذلك، أكثر من واحدة قالت: ما أروعكم! رجال الجنوب يختلفون.

كنت أقول: هذا من فعل الاحتياج ليس أكثر، نختزن الشوق في أجسامنا منذ أشهر.

ظلّت المدينة جامحة طيلة الأيام العشرة، تتوهّج المشاعل في المساء، ويحلو الوسن في النهار، تطفر أجسادنا من داخلها كلّ ما أُختزن من رغبة خلال الأشهر الفائتة، أخذت أتنقّل بين أزهار الحُسن من واحدة لأخرى، استعاد جسمي فتوّته وتشبّع باللذّة، لم تعد المشاعر متلهّفة مثل ذي قبل، ولم أقنط في تفريغها على الحسان، استُوطنت بتأوهات النساء بين أحضاني، وانغرست في قلبي حلاوة العشق المتبادل متباين الألوان.

في المساء الأخير لنا في «أسيوط»، تأهّب الجيش للزحف صوب «هراكليوبوليس» في الصباح التالي، كان الوداع المتحسّر كامنًا في نظرات العيون، وبين تمتمات الشفاه، في كلمات الشوق العذبة الملتاعة، وفي إنشاد الشعراء، في الحقيقة شعرت بالوحشة

مقدّمًا، لم أكن أدري أيّ إحساس ذاك بالاغتراب المسبق قد جاش في فؤادي! أحسست بأنّني سوف أفتقد تلك الأيام الأخيرة وأنا أعلم أنّني قد لا أزور هذه المدينة ما حييت، تاركًا ذلك الجزء من مشاعري يتبادلنه من عاشرتهن، ذلك الجزء من قلبي ومن جسدي وروحي، أحسست بانقباض وحرقة وأسى، فتداخلت عليّ الأفكار، ما بين «واست» البعيدة التي تسكنها حبيبتي والشمال المنتظر وبين «أسيوط»، كانت كأس من نبيذ قد راحت ترتجف مع ارتجافة قلبي، انتزعت الكأس نفسها من بين أصابعي وارتمت فوق المنضدة مكسورة كما لو أنّها تعترض رحيلي، استقمت وقد تخالطت المشاهد أمام بصري، وتعبّأت نفسي بروائح البخور الثقيلة التي تطوف في الحانة، سقت قدميّ نحو الخارج، تخبّط جسمي بين الأجسام المنتشية، والأصوات من حولي ما بين هائجة ومرِحة ومتحسّرة، وصوت حبيبتي «سنت» التي كنت قد نسيتها طيلة تلك الأيام -من فرط الانسياق وراء الشغف- يرنّ في رأسي:

- عُد لي ظافرًا من دون خدش.

كيف تناسيتها؟ كيف تلاشت ملامحها بين ملامحهن؟ لماذا استوت القسوة في فؤادي تجاهها بهذا الشكل؟ هل هي الحرب؟ هل هو تبدّل حال النفس؟ أم مضي طحن المعركة في الرأس من غير توقّف؟

يمتلأ الهواء برائحة «سنت» فجأة، رائحة تفوح منها نسائم النيل وأصالة الحقول المجاورة له، تختلط صرخات البؤساء من معترك القتال مع أصوات الشعراء وأنين النساء أسفل منّي، لم تكن المدينة عارمة الهياج مثل تلك الأيام العشرة، ولم تكن

نفسي خالية من سطوة أيّ شيء قبلًا؛ لا الآلهة ولا الزمن ولا حتّى «سنت»، كخلوها في تلك الغفوة المؤقتة، الآن أشعر أنّني غريب عن المدينة، وغريب عن نفسي، وغريب عن دياري، كغربة طوف تائه تتنازعه أمواج بحر.

أعود أدراجي إلى الحانة، كلّ التفاصيل يغشاها دخان البخور، رؤوس الجنود تترنّح يمنة ويسرة في انتشاء، أجلس وقد بدا لي أنّ السرور يلزمه في حقيقة الأمر قلب خال، لا تمكث فيه فتاة ولا يحتلّه حبّ، اقتربت إحداهن منّي، مالت نحوي، قالت في دلال:

- تجلس وحيدًا في يومك الأخير في مدينتنا!

أتأمّلها، كيف تشبهين «سنت»؟ أم أنتِ «سنت»؟ جافاني وضوح الاتّزان، لم أعد أعرف الواقع من الخيال، لم أعد أعرف إن كنت مخمورًا أهذي لدرجة اختلاق التشابه أم أنّني على حافّة الخبل؟

ضحكت في صوت عال، حطّت بيدها على كتفي وقالت في غنج:

- أنتم أيّها الطيبيون لا يضاهيكم رجال في عشق أو فحولة.

أدركت أنّها تراودني، لامس ثديها صدري، وعيناي كانتا ملفوفتين بضباب كغمامة من حيّز الخيال، غرست عينيها في عمق عينيّ، استراح صدرها كلّه على صدري، وأناملها تتسلّل نحو فرجي، والتشابه الملحّ بينها وبين «سنت» لا يفارق عقلي، ثم هي تناولت كأسًا من جعة وأفرغته بين ثدييها بيد منتفضة من جرّاء شهوتها فجري نازلاً إلى أسفل وطار ثباتي، قلت: لتكن مشيئة الجسد إذن.

رحت ألعق بلساني بقايا زَبد الجعة المنثور فوق صدرها وجسمي يفور، وأضواء المشاعل ترهج فتسلب اتّزاني أكثر، «سنت» تطوف بيننا كيمامة ضالّة، ولا تستقر، بدوت في خلل من أمري وطيد، مثل بركان عليه أن يثور لليلة أخيرة، ثم يهدأ، كان الهدوء دانيًا خلال اللحظات القادمة، وكان عليّ أن أستحضره، ترنّح جسدي وأنا أتأبّطها إلى الخارج، حيث بيت من طين يجمعني كلّ مساء بزهرة يافعة، وحيث لا شيء يضاهي عذوبة طرح المشاعر كلّها خارج الجسم في لحظة محمومة بالشبق، لا أعرف كيف تعريّنا ولا كيف التقى جسدانا في دفء عهدته الأيام الماضية؟ كلّ ما أعرفه أنّني تركت جسدي لها تعبث كيفما يحلو لها، تعتليه أو تمتطيه، تندس تحته أو تُدخله بداخلها، تقلّبه على أوجهه وتستحلب منه اللذّة التي لن تنعم بها بعد ذلك. هيا اقتنص اللحظة، وانتهز اللذّة، كلّ المسائل مباحة الآن، ليس من رغبة ممنوعة أو مقيّدة، رحت أقول في نزق: لتكن مشيئة الجسد، لتكن.

غير أنّها «سنت» كانت لا تزال تطوف بيننا كيمامة حزينة من دون مستقر.

بردّية «هوي» الثانية

قد أقبل الفيضان، وقد أعددنا له أنفسنا، بدأت ملامحه تبدو على شكل ريح ناعمة هادئة، مضت تزداد عنفًا، ومضى معها الاستعداد يتّخذ كلّ أشكال التخوّف من الطاقم، لكن قال الريّس بصوت مستخف لا يحتسب من أمر الفيضان أو اعتاد عدم الاحتساب:

- كلّ عام يجيء فيضان النهر العظيم أشدّ بأسًا، وهذه تحذيراته كيما نتجهّز، لكن اطمئنوا، في كلّ نوبة مركبي تزداد فخرًا بمتانتها بين جميع المراكب، تجابه الاضطراب العظيم ببأس أعظم.

أظنّ تلك مجرّد استهانة ومحاولة للحطّ من شأن غضب يعيش في عين «حابي» منذ أبد الدهر، غضب لم يزل حيًّا يرتع في عنفوان شبابه، ولا قِبل لنا به، إنّما آثرت الاطمئنان وقلت في نفسي إنّه أعلم منّي بحال مركبه، وذهبت له بكوب من جعة وكان جالسًا مثل طاووس فوق مقعد من خوص، فهمست له بصوت مرتعش يغمره الأدب:

- سيّدي، تعرف أنّه أول فيضان يجيء وأنا في البحر، لذا لست راضيًا عن قلبي الذي لا يلبث يضرب كمطرقة لا تعرف الكلل، وفي ذات الوقت ثمّة سعادة تسكنني، لا أفهم تنازع نقيضين بداخلي!

استدار برأسه تجاهي وكانت عيناه تحملان استهزاء بديهيًّا، اعتدل قليلاً وقال:

- أولى نحتفل بالفيضان لا نخشاه، نحتفي عند ظهور النجم بـ»إيزيس»، والسعادة كذلك إحساس طبيعي، أعرف هذا الشعور، أن تهفو نفسك لشيء وفي ذات التوقيت تتوجّس منه، إنّما ذلك من طبائع البحر لو تعرف، التقلّب بلا مستقر، واطمئن، إنّ إيزيس تبكي أوزوريس فتسكب دموعها في النهر العظيم ليرتفع الماء ويهدر، تُسقى أراضينا ويهلّ موسم الشتاء والأرض عامرة بالخير، بعد فصل الفيضان تُبذر الحبوب في الغرين فيعمّ الرخاء، فلا ترهب الفيضان، وكن سعيدًا، كن.

أدركت أنّني قد أبيت لقمة من سخرية يمضغها الريّس في فمه مع الطاقم كلّ حين، خاصة بهذه النظرة التي سكنت عينيه تجاهي، ربما يتّهمني بالجنون لحداثة التجربة، أوليته ظهري وابتعدت.

بعد ساعات لذنا بالشطّ بعد أن رسونا بالمركب وألقينا في جوف النهر مرساة عظيمة تعاند الفيضان الآتي وتبدّد لكمات أمواجه.

استبدّ على الشطّ بنا نوم، كان الليل كما لا يود الانقضاء، وفي داخلي بعض من خوف لئيم كامن، فنمت بنصف عين، أحببت أيضًا -بشعور ما- أن أعيش غضب النهر الذي يأتي مع ذلك بالخير، وفي قلب الحدث العظيم، كنت أعلم أنّ قيامة الماء قد تنهمر في أيّة لحظة، ولم نكن على قرب، كنّا على تبّة مرتفعة بحذاء الشطّ وعلى مسافة ألف ذراع تقريبًا من النهر نائمين، غير أنّي دنوت بفضول ليس مفهومًا، يساورني هاجس رؤية ثورة

النيل عيانًا.

كانت أصوات الطيور خافتة، خافتة للغاية ومتأهّبة وتبدأ في سكون متوالٍ يزداد تدريجيًا، لعلّها تنتظر أن ينقضي الفيضان فتشرع في افتراس الجيّف الملقاة والأسماك الميتة، والتي يحطّ بها اندفاع النهر، أخذت الريح تصفّر في أذني، كما لو أنّها تدعوني للابتعاد قليلاً عن مجرى الوحش الضاري، ثم كأنّني لا أنصت، وأضرب بتحذيرات الريح عرض الحائط، كان هسيس الأفواه الغافية ينتظم وأنا أنصرف نحو الماء أكثر، ويجذبني خيال ملحّ أكثر، أهكذا يكون الفضول؟ يا لعقلي العليل! يخاف الفيضان ويتوق للقائه، ماذا لو صرت جيفة يهديها النهر للطير المنتظر؟ من سيهمه أمري على أيّة حال؟ بعين واحدة أرصد تقلقل الطبيعة وأنا في غير حلّ من إقرار كوني لست مستعدًّا للغواية بعد، أيّ نزق أهوج! إذا جاء الموج هائجًا فأنا في بدد لا محالة، ولكن أيّ رصد أبتغيه! لم أكن يومًا أكثر من خادم للنهر، ولم يكن النهر أكثر من متعال، هكذا يكون وصفه، لا يحفل بكلّ ما يستوطن متنه من حكايات، يبقى على جريه ولا يعتدّ، كما لو أنّه سبع يركض بين الأحراش وراء فريسة بعينها فيلتهم في عدوه سائر المشاهد من حوله.

نحو سماء بعيدة رفعت عيني الوحيدة، أيّ النجوم أقرب للبصر؟ نجمة متلألئة أبعد أم نجمة تخبو قريبًا من عالمنا وعن قناعة باقتفاء الأمان النسبي، مثلي تمامًا، في الغالب أعيش في ظلّ آخرين، وفي اللحظة التي يستأسد قلبي أخسر الكثير، لست باسلًا ولا أدّعي، هو الفضول وحده يسحرني ويخطف تفكيري نحو معايشة الفيضان، ها أنا أرهف السمع فيأتيني صوت الزئير

من بعيد، يقترب، يجأر كإله يزوم، يبدّد بعض الجسارة، ويبقى بعضها يسمّر قدميّ حذاء الشطّ القريب من الماء، ولا أعرف لو جاءني الضاري كيف أنجو؟ فقط يعلو هزيم الإله القادم، يهرس أعصابي كافة، أحاول الاستدارة وقد استقرّ الخوف، تدور النجوم وتبدأ في الفرار، خشية الهادر الذي لا يعرف الهون، بعيني ألمح التبّة بعيدة، وليس من أحد يراقب أيّ جديد يطرأ على الشطّ، كأنّ السبات خوفًا قد غلّف عقولهم بموت مؤقّت، ومن خلفي تدور على الأحمق الدوائر، رحت أبتعد هرولة، أمنّي نفسي بطيران إلى أعلى، أجاور الطير المترقّب بين أغصان الشجر، وذعر يبدأ في الاستيلاء على أنفاسي، الصوت هادر، وأنا غبي كفاية لأدرك أنّني لست بناج.

في سرعة وفي شدّة، في بأس وفي ضراوة، يلسعني لسان في ظهري، لسان من موج ومن نار، سيل عظيم يقذفني لأعلى، ويهبط بي في لحظة داخل حشاش الماء، أتنفس الطين والزبد وغضب النهر، وأبو الآلهة «حابي» ينطلق أمام خيالي شديد الامتلاء، بثديين متدلّيين وبطن مكتنز، في قدميه نعل من طمي وفي خصره حزام أخضر، والنباتات المائية تتوّج رأسه بإكليل يسدّ عين «رع»، وأنا تحت قدميه يجعلني الفضول وضيعًا ومجرمًا، ويداه اللتان تنشران علامات الحياة، تحملان مائدة مثقلة بالقرابين، أكوام من سمك وبط وإوز وباقات زهور وسنابل قمح، ها هما الآن يكبّلان أنفاسي، ويخنقان عزيمتي وقدرتي على أيّة مقاومة.

يدور بجسدي الموج دورات خاطفة سريعة وهو يرغي، تلك شريعة الأغبياء لو أدري! يكون الموت المحقّق حلمًا عسير المنال،

عند أن يصبح جسمي عرضة لسخرية النهر ومداد الماء في كلّ أنحائه، ولا أرى إلّا الظلمة، ولا أغرق إلّا بحماقتي، ولا أكون طعامًا إلّا لطير أكثر حكمة ومعرفة، والسيل ينقضّ على أحشاء الشطّ، يمزّقها بلا هوادة، ويمزّقني كأنّي عصا متهرّئة في يد كفيف.

* * *

وهكذا على شطّ جزيرة الثعبان الطيّب أُلقيت.

قدرًا، رحمة من النهر الإله نجوت، كانت الشمس تسقط على وجهي فأستفيق، لا أعرف كم ساعة مرّت أو كم يومًا؟ كم من الوقت ظللت في إغماءتي؟ كيف نجوت وكيف بلغت شطّ جزيرة الثعبان الطيّب؟ كلّها أشياء لم يعد العلم بها مهمًّا، لكن الذي تيقّنت من معرفته أنّني حتمًا على جزيرة الثعبان الطيب، كلّ الدلائل تخبرني بذلك، التفافات الأشجار التي تشبه التفافات الثعابين، الرمل الأحمر الذي يشيعون عنه، القعقعة التي تصدر من جميع الأجواء، دلالات، دلالات، ورأسي من غيبة تعود، الحكايات إذن لم تكن أكاذيب، الجزيرة في النهر، وقد شوهدت ولو استهزأ الناس، هي الجزيرة، وأنا الأحمق الذي لن يقدّر له رجوع، معلّقًا في سحر الجزيرة سوف أمكث، ترى من سيخبر الأهل ضياعي؟ لا أظنّ واحدًا من الطاقم قد يكترث، سيقولون هو مغفّل وارتحنا منه، هكذا يرونني، وهكذا سيصير لغيابي مصير هواء عابر، إنّما للنهر المبارك حكمة أكيد من رميي على شطّ الجزيرة.

قعقعة الثعبان الطيّب إله الجزيرة الصوت الوحيد الذي يتخلّل الصمت، والصمت يسكن كلّ التفاصيل، لم تعد على الجزيرة حياة، وإلّا لصارت موطنًا لأقدام البحّارة، فهل ذاك حظّ

متفرّد أم غضب مستأثر؟

أهزّ رأسي أنفض عنها بقايا الألم، أفرد جسمي مستكشفًا، تقترب من عيني تفاصيل الأشياء، انتبهت قليلاً، بدت آثار الغيبوبة لم تبارح عقلي بعد، ففي الأفق القريب أخذت تتكوّن شجرة من لون الحليب، كأنّي لم أفق، لم أعرف إن كان الإله ذاته يتمثّل!

سماء صافية تكسو مرمى العين، وصباح يبدو شفّافًا، وثمّة طيور بمناقير بلون الذهب أخذت تحوم حول الشجرة، كأنّي لم أفق بعد، كأنّ بشارة من طمأنينة تكتنف الفؤاد، وتجعل العقل يسبح في بحر من النقاء، بتلك السرعة وذلك الوجد يخلب سحر الجزيرة كياني، ويفعمني صدح الطير المفاجئ بعذوبة تصنع حاجزًا خفيًّا بداخلي عن الواقع، الرفيف الناعم يملأ وجه الشجرة البيضاء، أقترب مسحورًا، الأفرع تتشكّل أيادي تدنو من وجهي، تمسّد رأسي، تداعب تجويف عيني المفقودة، وفي لمح البصر، أستعيد رؤية كانت منذ زمن بعيد عندما أجدني قد استعدت عيني المهدَرة، فلا أصدّق، ولا أعترف كثيرًا بأنّني لم أبارح الخيال.

تبتعد الشجرة ثانية، تناغش أعصابي، ثم راحت الرمال الحمراء تنبسط عن سجّادة تشبه غيماً دافئاً ممتدّة نحو الشجرة، أرتقيها بقدمين يحملهما نسيم يملأ الروح غيابًا، وفي آخر الامتداد تروح الشجرة تتشظّى وتتفتّق بأريحية فتنبت جسدًا ممشوقًا، أجمل ما قد ترى عين محروم مثلي، امرأة بيضاء بياض الصبح، هادئة هدوء حقول مثمرة عن عبير برائحة السماء البعيدة، كانت تقف أمام البصر مثل أيقونة من خيال، تبتسم ابتسامة شمس مشرقة، تدعوني أن أقبل، أقبل ولا تخف يا «هوي» شيئًا،

ها هنا قد تتحقّق الأحلام.

بتؤدة أدنو، أدنو وكأنّي مغلّف بغمام الحلم، أخشى الانكفاء على وجهي فيزول الحلم، أنكبّ أهرول نحو البيضاء، هذه من الآلهة لا شك، وحضن واحد منها قد يحوّلني إلى إله، تساءلت: كيف وثبت من الأرض إلى السماء بمثل تلك الكيفية؟ وهل السماء باهية هكذا؟ بنشوة أخذت أجوس بعينيّ في فتاتي البيضاء، والأفق يتّسع فتنة العالم، ورحابة الفؤاد تستوطن المدى، والمسافات مجرّد وسائد مخملية تقرّبنا، وشعرها الذهبي المسترسل كأفنان من عسل يبدأ يلاقي جسدي، وفمها يهمس في طمأنينة:

- ما الذي أخّرك؟

وقفت مذهولاً، وصوتها الناعم الحالم يطوف في رأسي كلا نهاية، كما لو أنّ نبرتها ستظلّ تدور بداخلي إلى ما شاءت، راحت تتفرّس في وجهي وقالت:

- ماذا ألمّ بك؟

ثانية لا ينتهي لساني إلى شيء، مجرّد سكوت ملفوف بالألق وهي تداعب أوداجي، تهمس في جلال:

- ماذا دهاك؟ ادن منّي.

وأدنو، وكأنّي سألقاها بكيان زاه، تبدو المسافات ضربًا من وهم، فلا المسافات بيني وبينها قريبة، ولا بعيدة، وكلّما دنوت تضاءل في عينيّ المدى، كما لو أنّ عطرها الشذّي يبتلعني بداخله، كلّما دنوت كلّما شعرت بأنّني قيد مكاني، أفكّر في النهر والشاطئ البعيد وأفكّر في قرية معزولة لا يرفّ بسمائها طير،

ومتأرجحًا على وسادة من حلم كنت أقترب، في سعادة بالهالة الملائكية التي لم تؤت لغيري، قلت لها همسًا: ضمّدي جروح الزمن.

وكاحتواء النهر لمركب متهادية احتوتني، كيف أعرف عن الوجد إلّا بتجربة من رحيق الجنّة؟ أخذت تُشرق أمام عينيّ كشمس حنون، وأنا أروح في دنيا الانبساط، لا يعكّر ذهني وجه، فكلّ الوجوه سواء، كلّها ملامح جدلية تغادر الحدود مثل سحابات عابرة في أفق بعيد لا تُعني عينًا، تقول:

- لا أدري ما الذي قد يشغل بال تائه صغير مثلك؟

قلت:

- أنتِ.

وذبت.

* * *

أيّ راحة بعد راحة الفؤاد؟ يوشك ليل قلبي أن ينصرم بشكل كامل، متعايشًا مع بهجة العالم الأخّاذ، كنت أستوطن متن جسد حبيبتي الشجرة الحسناء، كأرجوحة من دلال نتمايل معًا، ومبعثرًا في عبير الجذل مضيت لا أحسّ بمواقيت الكون، كما لو أنّ الكون ذاته يشاركني لا وعي اللحظة، الوقت نفسه يتمطّى، ووقتي دون أوقات التفاصيل كافّة يمتدّ وينمو وتصبح وهلته دهرًا، هأنذا الناجي الأوحد من معترك الوجود القاسي، مالي وما للدنيا برمّتها؟ لأكن سميرًا لحسن مولاتي البيضاء، ساجدًا تحت أقدام سحرها، متمليًّا في روعة الإحساس بالتفرّد ولو لزمن افتراضي.

قالت لي أميرتي:

- لو تدري كم انتظرتك!

همست لها:

- لماذا أنا؟

- قدر الوفاق.

- وها قد جئت أخيرًا، يا أميرة السلام والوجد والبراءة، يا من تلقّفتِ قلبي من وعثاء الغربة إثر ضلاله، همت كثيرًا في دنياي بغير مأوى ولا هداية، ضاقت بي بالرغم من رحابتها، بحثت عن السكينة والشفاء، ابتهلت للآلهة كيما تنصرني وتريني طريق السلوى، فلمّا استبدّ بي اليأس، كنتِ أنتِ.

ابتسمت فاتّسعت الأجواء لابتسامتها، برفق شقّت صدري نصفين، أمسكت قلبي وأخذ ينبض في ارتياح بين راحتيها، كانت دماؤه تسيل فتتقاطر فوق شفتيها عسلًا، علّقته في فرع من فروع شعرها الهائم وقالت:

- هنا يبقى أنيسًا ما طالت الوحدة.

- لن أرحل.

- يومًا ستفعل.

وحشّت بأناملها قطعة من جسمها اللدن الرقيق فكأنّما يُبست فجأة، استعادت لون الشجر البني الشاحب كأنّها انطفأت حين فارقت جسدها، قدّمتها لي قائلة:

- وتلك منّي نطفة، ضعها في إناء من ماء بحر مالح وانتظر

عند الدلالة حتّى تعود لي الحياة ثانية ويجمعنا موطنك.

- أيّ دلالة؟

- «عاشيت»، لسان سينطق بها في زمن ما، «عاشيت».

بردّية «ثثي» الثالثة

أمكث بجسمي في ماء البحيرة البارد وما زلت أشعر بالدوار، غيوم صباحية ظلّت راقدة فوق صفحة الماء، غيوم باهتة، شاحبة، ومع ذلك ضجة الحياة تفور في رأسي، وكلّما انفجرت الكلمة أمام ذهني اشتعل غضبي أكثر، «فاسدون»، يا لها من مهزلة! هل يسري في المقاطعة مثل هذا الخرف؟ للملك الموقّر الحقّ إذن في إعدامي حتّى إن شاء ما دمت أنا قيد المسؤولية المباشرة، أيّ عصابة تآلفت وسوء حظّي؟ كيف يحدث في مملكتي شيء لا أعرفه؟ أيّ بساطة في فداحة الجرم؟ بردية في قصر الملك! يا لجرأة أولئك الحمقى! هل هو واحد من الحرس؟ هل هو واحد من الخدم؟ جارية؟ لعلّه «بام» ذاته؟ من يدري حقيقة الأمر؟ ومن يمكنه الجزم؟ لطالما شعرت بريبة تجاه هذا الرجل، تلوح من عينيه دومًا نظرة غامضة، مبهمة، تبث في داخلي ناحيته النوايا السيئة، ولكنّي لن أسعى خلف تصوّر أهوج، سأبحث وأدلّل وأمنطق سير الأمور، سأستعيد نفس الذهن القديم المراوغ وأحلّل على مهل، ولن ينجو من أوغل صدر مولاي ناحيتي.

أغطس برأسي وأبزغ مغمورًا بالماء المبارك، أنفذ بجسدي نحو قناة الغدير في لهو من أعياه تفكير قلق، تدغدغ جوانب ظهري ألسنة الموج الناعمة. متى ينقضي همّ الصباح والمساء؟ وقد ناء عقلي بأثقال الفِكر العصيب، ليس لي من حجّة إذا أخفقت

في ردّ المسألة لنصابها الأصيل، ولم أكتشف مرتكب الواقعة، وقتذاك قد يجعل مولاي المنزّه واحدًا من خدمه يركبني مثل بغل ويدلدل رجليه حتّى، ستجانبني كلّ أعذار الدنيا ساعتها، يا خوفي من النكوص، ويا شماتة «بام» وشاكلته، لن أصبح أكثر من مغرور وهوى متهشّمًا.

رفعت نحو السماء رأسي، طفقت أبتهل مردّدًا: «آمون، أصغ إلى رجائي، أعرني رحمتك، إنّني ألجأ إليك وأنت تعرف أنّني ابن «رع»، خلقت من صلبه، لأجلس هانئًا على عرشه، فأغثني، مكّن لي في الأرض نوبة أخرى، سيّدًا على الوادي كعهدي بمنّك عليّ، وسدّد رأيي وقوّم خطاي، كيما يتحقّق مع الأيام تدبيري، يا حامي الحمى، يا مدافعًا عن رعيتك، أطلب أن تطيل عمري في الدنيا وفي رغد ملكوتك، وفي الآخرة».

تستأنف الدنيا مسيرها من حولي، لكن بدون توازن، أشعر بنفس الدوار، ومن بعيد، حيث لا أعرف إن كان ذلك سرابًا أم غبارًا، تتدحرج نحو القصر كتلة دخّانية رمادية، تتكشّف عن صهيل خيل، واحتدام حوافر، وموكب ملكيّ.

حرّاسي يهرولون في استقبال الموكب، وأنا مسرعًا أنسلّ في رداء غير منمّق، لم أكن أظنّ أنّ جلالة سيّدي قد يزورني تحت أيّ بند من بنود الأهمية، لم يحدث من ذي قبل، أكثره سيرسل تابعًا برسالة، ويكون الأمر.

يتباطأ الموكب، تحمحم الخيل في تخايل، وهي ترسو بالعربة أمام مدخل القصر، فتهدأ، ولا تهدأ سحابة الغبار المتخلّفة إثر حوافرها العفيّة.

استبدّ القلق بي أكثر، والحرّاس يلتفّون ليفتحوا باب العربة، مال الأحداث تجري سراعًا؟ فلا أعرف كيف يبدأ يومي ولا كيف ينقضي، دوّامة من تخوّف تستقطب مجرى رأسي، وأنا -في الغالب- قد لا أنجو.

ومن بين الحرّاس، بقامته السامقة واعتداده المغمور بالعظمة، يظهر «نخت- نب- تب- نفر»، تلك مسألة ثانية لا تخطر بالبال، الأمير ملك الجنوب القادم ولي العهد بشخصه في قصري، يا للحظّ! سوء الحظّ أقصد، لولا أنّه يضمر لي شرّ النيّة ما زارني وهو لم يفعلها منذ تبوأت منصبي.

كانت ابتسامة عريضة فوق شفتيه، بدت مخادعة أو بدت لي تُخفي شرًّا أعظم من توقّعي، فرد ذراعيه تجاهي، قائلا بنبرة حميمة:

- العزيز الغالي، لا تفترض سوءًا، جئت متعشّمًا الخير.

وكأنّه يقرأ ما يموج في فِكري. قلبي يختلج في شدّة لم يزل، لن تنطلي عليّ حيلتك في طمأنتي، نفسي تستشرف ما يربض وراء ظهرك.

- هل سنظلّ واقفين هكذا؟ لا أظنّ ذلك يليق بملك.

- سامحني يا مولاي، تفضّل.

مختالًا تقدّمه الحرس وأنا من بعدهم، كانت قدماي تطويان السلالم في حيرة وفي ارتياب، لم يفكّر «نخت- نب» أن يلتفت التفاتة لي، كأنّ القصر في زمام أملاكه، أخذ يداعب إزاره بتباه وهو يدلف من مدخل القصر، ثم هتف بغير أن يوليني بصره:

- ها «ثثي» العزيز، تعال اجلس وشاركني الشراب.

كم أكرهك يا «نب- أنتف»! أعرف مدى كرهك لي كذلك، كنت الوحيد الذي لم يبارك ارتقائي درجات المنصب واحدًا بعد آخر، في كلّ مرّة وببجاحة سافرة كنت تنتقد فعل مولاي المبجّل وتخبره بأنّني لست أهلاً، لكنّه دائمًا ما كان يجيبك بأن لا شأن لك في اختياره لي، هو أعلم بصالح البلاد.

عن يمينه جلست، وضع ساقًاً فوق أخرى وتملّى في وجهي طويلاً، قبل أن يستطرد:

- يحيّرني خضوعك القهري لفرعون البلاد يا «ثثي»، ولا حتّى نبرة اعتراض على قرار، كأنّك قطعة خيش بالية في يد الملك.

ارتجّ كياني، قد عرفت أنّ الزيارة خلفها موطن خبث، لكنني قلت في حذر واحتياط:

- ليس ينتقص من قدري كوني خاضعًا ومواليًا لسيّدي مديد العمر.

أغمض عينيه مقهقهًا، وراح يصفّق بيديه، ثم قال:

- كم يعجبني ذكاؤك! عمومًا لا يهمني في حقيقة الأمر إن كان ذلك تقمّصًا أم صدقًاً.

هيا، ما الذي يعنيك في أمري إن كنت لا تكترث لنيّتي؟

أشار للخادم بسبّابته فحضر مهرولاً، حدجه بنظرة مرجفة وقال:

- أين النبيذ يا جاهل؟ كيف يا «ثثي» لا تنتقي من يخدمك بإخلاص وهمّة؟

في ارتباك وتوتر عظيم هرع الخادم وأتى بزجاجة كاملة، صبّ كأسين منها وسندها أمامنا على المنضدة الرخامية، ثم ابتعد ماضيًا خارج البوّابة، في بطء وكأنّه يوغر في إحساسي يقين اللؤم أكثر، أخذ «نخت- نب» يرشف من كأس النبيذ ممصمصًا بشفتيه كما لو أنّه يستلذّ، رفع الكأس في إعجاب وقال:

- أحييك يا عزيزي على هذا النبيذ، لا أعرف كيف لا يتوفّر لمولاك المعظّم مثيله؟

هذا اتّهام آخر، لن نهدر الوقت ما بين صدّ وردّ، لتُفرغ ما في جعبتك حتّى نستقر على مجرى ثابت للحديث، أجبت في صوت خفيض:

- يحب مولاي أن يقتني نبيذه بسبله الخاصّة.

- ألم أقل إنّني معجب بذكائك!

لم أمسّ النبيذ، كان القلق قد أودى بتركيزي تمامًا، فلم أعد أسيطر على أعصابي، حتى كادت ارتعاشات أناملي تفضح تخوّفي، في أثناء ذلك، مضى «نخت- نب» يحدّق في وجهي كما لو سيصنع لي تمثالاً، أطال تفرّسه، فطال صبري أكثر، ووددت لو تنشقّ الأرض فتبلعه وكرسيه، مجرّد برديّة ملعونة تافهة جلبت على رأسي الوبال، من وقتها وكلّ شيء انقلب رأسًا على عقب، كأنّ الدنيا قامت ولن تقعد، لكن صبرًا، لكلّ مقام أوان.

- قديمًا، نزل البلاء على مصر، ولقد أخشى من البلاء لما جرى على أسلافي عندما تخرّبت ممالكهم وامّحت سيرتهم، وكأنّ لم يكونوا منذ عهد الآلهة شيئًا مذكورًا.

ظللت مستمعًا وفي داخلي تساؤلات مزمنة، إلام يرمي؟

راح يكمل:

- أيّ جدوى لما ينثره على الأرض كهّان يلبسون جلد النمر، أو لما يقدّمون من قرابين؟ أخبرني: أيّ جدوى في لملمة حاصلات الذهب والفضة والعقيق؟

وتنهّد، بدا وكأن شرودًا غير مفتعل قد استبدّ به، فزفر زفرة طويلة ومضى يتمتم كما لو يهذي:

- فكّرت كثيرًا لما بعد هذي الحياة، حين تذهب نفسي إلى هناك، حيث تغرب الشمس.

احتسى رشفة من النبيذ؟ وكان كأنّه يخاطب نفسه:

- لنفرح بيومنا المشرق، لنتمتع بما أوحت بها نفوسنا، فليس من دأب القدر أن يكرّر أيامه، فكلّ ما هو آت آت، ولم يعد من ذهب إلى هناك، لننج بأنفسنا قبل أن تجرفنا دوّامة الضياع.

ثم استدار نحوي، وتطلّع لي لوهلة قبل أن يردف:

- لعلّك تقول في نفسك هذا رجل يخرّف، لكن فكّر معي: قد أنعمت علينا الآلهة بالبصائر، وسوف نصير كما صار القوم، أليس كذلك؟ كم من قوم لا يرجع ماضيهم؟ كم من غابر لا يبقى منه باق؟ هل تعرف، كلّ الأوبئة التي أصابت بدن البلاد كان سببها الأصيل عبث الأكابر القدامى، وليس من جرم في تبديل القدر، للأحسن طبعًا.

ثم دنا منّي، قال هامسًا:

- كبيرنا يعبث يا «ثثي»، ألمّ به عطب الكهولة، ولم يعد يقدّر حكمة العرش، انصرف للّهو عن استقامة نصاب المُلك، إنّه يضاجع

الحرّاس، هل تصدّق؟ أيّ مكروه يأتي يا «ثثي»؟ أيّ مكروه؟

تراجعت عنه مفزوعًا، لم يكن لذهني أن ينقضي لمثل تلك الإيحاءات، أخشى أن يريد توريطي ليس إلاّ، فهو خبيث من نسل خبيث، وليست لي لمجابهة مكره مقدرة.

من بعيد رحت أتأمّله، وقد بدا مهمومًا وهو يقترب منّي ثانية مهمهمًا:

- صدّقني، جئت اليوم لك لأشاركك وجيعتي، لا غاية لي في وقيعة أو جسّ نبض، كلّ ما في الأمر أنّك الوحيد الذي قد يخالط عقلي بنسيج ذكائه فنحيك معًا خلاصًا لا ثغرة فيه.

يا للجرأة والبجاحة! أيّ خلاص؟ بل أيّ مؤامرة؟ من أنا لأدبّر ضدّ سيّدي مجّده الرّب مؤامرة؟ لست أكثر من خادم يطيع ما استطاع.

قلت متحرّجًا:

- سيّدي، أعفني، لا أفهم.

- أين ذكاؤك إذن؟ افترضت فيك الفراسة والفطنة، فلا تخب ظنّي.

- ربما ما فهمته عسير التصديق.

- قل هذا، وقد تقتنع بمدى إيماني بتصحيح الأمور، الدولة يا «ثثي» تعود للوراء سنوات، أخشى أن نسقط في بؤرة الاقتتال بلا مصير واضح، همّي أعظم غاية من همّ الفرعون المجيد.

- ولكن الحرب قضية كبرى لا يجوز التشكيك فيها.

قام وجلس، وجلس وقام، كان عاريًا وجهه تلك اللحظة من الكِبر أو التلفيق، فاستشفّيت صدق ما يزعم، وبدأت في تشكيل رؤية مغايرة قليلاً.

- وما الطائل من حرب قد لا تفضي إلى نتيجة؟ ليس أعلم منك يا «ثثي»، كلّ ما أريده منك مجرّد المساعدة.

وقفت متلجّمًا، تركته ليُكمل:

- توّجني ملكًا ونل -كيفما يحلو لك- من عطايا فرعون البلاد الآتي.

بردّية «سنت» الثانية

لم أعتد تكحيل عينيّ بمثل ذاك التدقيق، أضبط استطالتهما على صدغيّ، وأكثّف الكحل حتى تكاد عيناي تنطقان ولهًا، أمّي استغربت اهتمامي تلك الأيام الأخيرة بنظافتي ونظافة البيت، وضبت رصّ المتاع بشكل أكثر ترتيبًا وعناية، وكنت أستيقظ كلّ صباح وأدلّك جسمي بعناية فائقة بعطر «سونتي»(٣٠) وبخور «أنتي»(٣١).

كيف أبوح يا أمّي بزيارة مرتقَبة؟ إنّ سحره قد تغلغل بداخل وجداني من لقاء أول وحيد، لم أعد أرى غيره حولي، في الأماكن كافة، أمام عينيّ وأمام خيالي، لا أجد لديّ رغبة في فعل أيّ شيء سوى الانتظار، فقط لا غير، قال لي: اسمحي بزيارة. وها هي الأيام تجري ولا يجيء.

طيلة الأيام السّت الماضية وأنا أتزيّن، ليس لي من رداء غير القميص الشفّاف وفوقه الثوب الأبيض ذو الثنيات، والمخصّص لمواسم بعينها، عقدته على نهدي الأيسر وتركته يكشف عن النهد الأيمن ليمتدّ مفتوحًا من تحت حزام الوسط وحتى القدمين، كأنّ بي أستدعي الجاذبية، وألبست ساعديّ كلّ حليّ الخزف والبرونز التي احتفظت بها أمّي لأيام الأعياد والمناسبات، كلّ هذا لأجل انتظاره فقط، ولم يجئ!

ترى أيّ وجد سكن نواجذي؟ كيف أفصح عمّا يجيش في

صدري؟ منذ أيام وتساؤلات أمّي ترتع في محيط عينيها، أمّا أبي فأظنّه يفطن لأنّ حالي فيه تغيّر من نوع ما وترك الأمر للأيام تكشفه بدون تعجّل. آه كم أنّ بالي غير مطمئن، لم آلف مثل ذاك الشعور من ذي قبل، قد لا يكون هذا الشعور إلّا نتيجة هذيان عرضي أشبه بحمّى وأصله القلب المحفوف بخطر الجوى، لكن مهما يكن من اضطراب، فقد أنجب الحبَ قلبي، بعد أن تضرّع كثيرًا للمعبودة «أور» سيّدة السرور والموسيقى والحبّ.

كنت أخلّل بأناملي خصلات شعري في أرق، والليل بدأ يمضي ببطء وتكاسل، كاد الصباح يهلّ على قلبي ولم يهلّ على بيتنا وجه «حنو» الوضّاء، النوم فارقني والعذاب ينازع سريرتي بين الخوف والأمل، رفعت عينيّ لأعلى، قلت في نفسي: «إنّي أعبد «نوبيت»[٣٢] وأقدّم لجلالتها كلّ تمجيد، أحيي سيّدة السماء، وأعظّم «حاتحور» وأحيي معبودتي، بعثت لها بطلبي فاستجابت واختارت لي أخًا وليفًا، وها قد جاءت بنفسها لتراني، سكنت فؤادي وأبهجته، آه، ما أعظم ما جرى لي، إنّي لا أشعر إلّا بسعادة لا نظير لها، إنّي مغتبطة، لقد كبرت، وحان نضوج قلبي».

* * *

على غير العادة يتخيّر سرب من طير سماءنا سبيلًا للهجرة نحو موطن آخر، يمرّ أمام بصري صادحًا وفي صدحه شجن مستحبّ، ينفتح قلبي على أمل جديد بلقاء قريب، كما يفعل كلّما هلّ «رع»، أناجي المعبودة «حاتحور» أن تهدئ بال كياني، وتقضي الأمر لو أنّ له قضاء، أمّا أن يراودني الحلم بلا مستقر فما أتعسني، وما أبأس الحال!

الآن أجلس -كما جلست بالأمس وأول أمس وأول أول-

أصافح بعينيّ تبلوّر سواد الليل إلى عطور من ضياء نديّ، وجلبة الفؤاد تزداد تحت أشعة الشمس.

كان الربيع يشرع في تفعيل أصابعه داخل متن الطبيعة، ولكن الحياة من حولي تتفاقم توتّرًا، أخشى أن ينساني بذات سرعة اللقاء، فمسير القلق ها هو يتسارع يومًا يليه يوم، وأنا كائنة بجوار كلّ ما شأنه بعث أمل في روحي، أجاور الأعشاب الفتية التي تزهو مخضوضرة في المراعي القريبة، أستنشق الهواء المعبّق بعطر براعم الأشجار، أخرج إلى الحقول فيما وراء سور قريتنا أضرب كأنّما على غير هدى، أقود قدميّ ناحية الطريق الذي جمعنا، أمرح في ضفاف الشوق وقلبي مفعم بالاضطراب، وكلّما خطف عينيّ بريق نهار جديد كلّما ألمّ بقلبي عصف من تشاؤم، تدفئ الشمس خديّ ولا تدفئ برودة أطرافي، يتقلّب الجو من حولي، أجلس على مقعد «البلّوط»، هواء الربيع يطرد الدفء قليلاً بصفعاته التي لا تراها عين، يطوف شبح «حنو» وهو يمتطي جوّاده، تجيء طراوة ناعمة تهفّ وجهي، مع صوته اللذيذ قائلاً: اسمحي لي بزيارة.

قد سمحت، ولكن أين أنت؟ لم لا تأتي فتريح اعتراك المشاعر بداخلي؟ ما الذي حلّ بالوعد النابع من نبرة صوتك؟ صوتك الذي أسكرني، حدّ الخدر.

الهواء يملأ رئتيّ حتى الرخاوة، أقفل راجعة؛ أسير لا ألتفت إلى شيء، كأنّي مخلوقة من غفلة لا تعي من أمر الدنيا أيّ انتباه، والمعالم تكاد تفيض مواساة خرساء، ونشوة مؤلمة تصيب دقّات قلبي وأنا أراه يرحل في أخدود الأفق، والمشهد من خلفه يتخلّص من كتل الانبهار كتيار ماء مندفع للبعيد، ويحلّ محلّ الانبهار

التساؤل: أيّ مصادفة تلك؟ وعلى غرار يأس بدأ يتمكّن منّي، تبدو بقع من غمام تتراقص قبالة بصري كما لو تسبح في أغوار من إحباط، بل كأنّ السماء مقلوبة، وريح ليست مواتية للحظة الشجن العميق تغضّن مرمى البصر، فيحيّرني أمر الطبيعة، أهي تبارك؟ أم تحذّر؟ أم بين بين؟ لم أعد أدري عن راحة البال شيئًا تلك الساعة المتبخّرة من تعداد زمن عمري، يا لك من متمكّن يا «حنو»؟ رشقت قلبي بالسهم ولم تعد هناك، كأنّك قنّاص لا تحفل بدمي، تتلألأ الآن في عينيّ مثل غمامة على صفحة ماء، وتتلألأ معك دموعي، لن أحبسها أكثر، سأهب خديّ بعضًا من سخونة أحشائي، وأبدو تمامًا كبلهاء أعمتها سكرة الوله، فلم تعد تشعر إلّا بليل بهيم لا عهد لها به ذي قبل، تتحرّك مشاعرها بلا انقطاع، وتهدر عواصف قلبها وتطنّ فتنبت عن إحساسات غير مفهومة، تهاجم الفؤاد مثل عصبة من قتلة، تفتك به، فلا يبقى منه سوى صوتك الساحر: اسمحي لي بزيارة.

* * *

بات الوقت ظهرًا، تقدّمت نحو مدخل البيت وكان ثمّة شيء من ذعر محمود يدبّ في خلايا بدني، أظنّني لم أستفق بعد، فالذي يحمحم ويداعب ثرى الأرض بحوافره أعظم من الحلم، ليس حصانه، ولا حتّى أقرب للأمل، إنّ شيئًا في مجرى القدر يخدعني، لأنّ الأحلام لا تتحقّق هكذا، بمجرّد التضرّع والنجوى، والأمل الواهن.

تقدّمت، وخور يستلب حركة قدميّ، أقدّر لي أن أراه ولو من باب الخبل العشوائي؟ هكذا كان عليّ أن أبدو كمجذوبة، شاءت لها الآلهة أن ينصرف عنها العقل، وأنا في اضطراب

وفي توجّس ألج من باب البيت، ولا أستطيع التنفّس حتّى، لا أستطيع أن أشهق ولا أصرخ، لو كان لي أن ألقي باضطرابي على صدره لفعلت، ولو من سبيل العتاب المشتاق، لولا وجود الكلّ من حوله، وهو مثل قرص الشمس يُخفي في بهائه ملامح أيّة تفاصيل، وعلى وجهه ابتسامة لشدّ هادرة، كفيضان من وجد وسحر ومن عفوية.

تسمّرت على باب البيت، كدت أهتف للجميع: هذا لي، فاتركوه، قد حضر من أجلي، وليس أحق بصحبته غيري. كان جالسًا في منتصف كلّ شيء، منتصف الأهل ومنتصف اللا تصديق، وفي بهائه رقّة لا يحتملها قلب واهن كقلبي.

قال أبي:

- ها قد جاءت «سنت»، اجلسي.

إنّما لم أجلس، ظللت في جميع تفاصيله أجوس، باندهاش وبلوعة وجنون، كان يرتدي ثوبًا بسيطًا بلا زخارف، ذا حمّالات، وكأنّما تخيّره ليماثلنا بساطة العيشة، يمتدّ بطول جسمه من الصدر إلى أخمص القدم، أكمامه قصيرة وتنتهي بانسياب، ومن فوقه حزام عريض قدّ من شال ذي ثنيات من نفس قماش الثوب، ينتهي طرفاه على هيئة منشفة مثلّثة الشكل، يحتذي نعلًا بسير في مقدّمته يمرّ بين أصبعي القدم الأول والثاني ويلتفّ حول أعلى القدم متّصلاً بسيور على جانبي النعل. بسيطًا متواضعًا كان رداؤه، خلّابًا بالرغم من ذلك، شديد الأناقة والملائمة.

أيّ عجز وأنا فاغرة فاهي لا أتمالك أنفاسي! لو جلست أرضًا تحت قدميه لهدأت بعض الشيء، ولو أحببت ما استطعت

الآن، فالإحساس الغريب الذي اجتاح كياني كلّه لا يميّز إلاّ هالته الساطعة، والتي ترغمني على المكوث واقفة من دون حراك، يا لأمواج العشق الناعمة التي تتلاطم بداخلي عنيفة صاخبة وتنفذ نحو كلّ أوصالي! حفيف مختنق من أنفاس يفرّ من صدري، في لحظة أصبح تمثالاً مرمريًّا شاحبًا من فرط المفاجأة، وفي لحظة لا أكون سوى قنّينة زجاج بين يديه، لو أفلتها لتهشّمت.

صخب من أصوات يدوّي في رأسي، بلا نسق ولا اتّساق، عذبة تارة، مبهمة تارة أخرى، تلتقي بداخلي، تتمازج، كخليط من مشاعر متنافرة، لكنّها تؤدّي حتمًا إلى نداء مكتوم.

كرّر أبي في لوم:

- اجلسي يا ابنتي.

أجرّ قدميّ وأجلس في تأمّل مبهور، ونفس الأصوات الداخلية تغزوني واحدًا بعد آخر، متنوّعة، مزدانة بالأحاسيس، تروح وتأتي، تتضاءل وتتضخّم، تهدهدني، تؤرجحني، ترفعني لأعلى، توجع، تؤلم، تضيء كشمعة من خيال، ثم فجأة ترمي بي في محيط عينيه فيصمت كلّ شيء.

لا يني يتطلّع نحو عينيّ بفتنة عاشق، لا أحتمل، أكاد أنتحب كطفلة جائعة تيسّر لها الضرع أخيرًا، يقول في هدوء وفي رصانة:

- جئت محبًّا، هل تقبلينني؟

قال أبي مفسّرًا وفي عينيه رهبة:

- إنّ أخاك «حنو» يريدك زوجة، هو ابن حاكم، من أكابر المقاطعة، وقد أورد لأسرته كلّ تفاصيل الزيارة، وهم على وفاق

مع اختياره.

لو تصمت يا أبي، لو تُغلّل ذلك اللا تصديق المطلّ من عينيك، كأنّك لم تكن لتنتظر حتّى في الحياة الأخرى أن أزفّ لسيّد، لكن هذا هو القدر، وقدر المرء غالبًا ما يجيء مرهونًا بعشمه في الآلهة، فاصمت، أعرف من هو ولمَ هنا، دعني أجبه بجوارحي، أيّ سؤال ذاك؟ أقبلك دون ريب، أقبلك قبولاً حاسمًا قاطعًا لا موطئ فيه لتفكير، لو تعرف كيف مرّت الأيام الأخيرة الفائتة على قلبي؟

نهض وتقدّم نحوي، وفي يده أسورة من فضّة وذهب، ناولها لي وابتسامة مطمّئنة ترسو فوق فمه، قال:

- خطبتنا لن تطول، مجرّد أن تنتهي الحرب في البلاد نتزوج.

خفق قلبي، تركت يده ممدودة بالأسورة لا لشيء إلّا لأنّ أعصابي جميعها كانت ترتعش من دون توقّف، وفي عينيّ طلّة عصفور وجد أخيرًا موطنه.

بوّابة تذكّر

القمر يبدر من وراء رؤوس النخيل -المصفوفة بكرم السكري- مطلاً على استحياء، ومقبّبًا بسحاب في لون الفحم، فتبدو ظلال النخيل المتراكمة جوار بعضها، المتراقصة أمام وجه الفضاء اللازوردي المنسوج من ألياف سماء مهيبة، مثل أثواب حداد سوداء كثيفة خرجت تعزية، ولم تك «خرفانة» لتتآلف وروح النهار الحارة، حتّى إذا أرخى الليل سدوله، جلست أمام صحن الباب، مدّت عينيها كأنّها تمطّها مطًّا لتبلغ الأفق القريب، وفي صوت مشروخ أثّرت فيه عوامل الزمن، ومن دون أن تلتفت لـ«ممدوح» الجالس ينصت لها في تشوّق بات عادة، تقول مهمهمة:

- مدينة لا تعرف الهدوء، تلك مدينتنا، لا تعرف الرفق ولا الحكمة، تجيئني الحكايات من دون قصد أو اهتمام، وأنا جالسة في مكاني هذا، أصبحت أذناي بمرور الوقت مدفنًا لشكاوى الناس هنا ومصابهم، تنمو الحكايات وتتّخذ أشكالاً من الإرث الذي لا يمكن التحقيق في أصله وفصله.

وأشارت ببطء ناحية نهاية الطريق وواصلت:

- كم من الرجال جنت عليهم مدينتنا؟ انظر مليًّا، سوف ترى الانكسار في العيون، أنت رأيت «عبيد» الذي رمى علينا السلام منذ قليل، إنّه رجل منكوب، يعرفون حكايته وعلى الرغم من

ذلك يتجاهلونه، يعرفون سرّه ويعيّرونه، عمدًا وغواية. في البداية كان الأمر غامضًا، وربما في النهاية كذلك، فالغموض في أصله ليس غموضًا، ولا شاقّ التفسير، لأنّه واقعة حدثت بين أهل الضلال أنفسهم، خلقها أمهر الأنذال، ورواها أفّاقوهم.

كان الوقت متّسعًا لبراح الحكي، وكان «ممدوح» يجاوبها الاهتمام مرخيًا أذنيه في انتباه وفي غير سأم وبإغراء المعرفة.

- صدّق أو لا تصدّق يا ولدي، فأنا واحدة ممّن عاصروا المعجزة، وشاهدوا الضلال بأعينهم، وقد اعتبرت أنّي شيطان أخرس بعد ذلك، لأنّ فمي المتخاذل المغلوب على أمره لم ينطق، وضميري الهزيل لم يزد عن حق المسكينة، أمّا المعجزة الأكبر فكانت في فكاكها من براثن المؤامرة بتوفيق قدري، وملائمة التعايش المفروض قسرًا بروح كسيرة، مثل ترتيب أوراق كوتشينة بيد إلهية، مكّنها الله من الهروب في سلام، والخروج من المدينة بقطعة لحم على صدرها، ولدها الذي تشبّع مع أولى أنفاسه برائحة الظلم. الكارثة، أنّ لا الرجال هنا ولا النساء، ولا المشايخ حتّى، استوقفهم الضمير، سكتوا على فعلة «شيخ البلد» كما سكتوا على شبهة قوت يومهم قبلها، ترس ضخم يلف فتلف معه مقدّرات الناس الغلابة. شيخ البلد رجل من أولئك الرجال الذين ما إن تراهم حتّى تظنّ أنّ ذئبًا مرّ أمامك، ناعم ماكر مثل الحرير، داهية كثعلب يبحث عن غذاء، يرتدي ثوب التديّن المفضوح، في يده مسبحة لا أظنّه يعرف عدد حبّاتها، كرّس وقته لنكاية الخلق وفرض سيطرة تتشكّك في كلّ شيء وأيّ شيء، لأنّه نفسه لا يثق في كون احترامه وتوقيره بين الناس عن قناعة وعن صدق، يعرف أنّ مشيخة البلد لو ضاعت من

بين يديه، فيا سواد عيشته ويا تعاسته! لذا أخذ يتحكّم في أقوات الناس ومصائرهم وسير حياتهم، يتآمر لأجل كلّ الأمور ومع كلّ الخلق، ليكاد هو من أدخل المؤامرة كفكرة متعارف عليها بين عموم الناس في مدينتنا. أمّا «عرفان» عندما تزوّج، كان قليل الحظّ، ليلة دخلته، ليلة أن دخلت عليه «الرقّاصة» الجنية ولبسته وملكت حواسه، بالطبع شاع أمر جنون «عرفان» وعجزه بين كلّ الناس، فاطمأنوا لفكرة أنّه لم يدخل على زوجته بعد، وأنّها لم تزل بتولاً لم تفضّ، نهاره وليله هائم على وجهه مثل سكران تائه، بات مجذوبًا يعامله الناس كآفة، وفي مدينتنا تموت سيرة الناس أنفسهم ولا تموت الإشاعات ما طال الزمن، امرأته لم تزل جميلة إلى حدّ الغواية، ليس الجمال الذي يحسبه البعض اكتمال الهيئة والسمت والدلال، لكنّه الجمال الفطري، المشوب بتراب الشوارع وإنهاك العمل الدؤوب طيلة نهار صيف مدينتنا القاسي. المهم، لم يعد «عرفان» رجلاً، هو قال هذا، وغيره، وغيره، حتّى بات الأمر حقيقة لا جدال فيها، كانوا في أحيان متفرّقة -تسرية وتفكّهًا- يكشفون عن عورته، وفي لهو يداعبونه لكنّه يظلّ بلا روح، سلّموا لغياب جسده وعقله مع «الرقّاصة»، وأوصوا زوجته بهجره، وكانت شديدة الرضا بما كتب الله لها، قالت لهم لا شأن لأحد فيكم معي، سأظلّ زوجته وسأظلّ معه للممات. وفقط يا ولدي كانت تريد الستر، لا غير، ولم تكن أبدًا ذات شكوى أو بوح، وطبعًا عرف شيخ البلد الطريق إلى بيت «عرفان»، وكان مستحيلاً أن يكفّ عن التردّد عليه، بحجّة السؤال أو الإعانة، ينقده بعض المال فيفرح المسكين، ولا يفترض سوء نية، ولا تفترض، وكان كلّما سمع أنّ «عرفان» قد نُدّه أو خلع ملابسه أمام الخلق أو رمى نفسه

مثلاً في عبّ الترعة لوثة، يترك أشغاله ويهرول لبيته، وما بطن من نوايا يُخفى إلاّ على العليم، والمأرب لا يتّضح مع حسن المعاملة وإخلاص السؤال، ودائمًا -وهو الأعجب- كان يجد المسكينة شاكرة حامدة بشوشة الوجه وفوق شفتيها ابتسامة رضا من نوع غريب، غير أنّه جاهد في توطيد صلات دماثة الخلق وانتفاء المعاملة من خبث الغرض، وراح -في شكل وصيّ- يذكّر «عرفان» بالفأس والزرع والأرض المهملة المتروكة لأقدام الغرباء والسكارى والمطاريد، ولكن اللامبالاة كالقدر، تقتلع التصوّرات كافّة، وبتلك اللامبالاة يهرع «عرفان» للخارج مندوهًا في أحد الأيام، وبذات اللامبالاة يترك شيخ البلد في عقر داره، والنيّة يبلورها إبليس فتصبح فعلًا ملموسًا يخلو من التعقّل واحتساب العواقب، والستّ لا تقدر على أن تصرف الرجل الذي عانى كثيرًا في مدّ يد العون لزوجها، تتحرّج، وفي أدب تلمّح له أنّ الوقت تأخّر، و«عرفان» لن يعود مبّكرًا من غيبته. غير أنّ حماس الشبق أعمى، وما بطن يعرّف عن نفسه بشكل سافر أهوج احتدامي، يسيل لعاب شيخ البلد على بغيته التي امتدّ معها صبره لآخره، يتحايل فتزجره، يحتكّ فتنهره، يقفز عليها مثل مارد لا يعرف الرحمة، فتستغيث كمصير كُتب عليه الشقاء، مثلها مثل نعجة مغلوبة على أمرها في قطيع أصمّ، مثلها مثل الفرق بين مقهورة وقليلة الحيلة، وهو صوته يتهدّج، وبدنه يرتجّ، وقوته تتصلّب، إلى الحدّ الذي يستحيل معه المقاومة، الحدّ الذي توشك معه المسكينة على التضرّع والبكاء والاستجداء، وهي تتساءل: ترى هل لو كان الزوج المغيّب هنا لتحرّك ولو قيد أنملة تجاه ذلك المأفون جزاء ما يأتي؟

تصمت قليلاً، تستدير «خرفانة» نحو «ممدوح» كأنّها

تستنبط فعل الحكاية ومدى تأثيرها عليه، فتجده مغموسًا في نشوة الفضول، تُكمل متحفّزة:

- من ناحيتنا نعرف أنّها شجّت رأس شيخ البلد بعصا شوم، ومن ناحيته يُنكر أساس تلفيقها، وكنّا حين نجيء إلى النقطة التي تبرئ ساحتها أو تبرئ ساحته نكون على يقين من صدق ما تزعم، لكن الذي يهم الناس كثيرًا لم يكن الصدق من الافتراء، كان الحكاية نفسها، بما لها وما عليها، ككوميديا سوداء يتقمّصها ضمير المجتمع الغافل، كنّا نؤكّد أنّ المخطئ شيخ البلد لا محالة، لكن لم نكن لنعترض على الهوجة التي فشت في البلد كالنار في الهشيم، حين حبلت المسكينة وخرج زوجها يدّعي وسط الناس عجزه، قرّر شيخ البلد -وأعوانه- أن تغور من بيننا، فهي عاهرة وخاطية ولا مكان لها بين الشرفاء، أولاً ليبرّئ نفسه من ادّعائها، ثانيًا ليخلص من أصابع الاتّهام العمر كلّه، وإجماع الخلق على عهرها -ذلك الإجماع الغريب- كثيرًا ما جعلني بيني وبين نفسي أفكّر وبروية، وأكاد ألعن اليوم الذي باتت فيه مدينتنا موطنًا للجهل والتدليس والخنوع، أكاد أتحسّر وأنا أفكّر في أنّ المسكينة حتمًا بريئة، وأنّ الخطأ -هذا لو أخطأت- لم يكن خطأها، ولم يكن خطأ شيخ البلد الذي يعرف الجميع طباعه وزيفه، ولا خطأ المرغمين كذلك على قبول كلّ ما يريح عناء عقولهم الخرقاء البليدة، ولكن المؤكّد أنّ الخطأ خطأ «عرفان» في الأساس، صدّقني يا بني، خطأ «عرفان»، ومن غير أعذار.

ثم نظرت بعيدًا، بعيدًا، نحو غرب البلد، نحو جبل ناء يتلبّد بغمام رمادي وبمآس مدفونة في جوفه، وتنهّدت في بؤس وشجن، وفي اعتذار، ولم تزل تهمهم:

- صدقني، «عرفان» هو الجاني الأكبر.

برديّة «واح- عنخ- أنتف» الثالثة

سوف تتأمّل روحي معبودها الجميل القاطن في الناحية الجنوبية بجوار جدار معبده، فتستأنف بعد ذلك طوافها بين ملذّات الدنيا الوافرة. في البدء، مواطن الاستشعار التي تهيمن على سائر الحواس الأخرى؛ العلنية والخفية، تلك التي ما تلبث تتعقّب لذّة إلاّ وألحقتها بأخرى، فيبيت كلّ حسّ نابض مجرّد سلعة قابلة للتفاوض، بل وللمقايضة بسلع أخرى، آنئذ تكون تلك المواطن هي السند الأوحد للروح في مثل هذه الحياة المربكة.

عهد الصبا هو عهد الاكتناز، الإلمام بتجارب الأرض كافّة؛ المبهجة منها والبائسة أحيانًا، وَحْي السرائر كلّها يحضر من تلقاء نفسه، ويستلهم من أبعد مسارب البهجة لذّات لا تأتي بخاطر لا مبال، لكن الذي تعنيه مكامن اللذّات -مثلي- لا بد من أن يخوض سائر دروب النعيم -والشقاء حتّى- حثيثًا، أو على مهل، لم يكن يهم، المهم هو تجربة الخوض ذاتها، بلا احتساب أو تقديرات.

لم يكن في إقبال فترة الصبا أحد يدري عمّا ترومه نفسي، كنت أتلفّح بزيّ العبيد، وأخرج نحو الحياة السريّة للرعية أحتضنها في وله، أعاين أضداد البشر بعين المعايشة، لا عين أبي «حور- سهر- تاوي» التي ترى البشر من علياء، أطمس ترفّعي داخل

بوتقة من الانفتاح، أخالط أجناسًا لم تكن على البال، أسامر الحيارى والأقزام وكالحي الوجوه، أسير معهم فوق الحصا عاري القدمين، أستمتع بكوني واحدًا ممّن باء عليه القدر بسخط مهيب، أماثلهم نكهة عدم الاتّزان الحاضر دومًا، أتنكّر كيفما يحلو لي، مرّة في ثوب زاهد خرفان سحقته دنيا ماكرة، ومرّة في ثوب سكير مختلّ لا يود أن يعي من أمر دنياه شيئًا، كلّه كما تقتضي نشوة الإشباع الذي لا يكتمل فتهدأ الروح المتمرّدة، مساحات شاسعة تحول بيني وبين مرحلة التشبّع بمذاق الحياة، يا لها من مساحات لا بد من أن تجترّ جميعها، كنت أعرف أنّ الذي يجوب وحيدًا في جنبات قصر ملكي ليس كالذي ينطلق حرًّا دون قيد ودون أبّهة، ففي الخارج ثمّة مساحات للّهو والترف، مساحات للمفارقات التي قد يختزنها الذهن كتجارب استثنائية، ثمّة مساحات مع ذلك للحزن والتوجّع، للبكاء الصامت والعشق المباح، للاهتمام بشواغل آخرين وملامسة آلامهم، مساحات عفيّة لإراحة النفوس المرهقة، وبين كلّ تلك المساحات أخذت أرتحل بلا رقيب.

صاحبت أدنى قوم البلاد، بشعورهم المشعثة وأبدانهم النتنة، بمخاط أنوفهم الذي لا يهتمون أصلاً بمسحه فيُهمل حتّى يجف، بأظافرهم المتشقّقة وروائح البول النافرة من كلّ الأماكن التي يعمرونها، بهمجية تقبّلهم للعيشة ومنطق الاستسلام الذي يعجّ بالأسى، الذين يجرعون الجعة من عام إلى عام، يقتاتون بالقديد وتهفو أنفسهم إلى لحظة تسرية، على الرغم من أنّ التسرية الحقيقية ها هنا متوفّرة بغزارة، التسرية هي اللامبالاة ذاتها، أن تكون لا شيء، أن تخطو بين الدروب لست تخاف من غد، لا تجد جدوى من مقاومة التوهان، ولا تعبأ أن تسير في وحل

الغوايات جميعها، كنت جرّبت سائر المعاني التي على الروح تجربتها، بعيدًا عن شظف التدحدر من دسيسة لأخرى داخل ربوع قصرنا المجيد، كان أبي مهدئ الأرضين قد انقاد سعيًا وراء هيبة العرش، تركت له ولأخي ذلك، ومضيت أنهل من معين التفاصيل المرتسمة في أجواء «طيبة» حسبما استطاب لروحي واشتهت.

جلست في الطرقات متسكّعًا، واستمعت ملء وجداني لعزف اليائسين والمغلوبين على أمرهم، تختمر ألحانهم في كياني اختمار شبق غير مأمون، فلا خشية على الروح كخشية متفرّد من التلاحم مع العوام، أنصت إلى شكاوى الوجوه العابسة، والتي تُسرد في لحظات التأمّل القليلة، زرت البيوت المنعزلة، المدفونة في وحل الفقر، دست بقدميّ الطين المتشقّق الجاف، والغصون اليابسة، غفوت تحت الأشجار الغارقة في مياه المطر القاسية، وانغمست في روث المنكوبين، كان العرف الوحيد السائد في الحياة بالخارج هو عرف الانفلات.. من كلّ الأعراف البالية، يعني الكينونة دون عرف موحّد يلمّ التخيّلات العابثة، وكنت أجلس في الحانات أشحذ الشراب، معتمرًا بلذّة الشحاذة عينها، والغريب أنّ كلّ العامة لا يتفوّهون بجملة مفيدة، ولا كلمة من شأنها شدّ الانتباه، بل على العكس، ما وجدته في الخارج -أيام كنت مقبلًا على الحياة كمُحدث- هو الكثير من الخرس، كأنّ أبي لم يكن غير ملك على مملكة من خرس، أمّا عن أكذوبة أنّ الآلهة معهم فعّالة فلم أر، لم يعد بين العامة ذكر للآلهة، كأنّهم يئسوا من استجابتها، فبدّلوا بها العشوائية في جميع طرائق اتّخاذ الحياة معبرًا لحياة، ذابت الآلهة في غوغاء الأدعية والابتهالات التي أعدمها أصحابها بمرور الزمن البليد، كان اليأس، الخرس،

وكانت اللامبالاة، هي بضع المسمّيات التي قد يتّصف بها عالم «طيبة» المسكوت عنه، والذي لم أمرّ عليه مرور كرام، بل طفته باختيار إرادي، أحببت هذا العالم، لا لشيء إلّا لاعتباره مفردة جديدة يتعلّمها عقلي، طعم النبيذ هناك مختلف، هذا إن كان النبيذ هناك شرابًا مفترضًا، وحيث لا بديل عن محاولات الإغراق في التوهان الخام، الصافي، المخلوق لهم والمخلوقون له، ذلك التوهان الملائم تمامًا لسير حياتهم، التوهان البديل عن إفاقة لا طائل من ورائها، وكثيرًا ما كنت أجالس المساطيل، والذين -بشكل ما- يقاومون الخرس على استحياء، أستمع لما توردە ألسنتهم في غفلة الثمل، متناسيًا هويتي لأبعد ما يكون التناسي، منفعلاً مع من ينفعل، شاطبًا انتمائي برضا هوسي.

تتلاحم قناني الجعة البخسة وتزبد، وتهيم الفتيات في الطرقات الموحولة بالتردّي من غير تحفّظ، فالشرف لا يعدو كونه أكثر من لفظة محاها الزمن من عقيدة هؤلاء، أيّ شرف! كلّ البدائل قد تقوم مقام تحفّظات بلا جدوى، وعليّ أن أقرّ بأنّ ضمائرنا -نحن من يقطن القصور الجزافية- مرفّهة ولا سبيل لإحيائها من جديد، فمن كلّ شرف هنا ينبع الأسى ذاته، الأسى اللعين، في حيله التافهة وطعناته الموجعة، ومع الأسى لابد من أن ينبع كذلك سوء التقدير، والأسوأ سوء التوصيف، فإن همن الفتيات على وجوههنّ لا يلوين على شيء فمحلّه نفاد الاحتمال، ومن يمكنه أن يلوم البائسات على محاولة الترفّه ولو للحظات عابرة في مجرى العمر؟ فلا الرجال -رجالهنّ- يملكون حيوية المسمّى وصوابه، ولا هنّ يملكن القدر الأدنى من الرغبة في إكمال البؤس لمنتهاه، هكذا إذن يمجّدون الآلهة سخرية، ويهتفون لأبي حسرة وبغضًا، قد يقف أحدهم رافعًا كأس الجعة لأعلى صائحًا:

- يعيش ابن الشمس «أنتف» إلى الأبد.

فأشعر بنبرة التهكّم الصريحة، يرد عليه واحد:

- ولو لم يفعل! اتركه يرتع في نعيم السماء، واتركنا يا رجل بكفاية السقم.

فأضحك، أضحك لكوني أعيش بين العالمين في شتات مستحب، أرى عدم اكتراث أبي بهم، وأرى عدم اكتراثهم، أراه وهم يتوافدون في الأعياد والاحتفالات تحت منصّته ولا يلمحهم، يراهم أعدادًا غفيرة من قمامة، ويرونه عاليًا يقف في السماء لا تطوله يد، أقول في نفسي إنّ الآلهة تحقّق غاية كلّ نفس كيفما يكون طموحها، والطموح في عالم المطحونين هنا لا يتجاوز كسرة الخبز، وأنّ الزمن الذي يمرّ عليهم لا يمرّ على أبي، فهنا يمرّ ثقيلًا، مجحفًا، في طريق مخالف لسير الزمن داخل أروقة القصر وبين أعمدة المعابد، وجدت بينهم كلّ عورات أبي قد بانت جليّة، صادمة، مُحبطة، واكتسبت منهم -مع مرور الوقت- عادة جديدة؛ هي عادة العيش دون أمل، فأيّ أمل هنا لا بد من أنه بدد، ولا غيّة لاحتراز أو تأويل، تركوا للحياة أنفسهم، وتركت لهم نفسي، روضوها بالمعاناة، وبثّوا فيها لذّاتهم الخرافية، وافتقدت -في تلك الأثناء- حضور «آمون»، كأنّه تفرّغ للعرش دون كلّ الأشياء الأخرى غير المهمة، والتي تكتظّ بها «طيبة»، سايرت نمط تفكيرهم، ذلك التفكير الذي حتمًا لا يفضي إلى شيء، تطبّعت بطباع المسكنة والانهزام والرضوخ، واحتسيت اللذّة في غير هوادة، ورصدت مع ذلك تحوّل الرجال إلى أشكال أخرى غير التي عرفتها من ذي قبل، تحوّل بعضهم إلى جرذان يقرضون الخشب حين لا يجدون الفتات، التحوّل الذي ربما قد

جاء تدرّجًا فلم يلاحظوه وهو ينمو بينهم مثل وحش فتّاك فبدا من طبائعهم الموروثة، تحوّل الأعين إلى أعين غير ثابتة النظرات، تبحث عمّا حولها، وفيما حولها، عن أشياء وإجابات، عن معان ضيعت قهرًا، تحوّل الأسنان إلى أنياب صغيرة تنهش أبدان الشجر لتكفي البدن سوء المجاعة، وانحناء الظهور تبعًا للانكفاء قرضًا، الرجال يحيلون أنفسهم مع الوقت إلى قوارض، فأيّ مأساة! يتشمّمون مواضع الاقتيات ويهرولون نحوها مثل كلّ شيء معوز، الأعين الجاحظة التي لا تبدو أنّها تغفو كانت دائمًا تلاحقني في كلّ مكان، في جلساتي داخل الحانات، وفي تسكّعي في شوارع المقاطعة، في نهمي، وفي حسرتي عليهم، فوق أفرشة المضاجعة، وبين أحضان العابرات، العيون جاحظة، وبؤس الحال جاحظ، قلت للآلهة: ارحمي هؤلاء. رجوتها، فلم تستمتع، كأنّها تقول سأستمع فقط لو عدت بين أحضان الرغد في منفاكم عن ضلال الرعية، قلت واعدًا والغيظ ينضج في نفسي رويدًا ويعتمل: لو أنّ لي يومًا أجلسه مكانك يا حور مهدئ الأرضين لأوصيت قلبي على هؤلاء.

هي «طيبة»، اجتماع الأسود حالك السواد بالأبيض الناصع، والحكمة تأتي أحيانًا من أفواه غير المدركين، يقولون: لو الدنيا هكذا فالبعث عظيم الفكاهة.

مع الأيام ازداد ولهي بهذا العالم، رحت أبحث عن لذّة جديدة، كدت أتنازع بحثًا، لذّة جديدة، جديييييييييدة، تخلّصني من نزق لا يُحتمل، وعرفت بعدها أنّ ما يهيّأ قدرًا قد يصبح أروع اللذّات، كنت جلست في طريق جوار واحد من العامة، كان ملابسه متهرّئة، ولكنّ عينيه تلمعان في شبق، أدركت أنّ في

عينيه لذّتي، لا أعرف كيف بدا لي ذلك، ولا كيف استشرفته، إنّما في جرأة انقضضت على لسانه ليكشف عن أيّ موطن من شأنه تهدئة جسدي، فقال لي في جرأة أشدّ بلسان ثقيل:

- أنا أركب الرجال، لو أنّ لك هوى.

لم أفكّر في الأمر كثيرًا، ولا في جرأته عند طرح ميله، كان القبول أسرع من التفكير، اصطحبني لبيته المبنيّ من خوص، والمُشرف على «حابي» عن كثب، وجدت أنّه لا يتكئ على سند، لا في العيش ولا في المسرّة، كلّ مسرّته مراودة حميمة مليئة بالسكنى اللطيفة، قدّمت له نفسي -ولأول مرّة- ونار التجربة أقوى من نار الجسم نفسه، خلعت عنّي ردائي شغوفًا، ولم يخلع عنه شيئًا لأنّه لا يرتدي غير مئزر قطعة واحدة، رفعه للسرّة، فامتدّ قضيبه طويلاً بائسًا مليئًا بالوساخات، ومن غير مهل دفعه، كأنّه يريد القيام بالأمر لمجرّد الإلهاء لا غير، لكنّني في لحظة شعرت بالاختراق، تحمّلت المشقّة من أجل غواية التجربة، التجربة في حدّ ذاتها لذّة مطلقة.

أخذ يصفع أحشائي من دون هوادة ولا رفق، وأخذت أنهج وأصرخ وأتأوّه، وعقلي يغيب في بطء، صاعدًا للسماء، شاكرًا للآلهة أنّ الألم في حدّ وجعه ملهاة غير اعتيادية.

الديك الذهبي

بوّابة «عاشيت»

وعندما يتمثّل الديك الذهبي في صبيحة يوم، مخترقًا زمن الأسطورة، متجاوزًا تخاريف وثرثرة من لم ير، واقفًا كقبضة من أشعة شمس نهار عفيّة، متلألئًا كنجمة ألماسية حطّت فوق سطح البحيرة المقدّسة، سيقبض عليه، عند ذاك سينقضّ عليه «ممدوح» كحربة هوجاء لينجو ويتماثل للشفاء.

لكن أيّ وهم قد يصبح حقيقة ملموسة عفيّة؟

مياه البحيرة راكدة، منذ زمن وهي تخبره بالاستحالة، غير أنّه لا يرى، أو لا يريد الرؤية، يحتال على المأساة بالأمل، ويشاطر حلمه والأسطورة البعيدة.

هل كنت أنا من ضاجع التخيّل كلّ ذاك الوقت؟ ومن غيري أسفه يصلح لاعتناق الوهم؟ لكنّني بائس، لم أعرف للفرار من براثن وقيعة القدر مسلكًا، تروح بعقلي مياه البحيرة وتجيء، تخامرني ذكريات موجعة، تموت بداخلي أشياء وتحيا أخرى، وأكون في النهاية تعبيرًا مأساويًّا لألم بلا انتهاء.

أيّها الرصد، في خيالي أنت أمل غريب الهيئة، أراك صائحًا طلعة كلّ صباح من فوق أسطح البيوت، تستدعي ذكريات الماضي وآلام الفؤاد الكامنة، تطلّ على الكون بتباه وخيلاء، لا تأبه للأقدام الماضية من تحتك في تثاقل، ولا تأبه لهموم البشر، كلّ ما عليك الصياح، وكلّ ما علينا تأمّل صيغة اليأس في كلّ يوم

جديد، وإعادة نطقها على أشكال أخرى، اليأس، هو المرادف الأوحد لكينونة ابن آدم فوق هذه الأرض المجحفة، اليأس سمير العائشين رغمًا، العائشين موتًا.

يا رصدًا لا يبين عن لونه الذهبي، أجبني: متى ستستعيد طبيعتك الأسطورية؟ متى ستتجبّر وتكشف عن هويتك القديمة؟ إيّاك ونسيانها، فأنا أنتظر، وينتظر غيري كثيرون، أُسقط في مياه البحيرة المكفهرّة بصري، ولا أرى لك أيّ انعكاس، لا أرى إلّا وجهها، فأجبني: أين ذهبت بها بالله عليك؟ أين تعيش «عاشيت» الآن؟

برديّة «ثثي» الخامسة

من غير المعقول أن يحدوني التفكير في مثل هذا الأمر، لعلّ الخديعة قريبة، ولعلّ التواطؤ حتميّ، إنّ ذهب ذهني أيّ الأمرين أمرّ فإنّ الأمرين «مرّ»، أخشى من الانقياد وأخشى أكثر من عدم المثول، فالانقياد قد يأتي بسقوط مروّع، وعدم المثول قد يهيل على مكانتي تراب النهاية.

يا حسرة البال! أمن المعقول إذن أن أفكّر مليًّا؟

في يدي كأس من نبيذ لم تزل ملآنة، وفي فمي طعم العلقم، ومشارف النهاية باتت تلوح كقرص شمس يتثاءب، علام أراهن؟ المقامرة في ظلّ التشتّت غير مأمونة الجانب، نتائجها ليست مضمونة بأيّ حال، ماذا لو أنّ التواطؤ نجم عنه خسارة كلّ شيء؟ خسارة التاريخ والقادم، خسارة الود والمنّ، لكن أوليس الزمن بمحلّل عبقري للمسائل برّمتها؟ إنّ الزمن يقول الخيرة في المراهنة على المؤكّد تبوأه لمقاليد العرش، «واح- عنخ- أنتف» بات أفوله قريبًا، هو الآن ليس أكثر من أسد تساقطت أسنانه ونال منه الهرم، وعمّا قريب، بعد يوم أو عام، سيترك الحياة بأسرها ويصعد للسماء، ساعتها أين سأصبح؟ إمّا مواليًا للجديد وإمّا معارضًا حقّ عليه الاستبعاد، لكن أين ضميري وسط هذا الفوران في عقلي؟ ألا أمتلك ولو قسطًا زهيدًا من إخلاص؟ أقلّه الوفاء لمن مكّنني من حيازة كلّ ذلك المجد، إنّما أيّ هبل! إنّ المجد في النهاية لا يكون إلّا للأذكياء المستشرفين،

الذين يدركون تمامًا من أين تؤكل الكتف، ثم سواء شاركت أم لم أفعل فإنّ «نخت- نب» فاعلها، بي أو بغيري أو على انفراد فهو قائم بالفعل لا مناص، لقد بدأ بالفعل في تجهيز قبر والده المعظّم فرعون البلاد، بدون الطقوس التي أوجبها تجهيز الملك نفسه لقبره، جنون العرش استولى عليه ولن يترك له سكّة لخيار آخر، وقد طلب منّي تحديدًا أن أملأ حجرة دفن مولاي بكلّ لوازمها، وبكلّ سخاء، من منسوجات وعقاقير وزيوت عطرية ونشارة وأوان من فخّار تفوق في العادة الاحتياج الفعلي لتحنيط الجسم، وعليّ -سواء شئت أم أبيت- أن أستحضر كلّ ذلك إيذانًا باليوم الذي سيحنّط فيه سيّدي المنزّه، أيّ حيلة لي؟ منذ خمسين عامًا والفرعون المبجّل جالس لا يريد مفارقة العرش، والصغير الذي صار كبيرًا وأوشك عمره على دخول دائرة العدّ التنازلي سئم الانتظار، ليس غيره أولى بتذوّق نكهة الحكم، ولو لأشهر قلائل، كل ما سأفعله التواطؤ والمباركة العلنية، وتحفيز عقلي وخبرتي للسيطرة على الطبيب «زاري» والكهنة، أُرسل الطبيب بعيدًا حتّى لا يتمكّن من فضح ما دسّ في شراب الملك، والكهنة ينشغلون بأيّة خطة ملفّقة ويكون الأمر، فهل هذا عليّ عسير؟ كم من دروب مظلمة سلكت وكم من مناح مشبوهة اتّخذت، ولم يحلّ عليّ ذلك إلّا بالربح الوفير، فأنا في واقع الأمر أنا، من دون تجميل ولا تزيين، ذلك الرجل الذي استحلّ دم آخرين من أجل علو المكانة واستجلاب الرفعة، فهل أدير ظهري للمستقبل بدافع الولاء الأحمق وأخسر كلّ ما كدّ عقلي لأجله؟

يسقط في كأس النبيذ مخّي، يصطبغ بلونه القاني، ينفرج عن شرّ استوطنه وغفى، أخذ يصدر الأوامر في حزم وفي طمأنة، أشعر بـ«آمون» يلوّح أن اذهب لذاك الطريق.

كيف أفكّر في هذا؟ «ست» الملعون ينخر في ضميري الغافل ويوسوس، يسقيني الأفكار المريحة فكرة وراء فكرة، أليس هذا الفرعون من أتى كلّ الشرور من أجل نزقه ونزواته؟ ألم يركب الجواري ويُركب من الخدم؟ ألم يذبح ويقمع ويُخرس الأفواه من أجل مدّ الحكم في عدم شوشرة وبلا مضايقات من العوام؟ ألم يتجبّر ويطمع في ملك البلاد من أولها إلى آخرها؟ ألم يزج بالجيش وبدماء الأبرياء الشباب في معاركه العبثية اللاهية؟ ألم يمكّن كلّ المدلّسين والمنافقين من مقاليد السلطة؟ هاه.. وأنا واحد منهم. ألم يمنع يومًا عن العامة القمح والزاد والمؤن من أجل الجيش وبقلب بارد لا مكان فيه لعطف؟ ألم؟ ألم؟ ألم؟

لكن.. على الرغم من ذلك عليّ أن أكون محايدًا. ألم يكن معي معطاءً محبًّا لا يؤول جهدًا من أجل إرضائي؟ ألم يشاركني همّه يومًا في صدق وجعلني له في موضع الصديق؟ ألم يعف عن كثير من مثالبي وهفواتي بدافع تلك الصداقة؟ ثم ذلك الابن الذي يراودني الآن ويمدّ لي يد الشراكة لم يكن يومًا لي محبًّا، كان حاسدًا ناقمًا ناكلاً، كارهًا لأبعد ما تكون الكراهية، فبأيّ عرف وشرع وعقل تجمعنا اليوم مصلحة؟

أبتهل إليك يا معبودي الذي يسكن السماء أن نجّني من سوء الاختيار، أبتهل أن تشفع لي وتمدّني بالحكمة والتروّي واليقين، ليس يهدأ عقلي ولن يهدأ ما دامت أفكار الملعون «ست» تجتاحني، كلّ القرابين متاحة يوم أن تخلّصني من عذاب التفكير وتهدي اختياري إلى وجهة الصالح والخير، واحجب عنّي بلاء سوء الاختيار.

إوزة ساكنة تربض في قلب وعاء من فخّار، تتطلّع نحوي

بعينيها الميتتين، كأنّها توحي لي بنظرة مولاي المبجّل في يوم القدر، تشمئز نفسي من فكرة مجرّد النظر إليها، فأغطّي الوعاء وتزوم نفسي، وأغوص في حيرة.

وكانت الشمس على وشك المغيب...

ذلك لمّا خرجت على غير هدى، قلت في نفسي إنّ الطواف بين الشجر والأزهار وتنفّس العطر في تلك الساعة قد يسوّي ما تنتأ من خلايا العقل. بقميص شفّاف أخذت أسير بين حدائق المانجو والتفّاح، من دون حراسة ولا خدمة، كم أنّ العقل مهما بدا واثقًا من حصافته بحاجة مع ذلك لمن يقوده حتى في استخدامه للحدّ الأدنى من اكتشافاته وتأويلاته هو، بذات القدر الذي يحتاج فيه للهداية وهو يستخدم إمكاناته في الاستنباط والاستدلال، لهذا فعليّ الرجوع لحكمة المقتضى من أمثلة الأوائل، إنّ الزمن يقود مثل شعلة مهيبة في تلابيب ليل حالك السواد، والأمثلة تقود، والتاريخ زعيم ماهر لا يشقّ له غبار في العناية بمن تخبّط في مجاهل التفكير، آه يا مولاي، ربما -ومن دون احتمال مسبّق- آن اليوم الذي تصبح مصر كلّها في حالة حداد، يمزّق كلّ إنسان ملابسه، وتُغلق المعابد، ويتوقّف تقديم الأضحيات، وتُلغى الأعياد لاثنين وسبعين يومًا، ويقوم مئتان من الرجال والنساء يغطّون رؤوسهم بالطين ويلتحفون حول صدورهم القماش الأبيض، بأداء أغان جنائزية إيقاعها من شجن وتنغيمها بائس، تتحدّث عن فضائلك ومناقبك لمرّتين في اليوم، آه يا مولاي، تلك طقوس الحِداد عليك يا سيّدي.

يغرّد طير أعلى رأسي، تبدأ مراسم جنازة مولاي بشكل مجازي، أسرح مع هذه الفكرة، وأرى نفسي وقد تخلّصت

من عبء المغضوب عليه لأتفرّد في جلال المنصب ثانية، أرى مغسلة من خشب طولها سبع أقدام وعرضها أربع، وقد حليت أركانها الأربعة بتعاويذ أربع تمثّل كلّ منها علامة الحياة، رأيت نفسي دامعًا ونبي «آمون» الأول يقرأ التعاويذ السحرية المقرّرة لمقام مولاي المبجّل الصاعد إلى السماء، وجسده المصمت يدلّك بالزيوت ويُمسح بالأملاح، هل حقًّا هذا ما سيكون ومن دون تطوّرات محبطة؟ تتشابك الأفكار جميعها في ذهني، يتردّد صوت «نخت- نب» في رأسي كوسوسة مغرية: (لأجعلّن «طيبة» أرض الذهب والفضة وليصبحنّ عددهما كعدد حصا المملكة/ لن أهوّن من شأن الرعية كما دأب الفرعون أبي/ هو هالك لا رجوع، فأجعل من نفسك مواليًا ولا تعاند القدر/ ولا تنس يا «ثتي» عليّ أن أبدأ حكمي بالعين الحمراء فاخلص من جمع الثوار الذين تحدّثنا بشأنهم، علينا أن نخيف العامة في الأرض وفي السماء لكي يستقيم ولاؤهم وتلبسهم الطاعة الدائمة).

لم يزل الطير في اطمئنان يغرّد، يا معبودي العظيم، تلك بشارة، إنّ الطير إذ يغرّد فالمعنى محسوس، تلك مباركة منك، لعلّك مللت الفرعون المعظّم بدورك، وبقدر ما مننت عليه طيلة السنوات الطويلة الماضية بقدر ما أوقعه مجونه تحت طائلة سخطك المحرّمة.

مولاي المبجّل/ أيّها الغرّ، قد خانك ولدك قبلي، قد أوحى لك بمؤامرة وهو محيكها، قد أرسل برديّة ملفّقة وبثّ القلق بداخلك.

في الواقع لمّح لي -مجرّد تلميح- بأنّ البردية تخصّه، أسفر لي بلامبالاة أن أجمع بعض العامة وأوجّه لهم الاتّهام، ومن دون

دليل، زمرة ننتقيها من الرعية ويصيرون الفداء لشطط الملك القادم.

ثم وقد رسوت على برّ، عليّ أن أجمع اليوم أولئك مستحقّي العقاب، لينزل عليهم جبروت الفرعون الأخير، عليّ أن أختارهم بدقّة الفطن، وأن أمنحهم نظير سوء بختهم وقلّة حيلتهم العقاب الأمثل لضعة حالهم، وأن أظفر بدوام التربّع فوق رؤوس الجميع، لذا فعليه، أنا الآثم، أعترف:

«أقرّ بكوني خائنًا، فسامحني يا مبتدع الجمال عمّا سيكون وقد سطرته عليك السماء».

برديّة «حنو» الاستثنائية (بمنطق الهوى)

الآن أرى -كما لم أفعل من ذي قبل- قمرًا يتساقط ضوؤه على وجهي كحِزم من ذكريات قد أسرفت مسبّقًا في تقييد تحرّكها في ذهني. الآن لا أفعل غير أن أغالي في تأنيب النفس لحدّ قداسة الإقرار بالذنب، كما لو أنّ الذنب ذاته يتمثّل وحشًا يوشك على نهشي بمثل ما ينهش الضبع جيفة هامدة، إن كنت هذا أنا فمن ذاك الذي اغتنى جسمه وتشبّع بداء اللذّة؟ من ذا الذي استوطنته تأوّهات المقبلات يغرفن من أعصابه غرفًا؟ يا للأسى! كيف أبدو الآن صغيرًا إلى حدّ لا أُرى؟ كأنّ جَرمًا بعيدًا اصطحبني لأبدو جواره من بعيد أشبه بنقطة سرمدية لا تفاصيل لها، نقطة مخزية في صدر كون لا يلقي بالاً.

هل في الحقيقة قد تمّ الاتّفاق ما بين القدر والزمن ليحدث ما حدث ويترك مثل تلك الآثار الجاثمة فوق الضمير؟ أواه يا «سنت»، أنا لست الشخص الذي يعمر قلبك، أنا غبشة نائية من لا شيء، وجود مجهول إثر تقلّبات أكثر إبهامًا.

في ذلك المساء، وبينما جسدي مستلق فوق فرشة من قطن تنتّفت أطرافها وتهدّلت، وأكاد أكون مستسلمًا لخبط ذلك الدوار الذي يؤرجّح رأسي، عقب زجاجة كاملة من نبيذ، تلاهما أرغول من نبات خشخاش عفيّ أصيل المنبت قوي المضمون،

كان الذهن قد أُقتضي بطلّة بريئة من وجه «سنت»، بل ذُهل حتّى حين تصدّرت ذكرياتنا مرمى تفكيره، وكنت كلّما أكاد أصل إلى أروع جزء مؤثّر في سير الذكريات، وهي تتفقّدني بعينيها الآسيتين، ودموعها المفزوعة، فأرابط المكوث حثيثًا من تلك النقطة بالتحديد، يحفّ بي ذلك الخليط من التأوّهات والأنين، الشبق والهوى، نفس الخليط الذي راودتني غوايته طيلة أيام كاملة، لم يعف بدني في أثنائها عن فؤادي المعتمل بـ«سنت»، دون غيرها من نساء الكون، لذا قد يبدو الوجع كامنًا في آخر حدود الإحساس، ويبدو معه الذنب منبّهًا لا يكفّ عن القرع في تجويف رأسي.

قاعدًا حطّ جواري أحدهم، واحد من الأصدقاء الذين تبادلنا الأسرار والحكايات، ثملين مرّة ومؤنّبين مرّات، بحت له وباح لي، تجاذبنا أطراف الكوامن من الحكايات والتنهّدات، حطّ مبتسمًا مثل تلك الابتسامة التي تحار في أمرها ولا تدري إن كانت ابتسامة تهكّم أم ابتسامة مواساة، ثم قال في صوت هادئ هدوء ريح متربّصة:

- يا لحظّ المؤرّقين حبًّا!

جاوبته بنظرة عابرة من جنب عيني، بعدها اتّجهت ببصري إلى السماء ثانية، وفي عينيّ ضآلة الأجرام البعيدة وضآلة نفسي. أضاف في غير استحياء:

- رأس العدو أولى بك من قلب لا يهدأ.

- ومن أخبرك بأنّ رأس العدو مستعصية نفس استعصاء القلب المدجّج بالتوبيخ؟

- كفّ عن تصوّراتك الجزافية، لم يطل بدنك بعد كلّ الممارسة الجديّة إيّاها إلّا الكثير من الصحّة والعافية، ثم كلّنا قد أُغرقنا في ملكوت الشبق لتلك الأيام القلائل.

- لسنا كلّنا نفس الرجل، ثم كيف لغبي مثلك أن يعرف؟

- تقصد الحبّ؟

مغتاظًا لكمته في وجهه، فمضى يقهقه وأكمل:

- وكيف لأحمق مثلك أن يقدّر جموح الحبّ نفسه؟ بأمواجه الهادرة ولطماته المتدلّلة، لا ذنب في القليل من التسرية، صدّقني.

- لكنّها تنتظرني وأنا أعبث مثل مراهق.

- ليكن، هب يا أخي أنّ الزمن عاد بك إلى الوراء واستعدت البعض من نزق المراهقة المستعذب.

- آه، بل قل لي كيف أرجع للوراء كيما أستعيد قدَرًا يكتسي بالحماقة والهوى فأبدّله؟

- إن شأنك في ذلك شأن من مسّه خرف، ولا جدوى من إقناع معتلّ مثلك، فلا شيء يعود للوراء يا أهبل.

لا تصدّق ذلك المفهوم يا صديقي، فأنا أعود للوراء، منكّسًا تمامًا مثل لعنة قدرية وحلّت بالزمن، أكاد أُمحق من فكرة وجود وغد مثلي في قلب بكر مثل قلب «سنت»، لا شيء في الحقيقة قد يعوّض عن الخيانة إلّا خيانة مماثلة فيتّزن الذنبان، وساعتها يصبح للغفران التماسًا مقبولاً، سوف أضع نفسي بديلاً، فهل كنت لأقبل أن يشاطرني رجل غيري فيها؟ ثم هي لديها تلك الحاسة، استشعارها بمكمن الخزي لا يضاهيه استشعار،

فهي ستشعر إذن بما جرى، حتمًا ستفعل، لن أخبئ جريرتي ولن تنطلي عليها أيّة تلفيقات، ستسألني مباشرة: ما الذي غيّر أمرك؟ وسوف أقول في ارتباك وفي ململة واضحة: لا شيء. ستصرّ على أن تفضّ سرّ دواخلي، وفي النهاية سأعترف لها بكلّ شيء، لا محالة، قلبها مخبرها، بصّاص ولو من باب الارتياب، قلبها يُشبه المرآة التي سوف أرى في متنها تشوّهي.

ينوء البحر بحمل الموج وينوء قلبي بحمل الذنب، في السماء التي هناك ومضة خاطفة من نظرات «سنت»، كما لو أنّها تستكشف الخبايا اللئيمة الرابضة بداخلي، أمهليني يا «سنت» بعض الوقت للفكاك من إثم الذكرى البائسة، فالكرب الحميم يحزّ في فؤادي، وقد لا يكون هذا الشعور إلاّ عقابًا تسلّطه الآلهة، ومهما يعتريني التساؤل عن جدوى أن تنزع روحي للمساءلة ما دمت لا تعرفين عن أمر المحرومين شيئًا، فمؤكّد قد أُنبئ قلبك، وهذا ما أخشاه.

خرير ماء في الجوار، أصيخ السمع، وعلى مقربة صوت «سنت» بدا كأنّها تغتسل من الكرى بمياه «حابي» المقدّسة، أنصهر قليلاً في خضّم الخيال، أهرول نحوها، ولم يكن ليدور في خلدي أنّها قد تصبح يومًا بمثل ذلك الشعاع القادم من عينيها، فأكاد أقول: كيف تحولتِ يا «سنت» إلى ملاك؟ يرفرف جناحاها ويضمّان إرهاق جسمي المثخن بالتأنيب، لكنّ يدًا تقع على كتفي، وصوت صديقي الهادئ هدوء ريح متربّصة يقول وهو يهزّني:

- هيا أفق واستعدّ، القائد يجمع الجنود.

بوّابة لأعلى

من أدخل اللجام في فم جوّاد جامح جموح ريح عاصفة؟ من سرّجه؟ من علّمه الطاعة والمثول للقدر قهرًا؟ لعلّه الزمن الذي يحدق بالمرء مثل خطر لحوح، لو اشتغل المجاز في الأوجاع لتفتّقت منّي تقرّحات قد تبتلع -مثل دوامة زمنية في فضاء سحيق- منطق الكون بأسره.

ينفضّ الجمع من حولي، تجري الراقصة التي كدت أخنقها بيد مغيّبة لتختفي من أمامي هلعة، لم أعد أعرف ما الذي يجرفني بتياره؟ هل مكيدة من الألم؟ أم إعياء الذكرى المفرطة؟ لم أعد أعرف، كلّ ما أعرفه أنّني حمار، وقد لا أسلم من تبعات ما أتيت بيدي العارية، كيف أضمن أنّ الراقصة لا تحرّر ضدّي شكوى؟ لا شيء في هذه الحياة يضمن أيّ شيء، لا الاعتذار يضمن النجاة من النتيجة، ولا الانغماس في الماضي يضمن الانتقام، فأنا لن أصبح يومًا شخصية مختلفة، سوف أظلّ خانعًا للماضي مسلوب القوى ولو توفّرت الإرادة.

يجلس المنتشون كلّ في مكانه، تنصرف الليلة نحو مجراها الطبيعي، يعلو إيقاع النغم ثانية وترتفع الكؤوس ثانية، كأنّ شيئًا لم يكن، أهكذا عالم الليل؟ نسيان فوري ورجوع سريع لغواية الانتشاء.

يعود «الترس» لمكانه وراء صفّ الزجاجات الذي يكدّس البار،

ولم تزل في عينيه نظرة تحمل اتّهامًا صريحًا بالخبل، أو تستهجن وجودي أصلاً، كلّ الأمور متشابهات، ومهما كان حجم الضغائن لا أعتني، هكذا سطر عليّ القدر.

يشملني سحر الزَبد مرّة أخرى، فأجرع زجاجة بيرة على فم واحد، كمسطول وجد زاده بعد حرمان طويل، كأنّي لم أخلق إلاّ لمثل تلك التجربة، و«الترس» يحدفني بنظراته، كأنّه يخشى عليّ من التجربة، ويخشى من تهوّر مماثل، وفي يده منديل قماشي ظلّ يمسح به أعناق زجاجات الخمر.

كيف أصرّح له بما يشتغل في داخلي؟ والذي أعمله جريان الخمر في رأسي أكثر، كيف أسوقه ليعيش معي في عالمي القديم؟ بل كيف يمكن لأيّ واحد هنا أن يشعر بي من الأساس؟ آه، غريمي الأصيل في المأساة هو الماضي، كثيرًا ما انتصر، كثيرًا لم يمنحني هدنة، وكان كلّما أوشكت على الاختباء منه يخرج لي مثل مارد في ظلام دامس ويبدّد راحتي.

المفردات تزدوج أمام عينيّ، قشر الترمس والفول السوداني، الزجاجات الفارغة والملآنة، وجوه المريدين، والذي يأبى الازدواج هو وجه أمّي، يعافر التحرّر من قضبان الماضي فيظهر أمامي، جليًّا كبدايته بالمحنة، متفرّدًا بالشكوى متلألئًا كجوهرة من ماس، وأسيانًا كذلك كيوم غطّته وحشة الترحال الأخير، يوم كان مصطبغًا بسمات الوداع، بدت عيناها وقتذاك تعبران الخطّ الفاصل بين الغفو الحتمي واليقظة المأمولة، تكابدان الاستيثاق في ثوب الحياة بنظرة متيبّسة، لولا الجسد الذي مضى يوهن في لحظة، وترتجف أطرافه ذات ارتجاف السماء في ليلة رعدية.

تجوب الخمر رأسي ومعها تجوب الذكريات الحارقة، أذكر

كلماتها الأخيرة: ارحم نفسك يا ولدي. لم أكن أود أن أفهم إلام تلمّح أو مم أرحم نفسي؟ أرحم نفسي من عناء الماضي، هو لم يرحمني، هو الذي يجيئني من تلقاء نفسه ومن دون دعوة. أم أرحم نفسي من هاجس الانتقام؟ عبثًا يا أمّي، عبثًا لو تخيّلتِ أنّ لي طريقًا مع النسيان، أنا المخلوق الوحيد في البسيطة الذي سطرت على جبينه التعاسة الأبدية، تعاسة الدنيا والآخرة.

كان الجبل واقفًا بقدمين واهنتين، يتملّى في وجه أمّي الشفيف، وكانت السماء تكاشفني بالحقيقة المأساوية، تلك يا «عبيد» أكثر نساء الأرض طهرًا، تلك من سقاها الزمن سمّ المهانة لكنّها بالرغم من ذلك نجت بعون البراءة نفسها، هي المرأة التي عاشت في جسد مهمَل، ولم تهملك، إنّها كلّ الظنون الإيجابية، إنّها رقعة ناصعة من السماء، ملاك كان قدره أن يحطّ على الأرض ويكابد أوجاع البشر، فلا عزاء للملائكة.

بلا داء رحلت أمّي، في سلام وسكون وفي هدوء، كأنّها تخبر الدنيا عن استسلامها للمقدّرات كافة، لم تترك شيئًا يذكّر الناس بها إلّا أنا، وماضياً لئيماً قد يطويه الزمن. كان الفراغ قد أوغر في صدري بعدها، وكانت الحياة برمّتها مفزوعة من فكرة أنّها هذه المرّة لن تعود من مشوارها، الفكرة الأنانية، القاسية، الماكرة، فكرة أنّني منذ اليوم بت وحيدًا، لأمرّ ما تكون وحدتي.

برديّة «نخت- نب» الأولى

في معبد «آمون»، أقدّم القرابين، وأجلس راكعًا خاشعًا، أبتهل معتملاً بالأمل:

«يا معبودي الذي في السماء، سوف يتحقّق ما تتنبأ به تمامًا دون أن يستطيع أحد ردّه أو الوقوف حياله، وأنّ ما تأمر به سوف يصير حقيقة ثابتة رائعة، لعلّ بمقدورك منحي الحكم لأكثر من مئة عام، وأن تثبّت المُلك لابني الذي على الأرض، مدّ من أجل بقائه أكثر من أيّ ملك آخر، أكثر منّي ومن أسلافه، مراعاة لما أفعله من خير لشخصك المقدّس، قل من السماء ليكن بأمري من بعد أمرك يسوس الملك، لأنّك يا من توجتني تعرف أنّي لن أنحرف عن اتّباع ما أوصيت به يا سيّد الآلهة، اجعل مياه النيل العظيم في عهدي السعيد تفيض بوفرة وخير ما يكفي لإطعام مملكتي بالكثير من المؤن، اجلب إلى قصري الملوك الذين يجهلون «مصر» وظهورهم محمّلة بنفائس التقرّب».

يصطفق دبيب النشاط في ربوع «طيبة»، يعلو ضجيج حركة الصباح الذي يخرج فيه الناس للحقول والمسارب، ويربد ضجيج عقلي.

ساعة كان السطوع الأول لـ«رع» على وجهي، ساعة أضحيت حاكمًا، ملكًا، يكلّله جوهر السلطة وتباركه مظاهر الخلود، منذ مهدي وأنا فرعون، ولدت إلهًا، وفي السماء أكون إلهًا، فأيّ

جريرة لو تعجّلت قليلا دوران العرش في فلكي؟ إلى متى سيظلّ الفرعون المجيد الأبله مستمسكًا بوثاق السلطة؟ ليست هكذا تكون سعادتي، فسعادتي في التبوأ الفعلي للزمام، بدأ جِلد وجهي يتهدّل، وبدأ الهزال يعتري بدني، أفلن يقدّر لي نحت اسمي في لوحة العظماء؟ ألن يقدّر لي صنع لوحتي الخاصة؟ لأعدّد فيها جليل أعمالي للآلهة، ولو تدري الآلهة أن قد صنعها خيالي بالفعل! مسطور بداخلها أمنياتي وانجازاتي، سوف أقصد بكلامي فيها جميع الآلهة، لن أختصّ واحدًا دون آخر، سأقول: «ملأت معابدكم بأواني القربان الفاخرة، بنيت معابدكم، بنيت سلالمها وأصلحت أبوابها وأبقيت قرابينها المقدّسة لكلّ الأزمان، أوكلت همّي للرعية، أسبغت عليهم السعادة والصحّة والرخاء، أنشدت المدائح والتمست منكم الحماية والرعاية».

لكن ما لها لا تستجيب الآلهة لرجائي؟ لا تفعل إلاّ أن توغر صدري ببلادتها تجاه الفرعون أكثر، وتدفعني لنيل حقّي بالتحايل والتخطيط، فما هذا التجاهل؟ وددت لو تبسط لي الآلهة يد المحبّة يومًا، لكنّ خمسين عامًا من عمري مضوا ولم أرتق نحو المجد الأبدي الخطوة الأخيرة بعد، فأيّ هزل! أنا المتفرّد بالجلال، القائم بعمل الآلهة فوق الأرض، المانح ذاته صفة الرضا، الخاشع دومًا لأوامر السماء، أنا، أمنح نفسي للسماء دون العرش!

لذلك أحتاج المغفل «ثثي»، أحتاج دهاءه وبصيرته النافذة الواعية وقدرته على تقويم المسائل وترتيبها، أستخدمه وسأرضيه بمنصبه عينه، يكفيه أن يظلّ وزيرًا للدولة كما هو، كلّ طموحه أن يبقى في كرسيه، ليكن، ليفعل وأنا سأقبض على خيوط الأمور

بين أصابعي، وأنمّق الأحوال حسبما يتراءى لي، أمنح نفسي طبائع الآلهة التي في السماء، من دون أن يناهضني أحد، أجعل للفظة الفرعون كلّ سطوة التاريخ، أستعيد المجد الذي زحزحه والدي، ومعه أستعيد بهاء العرش وسنوات الحرمان.

كان «رع» يتجلّى في بطء، مالكًا أطراف الكون بأصابع من بطش ومن رقّة في ذات الوقت. عدت من المعبد وفي بدني إرهاق الترجّي، وفي غمرة ترحال الرأس، دخل عليّ خادمي الأول، قائلاً في هدوء:

- قد عاد السيّد «كاور- أنتف» يا مولاي ويطلب المقابلة.

انتفضت في غبطة، جلست على الكرسي وأشحت بيدي ففهم الخادم وهرول إلى الخارج يستدعي «كاور»، لكن قلبي ظلّ ينبض بالتخوّف، هل أتممت مهمتك يا «كاور» أم بئت بالفشل؟ هل سيسعدني خبرك أم سيحبط آمالي؟

بدا أنّ «كاور» قد هبط من رحلته مباشرة على القصر، كان مغبرًّا وملابسه غير مهندمة، أقبل نحوي منحنيًا مطأطئ الرأس وعلى وجهه ملامح خبر سعيد، ربت على رأسه بيدي وقلت:

- اجلس، اجلس أيّها الوزير القادم.

جلس متنهّدًا يسترجع أنفاسه، أشرت لخادمي فهرع يناوله كأس جعة، رشفه في سرعة وقد كان العطش باديًا، انتظرت ريثما يستريح من عناء الرحلة فقال:

- مولاي المعظّم زارع القداسة في معابد الآلهة، تبعًا لأوامرك رحلت من «قفط» متّتبعًا الطريق الذي رسمته جلالتك، بالرغم من مشقّة نهج خريطة سيري، محافظًا على خصوصية الرحلة

وسريّة المهمة، رافقني جنود ينتمون إلى الأرض الحمراء في أملاك «أوابوت» من منطقة بين جبلين متوازيين، إلى «شابيت» حتّى مشارف الصحراء، اخترتهم واحدًا واحدًا، كان القمر يظهر جليًّا تلك الأيام، ربما يدعم خطّتك يا مولاي المبارك، وكان كبار قوم المدائن وأهالي الريف والحضر يتجمّعون ويسيرون خلفي كلّما حططت في موطن، يعرفون مكانتي لديك يا سيّد الأرضين، ويفتتحون الطريق أمامي كيما يقضون على أيّة بوادر عداء من أيّة خصوم أو أيّة محاولات للغدر بي، خاصّة أنّ أعداء فرعون البلاد المعظّم قد ازداد عددهم في الفترة الأخيرة لما أسبغه عليهم ملعون «إهناسية» من غواية ومن عطاء غير مسبوق، وقام أبناء الصحارى -بمعاونة جنودنا- بحراستي، فقمت مع جنودهم وغيّرت الطريق البرّي إلى الطريق النهري، كان ثمّة ارتياب قد عمر نفسي تجاه الطريق البرّي، عند أن حذرني واحد من أعواني السريّين من أنّ بعض المتربّصين الذين بلغتهم أنباء عن ترحالي في الصحراء الموالية لفرعون «هراكليوبوليس» قد يقطعون علينا الطريق، خفت -جلالتك- أن يحدث لي مكروه، أنت تعرف أنّني لا أخاف على نفسي قدر ما أخاف على هوية المهمة، أو يُقضى ما لا يحمد عقباه، فلا تراني ثانية، ولا تنجح المهمة، ثم غيّرت البلاد الحمراء بعد ذلك إلى أرض الأعشاب وفقًا لتعليماتك أيّها المبجّل التي أوردتها في برديّتك الأخيرة، وكنت أمنح من رافقني قربة ماء ملكي وعصا وجرّتين من العسل وعشرين رغيف يوميًّا، وكانت الحمير هي حملة الجِرار، وإذا تعب أحدها حلّ آخر مكانه، ثم ضربت في الوادي اثني عشر يومًا معظمها في «أبداحت» و«أياحتتبنيت»، وهكذا بعد سفر شاق وصلت إلى البحر الكبير، بنيت مركبًا وأتممت شحنها بكلّ

شيء كما أخبرتني، حمّلتها كميات وافرة من بذور أشجار البخور والشتلات الخضراء وخشب الأبنوس والعاج وذهب «عامو» الخام، وأشجار «التنوتير» -المقدّسة لسكّان الصحاري- التي جلبتها من أرض الآلهة، ثم أخذت معي أحجارًا رائعة لتماثيل المعابد، كي تكون هديتك لشيوخ الصحراء، وبعد أيام كنّا في صحراء «السودان» عند خادمك كبير شيوخ الصحراء، وتخيّل يا سيّدي أنّ أشجار «التنوتير» التي نبني بها منازلنا قد جعلت قوم الشيخ يركعون أمامها في سعادة بالغة، ويحتفون بها كهديّة غير مسبوقة أيّما احتفاء، بل ظلّوا يرتّلون كأنّهم يتحدّثون إلى كائنات مقدّسة: (كوني سعيدة معنا يا أشجار الآلهة، يا من كنت في بلاد «تنوتير» وبعثك القدر، في مقرّك الجديد بين أملاكنا، وسوف تزرعك الآلهة في حدائقها على جوانب معابدها كما يليق بكِ) واستضافني شيخ الصحراء عدّة أيام، أوردت له فيها مأربك، وقال لي: «على الأكثر يومان، ويكون غرض المبجّل جاهزًا»، وقد أرسل لي مع غرضك حمولة مكدّسة بالهدايا، يهبط بها الحرّاس الآن من المركب.

ثم أخرج من حزامه قنّينة صغيرة الحجم وقال:

- وهذه هديتك الرئيسة، يبلغك الشيخ أنّها خليط من ثلاثة روائح عطرية، «تشيبس» و«خاسيت» و«راحمت»، وفيهما اختلط ما أرسلتني لأجله، ويبلغك بأنّ توفيق «آمون» حتميّ في تلك المسألة.

تناولت منه القنّينة وسعادة غير اعتيادية تمرح في أحشائي، قلت في نفسي: أوشك الأمر على نهايته، آه يا والدي العزيز فرعون البلاد المعظّم، لو أنّ الآلهة قد رضيت عنك فجذبتك إلى السماء مبكّرًا، ما سقيتك السم وقلبي مفطور.

(«1»..............)

في زهو يخطو الديك مختالًا، يشبّ وينثني ظهره للوراء قليلًا فيكاد ريش ذيله يلامس الأرض، بهدوء يقطع مسافات سطح البيت، بروية وباتّزان ينتقل من جنب لغيره، تحاصره نداءات الفراخ من داخل عشّة خوصية فوق سطح البيت، ويمضي عنها بعينيه ليس مكترثًا، يلتقط في أنفة بعض الحبّ المتناثر على أرض السطح، يبلعه ويمضي وبعد ثوان يلتقط غيره، يصيح في شموخ ذكر وحيد بين إناث مستضعفات، ويلهو حيث يحلو له اللهو، يتقافز من مكان لآخر، يرفرف عبثًا بجناحين محكوم عليهما بانعدام القدرة، ومن حوله قأقأة تدور، قأقأة إناث يستدعينه للفرجة على ريشه وعرفه المختلفين، يدبّرن له مؤامرة مميتة، ويدبّر هو لهوًا يُسري عنه لمطلع صبح جديد، ويشيّع ببصره أفول أشعة شمس المغارب، يحدج الكون الذي تعنو له الجباه وتخشع الهامات بنظرة لامبالية، كما لو خلق ليوسم أعمال ذاك الكون بكِبره ويوضّبها كيفما يشتهي من فوق رؤوس البشر، ثم في أناة يعتلي سور السطح، يمدّ رقبته نحو أفق بعيد، ويولّي لكلّ التفاصيل ظهره، يرتقب مثول الشمس ثانية، ليصيح في حدّة وفي عنفوان، يخالجه ذلك الخمول الذي يخالج آلة كفّت عن الدوران، فيلمّ على نفسه جناحيه ويمكث واقفًا فوق السور، يعلن تماهيه وسكون الأجواء، إلّا من لغط الإناث اللواتي لا يردن الإمساك عن الثرثرة، يروم انقضاء السواد في انتظار يطول، ومن تحته، أمام مدخل البيت، تجلس «خرفانة» وحيدة، لا صوت لها، حيث لا أذن تلك الساعة تسمع منها أيّة حكاية، وكانت ربما تهمهم مع نفسها همهمة خافتة تتبدّد في مسار ريح الزمن.

برديّة «ثثي» السادسة

يوم التسلية، الخروج إلى الصحراء للصيد، ويوم التدبير مع فرقة الشرطة، التي بدأت فعليًّا في الترتيب لاعتقال المجرمين. سوف يلازمني في رحلتي قائدهم حامل الحربة، والذي يؤدّي مهمته المنوط بها مع فرقته في حراسة جبل ذهب «قفط».

خرجنا وكان الصباح معتلًّا، تخرج مع أنفاسه ذرّات من ريح مشوبة بالغبار.

يعرفون أنّي صيّاد ماهر، لا يخطئ سهمي قط، ينطلق نحو تجمّع الغزلان والأيائل فيضرب هدفه المنشود بالتحديد، وكم عدت من رحلات صيدي بالماعز البرّي والغزال لتقديمهم إلى روح المعبود «رع» في حفلاته، إنّما هذا اليوم لم يكن الصيد وحده بغية رحلتي، كان الاطمئنان النهائي كذلك.

في الصحراء، تكون الرمال مدادًا للتخيّل ذاته، ينصرف نحوها العقل ولا يبقى ثابتًا بمكان، يجري مع الريح، يحوم حول وجه الأرض، ناعمًا خفيفًا قد تذروه الرياح في وهلة، يتقلّب كحال الرمل، ولا يستقر.

تلوح من بين السراب وتدوس عليه «سخت»[٣٣] بقدمها المقدّسة وتمعن في الضغط عليه، تبدو مع السراب فلّاحة بثوب على شكل غمد، شعرها الطويل يروح ويجيء من حولها بفعل الرياح، يتدلّى على كتفيها فتفرشه فوق الرمل، أقول لها من

بعيد: تركتِ البرّيّة وهمتِ في الصحراء، فهل مكتوب على المعاني والأشياء وحتّى الآلهة أن يصبح كلّ في غير موضعه؟

تقام خيمة ومأدبة، تبدأ المأمورية في ملاحقة الصيد، يتحاشى بعضهم الاستمرار في مطاردة الفريسة إلى أبعد مدى، فالطبيعة تهب الفرائس الأرجل القوية التي لا تماثلها قوة أرجل البشر، وإذا استمر صيّاد في المطاردة، ضلّ طريقه في الصحراء وبات هو نفسه فريسة ضبع أو طير كاسر.

فرقة أخرى من صيّادين يعدّون أرضًا حتّى تنجذب لها الحيوانات فيقع العدد الأكبر منهم، يعلمون طبائع الحيوانات التي تسعى لأماكن بعينها فترتادها بحثًا عن الشرب، يحتال عليها الصيّادون ويهيئون سفحًا أسفلنا في الوادي، حيث الأرض رطبة والعشب نابت وجوانبه منحدرة فيصعب على الفرائس الفرار سواء من اليمين أو اليسار.

أشير لقائد الشرطة بيدي فيقبل عليّ، أهمس له بعد أن يجلس:

- هه، هل أتممت أمرنا؟

يقول في صوت خفيض:

- أوشكت يا سيّدي، حدّدت إلى الآن نفرين أو ثلاثة من عمّال الجبّانة، أسبوع ويصبح لدينا تشكيل متكامل.

- انتق تشكيلة، لا يكون جهدك في قرية الجبّانة فقط.

- اسمح لي يا مولاي، مؤامرة من فصيل واحد أقرب للتصديق والإقناع، وليس أرحب من تلك القرية المدقعة لتكون بؤرة

للضلال والتخطيط ضدّ سيّدي العائش طويلاً.

- ربما، تلك وجهة نظر، وهذا عملك، لكن أسرع، أسبوع وقت كثير، يومان فقط، بعدها تأتي لي بتقرير لا يخرّ ماءً.

- أوامرك يا سيّدي، أوامرك.

ينصرف، أتابع بعينيّ ثانية حشد الصيّادين الذين جاؤوا بأيل بض أوقعوه حيًّا، وهم يكتّفونه مع عدد لا بأس به من الفرائس الأخرى التي أوقعوا بها حيّة، من ثمّ أخذوا يعدّون فخًّا آخر، يثبّتون على أوتاد شبكتين منفصلتين بينهما مسافة غير قريبة، الشبكة البعيدة محبوكة تمامًا، كخطّتي، محبوكة لدرجة الحيلولة دون هروب أيّ حيوان، أمّا الشبكة المقابلة ففيها فجوة لمرور الحيوانات والصيّادين، وُضع داخلها ماء وطعام.

بعد قليل راح الممرّ المسوّر من أسفل يمتلئ بالحيوانات، كأنّ الطعام المهيّأ قد أعماها عن ملاحظة الشرك، كأنّ حياتها مجرّد لحظات حتمًا مبدّدة هباءً، مضى جاموس برّي يقفز متجوّلاً بجميع الجهات، ونعامة تتراقص في وجه «رع» تحيّة له على هذا الطعام، وغزالة جاءت بصغيرها ترضعه، وحمار وحشيّ بدأ يمدّ رقبته استعدادًا للنوم الهنيء، في غفلة عمّا نُصب لها.

أشرت للحارس كي يجهّز العربة، استهواني الطقس، واحتدمت ميول نفسي، وقد نزعت للصيد في شهية مفاجئة، فامتطيت عربتي وكأنّي رائح لميدان قتال، وفي جعبتي القوس والسهام، ومن خلفي يسير الأتباع يحملون بعصيّ غليظة جرارًا وقربًا مُلئت بالمياه، وحولهم كلاب الصيّد الشرهة تزوم وترغي وتنبح وتعدو في غير كلل، وإذا عند حلول موكبي بمتن السفح بقطيع

من غزلان تجرّ في أعقابها الأرانب البرّية والضباع تهرول أمامنا فزعة كأنّ من ورائها السيل، وأنا أصيح مرعدًا إيّاها بنبرة حماسية.

تصاعد انفعال جريي، وسيل من السهام مضى يتوالى في إثارة مسلّطًا على الفرائس، التي أُخذت على حين غرة كذلك بهجوم مباغت من كلاب الصيد المفترسة التي لا يداخلها رحمة ولا رفق، وهي تنتشر بينها كانتشار نار في هشيم، فطفقت تبحث عبثًا عن أيّ مخرج من دون طائل.

ها هي غزالة تتقافز في يأس، وكلب صيد يخنق وليدها الحديث بأنيابه المتينة، تحاول الزود عن الرضيع نعامة بمنقارها، إنّما أيّ أمل! الكلب يمزّق الغزال الصغير في بأس وفي عجالة، ثم ينصرف نحو الأم التي سرعان ما تقع في فمه هي الأخرى خائرة بلا عون أو حماية، طرحها أرضًا وجعل يفترسها لكن متمهلًا فعل هذه المرّة وبأناة شديدة كأنّ نهمه كاد يكتفي.

هكذا تكون الحياة، مغامرة كبرى، ومؤامرة لا مخرج منها، مؤامرة الطبيعة والبشر على الفرائس الضعيفة، التي لا تجد مع انحدار الصخور الشديد والعوائق الحجرية إلّا مكان المذبحة ملاذًا، فيقنصها الصيّادون بسهولة ويسر، وأنا أمضي وراء بقية القطيع الجزع، وسحابة من رمل تلفّ موكبي، متوغّلًا في الصحراء الشاسعة، الأشبه بصدري المسكون ببراح السأم والنكد، مصوّبًا السهام بيدي، أكاد أشهق من النشوة، نشوة الملاحقة، ونشوة العودة ببعض الغنائم ظافرًا.

برديّة «حنو» الثالثة

وثانية قد عدنا لاستلال السيوف، وشحذ الهمم وتفجير الغضب الراسخ في أحشائنا لغزو أرض أخرى كيما نصعد قربًا من «هيراكليوبوليس»، وكان كأنّ لا شيء يمضي قدمًا نحو مصير محدّد غير جيش «طيبة»، كما لو أنّ الزمن من أقصاه إلى أقصاه قد أهمل مجراه في عباب التاريخ ووقف جوارنا مساندة ليرصد أفول دولة الطغيان «الإهناسية».

لم يكن ذات الحماس في أجسادنا، ربما لأنّ ظفرنا بانتصار تلو آخر قد بثّ في قلوبنا الكثير من الاطمئنان والارتياح والتباطؤ، وجعل اليقين بسحق كلّ ما هو آت في طريق الجيش أوقع مكانًا في العزائم، وكان له مفعول السحر، بات الاقتتال كمشروب لذيذ نجرعه في سلاسة ونحن مغمضو العيون، كنّا قوة غاشمة لا تعرف الهون أو الصفح، فتكها نافذ ومعين زادها لا ينضب، سرت الثقة بيننا مسرى الهواء، وصارت الهزيمة النكراء حليف كلّ من يتصدّى لجيشنا المبارك، وإنّ نجا أحد، فقليلون منهم قد تمكّن من النجاة من دحرنا بمعجزات سماوية.

على أنّي أذكر هنا أنّ «سنت» هي حليفة في المقام الأول، طيفها يركض جواري مثل إله مؤازر، وكأنّ بها قد غفرت ما كان منّي أيام اللهو والعبث، لا أستطيع إلّا احتضانها في رحاب ذاكرتي ليل نهار، كأنّما فؤادي يقدّم لها اعتذارًا يليه اعتذار، كانت الأجسام أمامي مجرّد أرواح عابرة من برزخ الحياة لمثوى

السماء، تبدو كغبار ينتقل إلى أعلى في حسرة وأسى، أمّا «سنت» فلم أعد أرى أحدًا في العالم سواها، لا أسمع صوتًا ولا أفكّر بغيرها، توحي لي بانتظارها فتعتريني بسالة الآلهة وأمضي أحفّ الرؤوس بسيفي، لا أظنّ أنّي قد أصل لمكان أو أبلغ موطنًا في التفكير إلّا بها، تأتيني فتوقظ روحي على أشياء غير التي عرفتها على وجه الأرض، تجعلني في كلّ حين لا أفهم عن كينونة الآلهة شيئًا، فهي تكفي تمامًا لتكون إلهة روحي المغمورة بصورتها، وعلى الرغم من إحساسي بسلام القلب هنا في كبد المعركة، فإنّ كلمات «سنت» الأخيرة لي لا تغيب عن بالي: «قد تصبح حياتك كابوسًا مزعجًا لو اشتركت في المعركة يا أخي، قد تسير فوق الجبال، قد تحمل خبزك وماءك فوق أكتافك كأنّها حمولة دابة تنوء من ثقلها فقرات سلسلة ظهرك، أخشى عليك من شرب الماء الآسن، ومن أن تنام يقظًا مثل المطاردين، وعندما تلتحم بعدو تصير مثل طائر سقط في شرك، بات لا حول له ولا قوة، وإن حان الوقت لتعود إلى «طيبة»، أصبحت بمثابة خشبة نخرها السوس، تتنابك الأوجاع، وقد تصاب بالشلل، وإن قدّر لك الحراك فقد تُحمل فوق حمار، يسرق اللصوص ملابسك ويهرب منك خدمك، لكن في النهاية أخشى أن الأمر قد قُضي، فلا مناص، عدني فقط بأن تعود سالمًا يا أخي الحبيب».

ليت «سنت» تجيء اليوم لترى مدى الوئام الذي يسكن روحي.

أخذ الجيش يدنو من «مقاطعة الأرنب»، على مشارف «إهناسية المدينة»، اجتاح وديانًا وصحاري وبلغ الجبال الوعرة التي تُهلِك كلّ من يحاول اجتيازها فاخترقها، كانت نبوءة «بام»

قد أوشكت على التحقّق المثالي، بأنّ جيشنا مبارك أينما حلّ، والانتصار مظهره الأوحد دون الأعداء، وقد قال لي بالتحديد: «إن ذكرى الإنسان الذي يقوم بأعمال البطولة لن تُمحى أبدًا من هذه الأرض»، فكانت لي حافزًا أساسيًّا على التدثّر بالشجاعة ما أوتيت من عزم.

كنّا نهبط إلى الوادي المسمّى بوادي القيظ، لاحتباس الحرارة الشديدة بداخله كأنّه موقد دائم الاشتعال، عندما أخذت النجوم المتلألئة التي في الأفق الشرقي تأفل لدى سماع صوت «نوت»[٣٤] وهي تُفسح الطريق لـ«رع» كيما يصعد إلى عرشه المذهّب في أيقونة السماء، ليتمكّن من السير في موكبه اليومي.

«لترق إلى العلا يا (رَعْ) واستنشق النسيم وأنت في محرابك سفينة النهار، وشمّ ريح الصبا وابتلع شبكتك في اليوم الذي تقدّم فيه القرابين لآلهة العدالة (ماعت)، وتقسّم فيه أتباعك حين تتقدّم سفينتك مرّة أخرى نحو «نوت»، واجعل الآلهة القدامى يتقدّمون بدورهم حال سماع صوتك».

هبطنا الوادي، وفي بطء يتمثّل «رع»، وفي مقدمة الكتائب حامل العلم، يرتدي خوذة من نوع ذي حواف، تغطّي رأسه وخلف رقبته على حدّ سواء، ولها شريطان يتدلّيان من أعلى ولها طرز.

من بعده يتبعه حملة الأقواس الذين يسبقون المشاة الثقيلة المسلّحة أفرادها بالرماح والدروع، وعندما يمرّ حملة الأقواس بجانب حامل العلم، يشهرون أسلحتهم في استعراض عسكري متباه باليد اليمنى، بعدئذ يعلّقونها في رقابهم بحيث تصبح أذرعهم طليقة، ثم يسيرون وأكفّهم مقبوضة، وفي صفوف يهبط

من ورائهم حملة الأقواس المثلثة وجعاب السهام والدروع الحديدية ذات المقابض القصيرة التي تكفل حماية أجساد حامليها.

كتيبتي تتقدّم واحدًا تلو الآخر في صفوف طويلة من وراء بقية الكتائب، لا نلبس إلّا المئزر الذي تغطّيه قطعة قماش مثلثة الشكل، تسهيلا لحملنا السيوف وامتشاقها تحت أيّ ظرف، كانت الأفئدة تشغي فرحًا لدنوّنا من «مقاطعة الأرنب»، كنّا نعرف أنّها من المحطّات الأخيرة قبل «إهناسية»، لكن بخلو الوادي من الحركة والسكون الذي يربض فيه، ولجهلنا بمعالمه وطبيعته، لم نكن ندري عن الكمين الذي حاصرنا.

كانت الشمس تسقط على خوذات الجنود فترتدّ أشعتها نحو السماء متحرّرة لاهية، لم نر فوّهات الكهوف التي اختبأت في جوف الوادي، فوّهات تدثّرت بما منحته لها الطبيعة من مظهر مخادع مراوغ، والتي انطلق منها جنود يرتدون مآزر بلا أحزمة، مثل قطيع من غنم فرّ من توجيه راعيه، حشود مضت تتوالى من أفواه الكهوف فبوغتنا، شعرت بأنّ الكتائب قد تشتّت في لحظة، وراحت تتخبّط فيما بينها فتفكّك انتظامها، ودخان الأتربة يتسابق لخلق ألثمة تكبّل المشهد، ولغط من هنا وهناك يكفي لصنع عالم من الضجيج.

تتبعثّر الصفوف، ومن دون دراية تغلّلها الحشود التي اعتادت على طبع الوادي، فكانت أقدامهم تدوس الحفر والتعرّجات والالتواءات في يسر وسلاسة.

كانت لحظة وحيدة، فارقة، مربكة، هي التي تمكّن فيها أولئك الجنود الذين لم نكن ندرك من أيّ جيش هم، من التغلغل

في كيان الجيش والإطاحة -أولًا- بعدد غير قليل من الجنود، أخذت سهام تنهال علينا من فوق الوادي، كمطر غزير من حمم بركانية، وفي منتصف كتيبتي، تخالط الأعداء بنا في موقف أشبه باختلاط ماء مالح بماء عذب، جنود لهم سحن جامدة وأعين تخرج منها نيران غضب لم نشهده في عين عدو من ذي قبل، لهم من ضخامة القامة وفتل العضلات ما أرجف قلوبنا ولو لثوان، كانوا يرفعون الواحد منّا لأعلى ثم يرمونه فوق الأرض كأنّهم يعبثون، وفي مرمي الأبصار كانت الدماء تتقاذف منطلقة من رقاب جيشنا ومن جماجمهم.

ارتعدنا لهنيهة، إثر تكالب هؤلاء علينا في غير توقّع، لكن ولعدد جيشنا الغفير، وفيما قليل، بعد أن رحنا نتماسك ونلم بعضنا على بعض، اشتغلت العزائم، واشرأبت الأعناق نحو النصر ثانية، امتدت رماحنا نحو أبدان العمالقة فلم يكن رمح يخطئ بغيته، وانتظمت العربات من حولنا فحاصرت العمالقة بعد أن حاصرونا، وبتنا كمّاشة لم تكن لترتخي كلّاباتها، راحت الأسهم تطير نحو الأعلى فتقنص ممّن يحتمون بعلو تبّات الوادي، وتُسقط منهم نحو السفح كلّ سهم جسدًا، يتوالون من فوق كجراد مختنق، في سرعة تمكّنا من السيطرة على صفوف الجيش وفي سرعة أكبر استعدنا رباطة الجأش، وبدأ صليل سيوفنا يغطّي على صوت صراخهم، فرغم ما بدوا عليه من ضخامة ومن بأس، إلّا أنّ الواحد منهم حين تأتيه طعنة رمح أو ضربة سيف، يخرّ على الأرض من فوره ملتاعًا توشك دموعه أن تختلط بدمائه، يصرخ في غير جدوى، وينتحب كخاطئ وجبت عليه لعنة الآلهة، ويتقهقر نحو كهفه في رعب وفي ارتياع، إلى أن تدحدر بضع المئات ممّن تبقّوا لداخل الكهوف، وظلّ رمل الوادي يربد بدماء

ألوف أطحنا بهم.

ناهزت المعركة زهاء ثلاث ساعات، سقط منّا مئات، وشكّلنا في التوّ مجموعات، لكلّ مجموعة كهف، حشدوا أنفسهم قرابة الأربعة آلاف جندي، وبأمر من القائد اقتحمت كلّ مجموعة كهفها، للفتك بأولئك المفاجئين الغادرين وسبي من يستسلم منهم.

«رع» يقلّم أظافره في أسنّة رماحنا، والجبل المرتفع ينحني حولنا ويستجيب لبطشنا، والوادي المنحسر تحت سطوة الحجارة ينفرد متّسعاً لأقدامنا، القائد يمنح الجنود الهمّة بملامحه الباسلة، ووادي القيظ يشكو من لهب عزائمنا. بعد قليل، برؤوس متدلّية صوب الأرض، خرج الأسرى، ومن عيونهم يطلّ خزي عظيم، يتلظّون بنار الهزيمة ويتجرّعون مرارة العبث مع جند «طيبة»، مضى قائدهم وفي حنق عظيم يجوس حول قائدنا، خرّ على الأرض ساجدًا بعدها وذؤابة سيف القائد تحزّ عنقه، كانت يداه مصفّدتين، وعلى ملامحه جنون اللاتصديق، هتف به قائدنا:

- أفصح عن هوية جنودك.

- نحن من جيش الصحراء، من فرق أعدّت لمقاومة جيش «طيبة» بأمر من مولانا فرعون البلاد.

- ما اسمكم؟

- جنود الإصغاء.

التفت القائد نحونا، بدت في عينيه نظرة تعجّب مقترنة بتهكّم عظيم، كأنّه يستهجن اسم أولئك الجنود، لكنّه استدار نحو قائدهم ثانية وأضاف:

- أكمل، لِمَ سمّيتم جنود الإصغاء؟ أأنتم تقطنون الصحاري؟ من باب الفضول لا غير، جنودي يتساءلون بأعينهم عن هذا الاسم السخيف.

أومأ برأسه، ثم جحظت عيناه في فخر، كما لو أنّه سيزفّ لنا عن نشوة الآلهة نفسها، وانفتح فمه لآخره وهو يردّد في صوت عال:

- نحن آذان الصحراء، نصغي لكلّ شاردة وواردة، نستمع لأحاديث الرمل وسمر الزواحف، نرتقب دبيب النمل حتّى، لا تعبر همسة حولنا إلّا وأحصيناها، نحن قلب الصحراء النابض وراصد كلّ تفصيلاتها، لذلك أطلق علينا مولانا المبجّل هذا الوصف.

- مولاك أنت يا أحمق، فرعون البلاد المبجّل الحقيقي مثلج الفؤاد ويغطّ في نوم هنيء في «طيبة» الآن وهو يعلم قوة جنده، أخبرني يا هذا، ألا تخشوننا؟

ابتسم ابتسامة عقيمة وهو يردف في استهانة:

- كنّا خشينا قسوة الصحراء أولى، فراعنة الصحاري لا يخشون شيئًا.

بان على وجه قائدنا التوتّر، مال ناحيتنا وهتف:

- جزّوا آذان من تبقّى من فرقة الإصغاء أدبًا لتعيس «هراكليوبوليس» وإكرامًا لذكر مولانا بهيّ الجلال.

كان أسرى جنود الإصغاء المتبقّين راكعين أسفلنا فوق الرمل، يلقوننا بنظرات مفعمة بالرجاء أن نعفو، لكنّنا لم نأبه لنظراتهم،

وبسيوفنا رحنا نجبّ عن رؤوسهم الآذان، وأضيفت دماء لدماء، وأربدت الصحراء بصرخات مجدّدًا، وانتشى بعضنا، واقشعرّ بعضنا، ذكّرت نفسي بأنّ قائدنا لا بد من أنه كان يعرف تمامًا إلى أين يؤدي هذا الأمر، فقائدنا لا يأتي قط فعلاً بعشوائية، سلخنا آذان هؤلاء من جماجمهم مؤكّد يفضي إلى حكمة ما، وإلّا ما أقدم القائد على هذا.

أمسك القائد جوالاً من الأجولة التي تنضح دماء الآذان، ورفعه في وجه قائدهم يقول:

- وتلك هدية لملك البلاد الأعظم الذي لا تريد الاعتراف به.

هزّ قائدهم رأسه في أسى، وبصوت فيه نشيج غريب يوشك على الانتحاب قال:

- لا أدري لم لا يحلّق طير السلام فوق ربوع البلاد؟ لماذا يصرّ ملككم على أن ينصّب نفسه ملكًا على الأقطار جميعها؟ من غير النظر إلى ذبذبة البلاد جرّاء حرب ثقيلة مفزعة، هل تعرف أنّه لا يوجد في مصر كلّها حاكم يخشى منه فرعون البلاد إلّا حاكم «طيبة»؟ فإذا أقام السلام باتت البلاد في طمأنينة لا تخشى تمرّد أحد.

- أيّ سلام يا رعديد! نحن أحقّ بمُلك البلاد، إرثنا من أسلافنا العظام، نحن مستحقو العظمة كما اختصتنا الآلهة.

- لا أعرف كيف تزعمون انحداركم من صلب الآلهة؟ تحملون بداخلكم صلفًا وكبرياء لا تحمله الآلهة نفسها. من تعتقدون أنفسكم؟ يا للبلاهة! ليس موطنكم منبت الأصالة والفراعنة الحقيقيين، نحن فراعنة أشدّ منكم عراقة وأحقيّة بالحكم، نحن

أقمنا متن هذه البلاد أيّها الخونة.

اعتركت ملامح القائد، وبدا عليه جبروت «آمون» ذاته، استشعرنا مدى حنقه من مثل هذا الاتّهام الذي لا سند له.

في لحظة، كان سيف قائدنا المسنون خصّيصًا من أجل المجد قد جزّ عنق الرجل فارتمت على الأرض رأسه بلا حياة، مجرّد عينين جاحظتين تتأمّلان الحسرة في هلع وفي ضمور.

* * *

كنّا لا بد من أن ندفن موتانا قبل التحرّك، ندفنهم في قلب الوادي ونتلو عليهم التعاويذ ونباركهم بالصلوات ولو استغرقت الطقوس دهرًا، كاد الحزن عليهم يلهينا عن المهمة الأساسية وهي القضاء على وغد «إهناسية»، كان النهار تبدّد، وما تبقّى منه أثارات ضالّة أخذت تجوب منافذ التلال وصدر الأفق على استحياء، وكان نعيق الغربان التي تحوم أعلانا قد راح صداه يتردّد في الأجواء، وكلّما دنت من طعامها الذي لم يزل ساخنًا، انطلقت في الفضاء ثانية عاجزة خشية الأجسام المتحرّكة تحت عيونها، والتي ما زال يجري فيها الدم الطازج، وبدت وهي تجوب متن الحصيرة السماوية كمراوح كثيفة من ريش أسود يقبض القلب.

استعدّ كاهن الجيش واتّخذ وضعية خاشعة ومضى يرتّل في شجن:

«احسبوا عظامكم، ورتّبوا أعضاءكم، ولّوا وجوهكم شطر الغرب الجميل، الذي تذهبون إليه مجدّدًا في كلّ يوم، سوف تتوحّدون في هذه الصورة الذهبية مع قرص السماء، مع النجوم

اللألاءة التي ستُعمل دورتكم معها، وعندما تجدّدون في كلّ يوم مثل «رع» سيعم الحبور في الأفق، وستولدون آلهة. تأمّلوا أنتم أيّها النجوم التي تسطع في «خرعحا»[٣٥] إنّ الإله صاحب الأجزاء الألف[٣٦] قد ولد وأمراسه قد شدّت وسكّانه تهيّأوا، سنجيء وراءكم، سنقطع خشب الآلهة ونبني السفينة التي سنصعد بها إلى السماء من أولها إلى آخرها، سنُحمل بها إلى «نوت»، سنحمل عليها مع «رع»، مع القرد[٣٧]، سنسير قدمًا بانشراح على ماء «وعرت»، الخاص بالآلهة «نوت»، عند باب الإله «سيح»[٣٨]، سنجيء حتمًا وراءكم، فسافروا في أمان، انهضوا في السماء الآخرة آلهة من جديد، وقد بات تألّهكم حقًّا مكتسبًا».

(«2»...............)

وحيدًا يقف الديك أمام وجه الصباح، يُشرف على جري الدماء بأخاديد الحقول البعيد منها والقريب، وبعينيه نظرة ساهمة عطوف وفيها حزن، ينحدر قاطعًا طرقات المكان بخطوات لا تسعها دروب الحياة بأكملها، يتّجه إلى موضع جانبته أقدام أهل المدينة، ورأسه مرتفعة إلى السماء، يقف قليلاً تحت سفح تلّ أحمر صغير، ترابه لم يزل بلون الدّم، عرفه الناس هنا باسم «الكوم الأحمر»، يخشاه الناس، ولا يخشاه هو، يدري أنّ الزمن طمس سهوًا حكاية ذلك الكوم.

يرتقيه الهوينى، لا يتعثّر في طلوعه لأعلى كأنّما يعرف هدفه بالتمام، يعتليه، وفوق قمّته يشدّ جسمه كلّه، ويصيح صيحة طويلة لا تقطّع فيها، تصيخ لها قامات النخيل والحقول البعيدة، تنفتح ثغرات من متن الكوم الترابي، تنسال منها قطرات حمراء وفيها لون الثرى الأغبر، تحفّ به مزايا نور الصباح الذي بدا مشروخًا، فيسري في كيانه دفء، ويساور تفاصيل المدينة البليدة التي تهجع تحت بصره بكثير من حسرة، والأناس بدوا في قمّة ضآلتهم هذا الصباح، كأبأس ما تكون عليه الضآلة، ينطلقون في عشوائية كما لو أنّ لا غاية لهم، وكان يخدش بقدميه في تراب الكوم كأنّما يتساءل: ماذا جرى؟ ما الذي أسرى بالدماء في بدنك كلّ تلك الدهور الغابرة؟

أخذ جسمه يحيا من جديد، ليبدو -في سكرة التاريخ الكهل- يكتسي بلون ذهبي رقراق، من ذات لون نسيج الشمس.

بوّابة انتقال

بئس حال الحيارى، فصل النهاية أبدًا لا يجيء، تحديدًا معي، فصول النهايات يشهدها أصحابها من حولي ونهايتي تضن عليّ بالمجيء، لكن أوليس الشقاء نهاية عبقرية لبائس مثلي؟ كيف للزمن ألا يكتمل في مداري وكيف للهناء ألا يدوم؟ هأنذا أدور داخل دائرة الضياع، مثل بندول عطب لا يعرف لدورانه نهاية، غريب دون موطن، تائه بلا مستقر، قابع فوق حافّة بحيرة مخادعة، أكسبتها ثنايا التاريخ قداسة زائفة، يترصّدني ماض قاحل مليء بالتقيّحات، ويشملني بؤس ليس في قسوته شعور.

لم أعرف موضع الأمان بعد، أفي إحياء الذكرى أم في نحرها؟ كانت أميرتي، أو هكذا اعتقدت هي، وسرعان ما باءت الأقدار بعكس ذلك، وفي البرّ المعتم من رأسي تسكن تلك الذكرى منها، حارقة كصهد جبّار، خائبة كخيبة أمل أبدية، وفي كلّ يوم من ذكراها يسرق الزمن منّي وعيًا جديدًا، فيبدو التباس الحلم بالواقع أمرًا لا مفر منه، ليستنبط حاضري همًّا مستحدثًا من سائر أوجاعي، ويكبّل العقل في دوامة عاصفة من مرارة.

على حافة البحيرة أرقد، والنمل الجائع لم يزل يعبث بأطرافي التي بدا خدر البؤس استولى عليها، ومياه البحيرة ساكنة كدأبها، لا تبدي حركة ولا تتفاعل مع تحرّكات العالم من حولها، أطلّ نحوها بأمل أخذ يغادر كنيزك فار في سماء بعيدة، و«أميرة» لا تريد الذهاب، نائمة على سطح البحيرة في وداعة طفل لم يعرف عن الدنيا غير البراءة، تحتضنها أسارير المياه في حنو، وتكشف

لي عن روعة مهدَرة، تبربش بأهدابها علّني أغطس بجسمي وأحتضنها ذاك الحضن الأخير الذي لم يمهلني الزمن إيّاه، لكنّك تعرفين يا أميرتي أنّ قلبي قدّ من جلاميد صلبة لا رفق فيها ولا رحمة، لا من أيّ نوع، ولا من أيّ باب، ولو حتّى من باب «إن لم تستح فاقس كيفما شئت»، لا أدري يا أميرتي لمَ خالطني مثل ذلك البرود حيال الأمر برمّته؟ كأنّ غفلة زمنية قد شغلت عقلي عن الانتباه لسفح النهاية الذي كنتِ تنحدرين نحوه يا «أميرة».

يا الله! كيف لم أستشرف؟ كيف تركتها تذهب مثل غبار تطيّره ريح؟ فحاقت بنفسي بعدئذ كلّ شرور الكون.

لا أزال أراها، بضياء وجهها، ولمسة الحزن في عينيها، كأنّي كنت برفقتها آنذاك، يوم ودّعت العالم عن طيب خاطر وبهدوء شديد، لفظت بإرادتها أسى الحياة من داخلها، كأنّي أراها وهي واقفة على ضفّة النيل، ومشطا قدميها يتسلّلان إلى حافة النهر، يمهدان دخولها الماء الساكن، تذرف دموعًا، لا تساوى قدر دمائها التي تتدفق من جروحها التي كنت لها سببًا.

أراها، والدموع/ الدماء تنساب إلى الماء فتختلط به، الماء يحتضنها، يجري، فتجري معه الدماء مغادرة إلى الشمال، وتجري ذاكرتها مغادرة نحو المحال، الذي وقع، فوقع معه كلّ عمرها إلى النهر.

في الصباح، في كلّ صباح، كان يشرق وجهها بطلّة أشدّ وهجًا من نور الشمس، كان فيه دواء كلّ علل الحياة.

زمنها كان زمنًا خاصًّا بعشقها، الأيام تجري إلى حيث لا رجعة، وحبيبها المجرم -آه لو كنت أدري- استباح كلّ حياتها.

تسامرني من داخل المياه، أدنو منها أكثر، وعلى وجهي ابتسامة الحبيب القديم، تقول: وهل بقي معي يا حبيبي سوى براءتي التي بعتها ذات مساء لك من دون أيّ اشتباه؟ وهل...؟ هو مجرّد سؤال يا حبيبي ليس أكثر من حقّي في المعرفة.

البهجة تكلّل ملامحي وأنا أدنو منها أكثر، وملامحها تفضي قهرها، البحيرة تشدّني للرقص على أنغام الموج الهادئ، على أنغام همسات حبيبتي، وصخب الدنيا من حول ذهني يتلاشى، يتلاشى، تسألني: لماذا؟ حشرجة تتفشّى في كياني، أنصال معلقة على المدى البعيد أمام بصري من تساؤلات، لكنّني لا أكترث، فتلامس قدماي المياه، وأغور في حضن حبيبتي أكثر، أهمس: في المساء القاتم وارب إبليس بابه، لفّ عينيه بغمامة وقرر أن يئد مستقبلنا، تركنا ننجرف خلف الضياع المؤكّد، وبعد ذلك كان بكاؤك لم يليّن رغبتي في تقمّص دور السفّاح، كنتِ جسدًا، إنّما سفحته، كنتِ روحًا من عبير الجنّة لكنّني مزّقتها إربًا، والآن جئتك مصافحة وصلحًا، فاقبليني رفيقًا في دنيا أخرى.

حبيبتي، وصلتني رسالة الشوق، كان طير قد عبر من أعلى وصدح بها، رسالتك -بالرغم من قهرك- كانت تحمل الاعتذار، قال الطير: حبيبي إن كان لكلامي إليك وصول فسامحني، لعلّني أرحل راضية عن نفسي.

(خذيني إليك) رحت أقول.

تلامست قدماي والمياه، دمائي تسيل نزيف شوقها، والحياة تركض من ورائي وورائها باستماتة، هي تتقدم داخل المياه ولا تنظر للوراء، وأنا أدخل في جوف البحيرة أكثر، هذا الضجيج الآتي من الخلف لا يزعزع تصميمي، وهي تمدّ لي يدها، هذه المعاني

التي تنصرف عن الوجود ترحل هي الأخرى، يرحل كلّ شيء، هذا الصباح سترتخي كلّ أطرافي، سترتخي تمامًا تمامًا حتّى أكاد أشعر بالتماهي مع خطّ تماس العدم ذاته.

يحدوني همسها الشفيف، الآن أدرك أنّه لم تكن علّة سوى الذكرى، فما لي ظللت أبحث عن دواء وهي الدواء؟ البحيرة تحمل النجاة ولم أكن أرى، القداسة نفسها تكمن فيما تنبض به المياه من سرور أبدي.

تصل المياه لكتفي، تهتزّ الدنيا، ترتجّ المشاهد، وكلّ الأزمان الطويلة التي شفطت ذكرى الآلهة وذكرى الحياة عينها وذكرى أيّ تاريخ، ها هي تلوح من وراء قامات النخيل المتثائبة تودّعني بسلام حار، ثم يظهر الذي كنت أبحث عنه، ومضى وقتي بحثًا عنه؛ ديكي الذهبي، يجيء مرفرفًا من عند الأفق، وريشه يلمع ببهاء الذهب، وفي عينيه بريق يلتمع كالبرق الصاخب، يصيح صيحة مدوّية تنتفض لها أركان المكان، تهيج الأرض، تموج، وفي الأفق المدجّج بالتساؤلات تنفتح بؤرة تمضي تبتلع كلّ التفاصيل، يتسرّب نور الصباح نحوها، يسبح متمايلًا ملمومًا كحزمة من فيروز غائصًا داخل فم البؤرة، تدور الأشجار والبيوت ويدور الناس متّجهين قبالتها، كإعصار حلزوني يصطحب في رحيله كامل الكتل المادية، والديك ينطلق نحوي عكسياً كسهم قادم من حيّز البؤرة، ويحطّ فوق كتفي، ينفض عن ريشه ذرّات الغبار الناجمة عن دوران التراب في الهواء، ويصيح، صياحًا عاليًا عاليًا أشبه باستجداء رمزي، يكتسب نطق لسان البشر، يتحوّل إلى واعظ خرافي، ويكاد يهتف في داخل ثنيات عقلي: في كلّ زمان ومكان يشبه الإنسان أخاه الإنسان، هكذا حال التاريخ.

أصيح معه بصوت رجرج في أرجاء الكون: «أميرة»، «أميرة»، «عااااااااشيت».

حبيبتي تزدوج، تصبح اثنتين، واحدة يتألّق وجهها مثل شعاع بلّوري، تتطلّع عيناها إلى المفردات كافة من عل، وجناحان يرفعانها لأعلى، أعلى، ينفرد الجناحان، يشكّلان كفّين من أشعة شمس، تتسحّب نحو الفضاء البعيد، ترفرف حبيبتي، بوجه هادئ وديع باسم، يرنو إلى عينيّ في صفاء وفي تسامح، ثم تلتفت تتأمّل حبيبتي الأخرى، والتي كانت دماؤها تلوّن السماء والعيون والمدى، تلوّن الماضي والحاضر والقادم، تصبغ المياه من منبعها للمصب، هي تغور في عمق النهر الحنون، وتشدّني بيدها نحو عمق البحيرة، يحتضنني العمق، كما يحتضنها النهر، فتسبح صوب الشمال أسطورة، وتظلّ حمرة النهر الدموية لعنة أبدية تصافح عيون البلدة كلّ صباح.

الكوم الأحمر

بردّية قد تُنسى (فوجب تدوينها بأثر رجعي)

بين مسافات حذرة من اللاوعي يتحرّك ذهني، يطارد عالماً من خيال ويبتغي امتثاله داخل حدود الواقع، مذ تأجّج قلبي بلهب العشق والأشياء ليست في أماكنها، ليس النهار نهارًا ولا الليل فيه عتمته التلقائية، لم يعد عقلي في رأسي، ولم تعد رأسي ذاتها محلّ اعتبار، كان الاعتبار الأولي هو الأمنية التي أنتظرها، الدلالة التي خبّرتني عنها معشوقتي الملائكية.

أيّ خيال! أن تصحبني ملاكي طيلة عمري القادم، تعيش معي في الأرض، وقد أعيش معها في السماء، لا أهمّية، يكاد المهمّ في سائر الأمور يصير عبثًا لا جدوى منه، وتظلّ حبيبتي ندهة لا تفارقني.

تبدأ المعالم من حولي تتضخّم، أكاد أمضي نحو بارقة أمل من نوع جديد، والمعالم تتداخل وتتّخذ شكلًا هلاميًّا كطاقة نور انفتحت قبالتي، والدلالة تبدو قادمة من عند آخر حواف الحلم كصدى من بعيد يعلو، في غير تصديق يأبه عقلي شيئًا فشيئًا للملموس من ماديّات الغرفة، والصوت يعلو ويعلو، وينتفخ في تحفيز وفي تنبيه، نداء سماوي يعبق الأجواء ويبدّد اليأس الذي بدا رابضًا لن يبارح، نداء يجيء من كلّ مكان حولي، يملأ فراغ قلبي وفراغ الغرفة وفراغ الكون بأسره، يتردّد في بهاء وفي جلال أسطوري، صوت يلوح من بين ثنايا الخيال كأنشودة أزلية

تهدهد التاريخ ليغفو، صوت يصيح: «عااااااااشيت».

كلّا، الدلالات لا تأتي بمثل ذلك الوضوح والبيان، لا بد من لغز فأمضي من خلفه لسبر الدلالة، هذا ما كنت في انتظاره، لكن أن يهرول الصوت ناحيتي من مدى ليس ملموسًا ويتمثّل فرحة طاغية ويداعب خيالي ويعيد نبض فؤادي فهذا خليق ذهني المأسور بالأمل.

كلّا، لو عليّ أن أصدق فما أجمل حظّي وما أعظمني، النداء لا التباس فيه ولا شبهة، نداء جليّ تخصّص لعاشق مثلي، وكلّ آلهة السماء ها هي الآن ترحّب بالدلالة، وتهبط داخل صحن الغرفة على أشكال متباينة، يطوف «آمون» حولي، ومثله يفعل «رع»، «سِت» يهبط فوق كتفيّ ويهزّ ساقيه أرجحة يمنة ويسرة، أمامًا وخلفًا، كم عدد المرّات التي يتهيأ فيها لرجل أن يشهد اجتماع «رع» و«سِت» في مكان واحد؟ كتوأمين عاشا العمر في رفقة أحدهما الآخر، كأنّهما يجتمعان كلّ ليلة للسمر والإنشاد.

ما أعظمني من محظّي لم يؤت لغيره مثل ذاك الحظي! ومليكتي تبدأ تنفض عنها سبات الدهر وتنتعش، وفي قلب الإناء نطفة الشجرة ترتعش على مهل، تنبض من جديد، تجتذب إليها صبابة كلّ عشّاق التاريخ، وتمضي تتطاول كأسطورة من فردوس، تهيب بالدنيا المثول، وتهيب بي الانتباه المفرط، لأشهد ولادتها على يديّ مرّة أخرى.

يكون الإناء شرنقة، بغلاف شفّاف لزج له ملمس دافئ مخملي، تسري في أناملي رعشة وأنا أتحسّسه، وهو ينفرج عن ضياء باهر يغشي عينيّ، وعيون الآلهة الواقفة منبهرة فاغرة فاها، كأنّما لم تقدّ العالم إلّا لتلك اللحظة الفارقة في عمر الوجود كلّه، وهي

تدنو من الإناء، تمكث قريبًا، وتنظر عن كثب، وحبيبتي تتمطّى، تبتسم مثل إشراق «رع» نفسه، ومن حولها تزهر الغرفة، تنبت عن ورود لها ألوان بلا وصف، مزيج من هذا وذاك، وروائحها روائح السماء التي لا يشمّها بشر يسعى.

تتململ قليلًا، تنقبض على نفسها وتنبسط، تمد ذراعيها في كلّ أرجاء الغرفة، تنشد أنفاس حياة جديدة، تتأوّه، تشهق، تملأ المكان بزفراتها الحيّة، تبدأ نتوءات نورانية تبرز من وراء كتفيها، تنهمر مياه من أعلى من لا منبع، تسبح أجسادنا في غمرة المياه، تهبط من أعلى منحرفة بزاوية لتتدفع نحو مجرى شمالي يمتدّ إلى ما لا نهاية، تلطم الجدران والسقف وتحاول التحرّر لاتّخاذ طريقها.

لم أكن واهمًا، كنت أرتع في المسافة الفاصلة بين هويّات المعاني، فلا الحلم يبقى حلمًا ولا واقعي يبقى بهيئته ومفرداته.

ليتني لا أفيق، أو ليتني لا أغفو، لا أدرك أين أنا تحديدًا من مفهوم الماديّة؟ فما صبوت له يتهيّأ بدون بوادر. أغرق -والآلهة- في نشوة لقاء الخيال بالممكن، وحبيبتي تتلوّى، ثم جناحان يخرجان كنبتة فجائية مستحيلة، يمتدّان إلى فوق باستراحة وكبرياء، يخضّبان مرمى البصر بلون أبيض ناصع، يحملانها فتطوف أعلانا، تخفق بهما، تصبح إلهة تركع لأجل جلالها كلّ الآلهة، تهمس في صبابة: قدّسني.

يغمرني الماء، وضآلة الآفاق تتعاظم أمام عينيّ، أهتف في نشوة: قدّستك منذ بدء الخليقة.

ومن طاقة ضياء تُبذر من سقيفة في الخيال موازية، من

جانب بعيد في عالم آخر ربما، تأتي قرينة، رفيقة لا تقلّ جمالًا ولا قداسة، تمتزج الأجنحة، تُولد مركب ذهبيّة، تتهادى على سطح المياه، يحطّ الملاكان على ظهر المركب الذهب، والتي من دون شراع ولا قائد، ينتشلاننا من وسط هدير المياه، لنبحر معهما في الرحلة، تحمل المركب كلّ الآلهة، فأدرك بلا أيّ استفهام أنّي إله، ولو بمجاز الخيال.

تطلع المركب نحو شمال الأفق، تطلع ونطلع معها، تصبح الأجساد عبئًا لا بد من إزالته، كيما تصبح الأرواح خفيفة خفّة رياح بعث استثنائي، أقول في نفسي: لو لم أكن راضيًا عن جَلدي لحقّ عليّ الشقاء. تعتريني مهابة السماء بأجوائها غير المدرَكة، أحتضن الكون تحت إبطي وأمضي أجوب جنبات التاريخ مثل سحر لا سبيل لإدراكه، ومن بعيد، ربما من أسفل، من عند نقطة شديدة الضآلة في محيط التفاصيل، يعلو ذاك الطرق الصاخب اللحوح، فأسقط.

* * *

لم يكن خطبًا قدر الخطوب التي عرفتها قريتهم، ولا بذات مقاييس الصدمات الواردة على الأذهان، لم يكن حدثًا سوف يُنسى، ولا هوجة تتناقلها الألسن إثر ذلك كحكاية مؤسفة، كان الأمر صاعقة مدويّة، ففي دخولهم القرية فزع لم يكن معهودًا من ذي قبل، ومن حولهم غبار ثائر وضجّة وتأويلات ليس لها أساس، لا تعدو أكثر من كونها مجرّد استفسارات واستنكارات.

في دخولهم القرية أول النهار حدث جديد، لكنّه مهول، لم ينظروا نحو الواقفين يتساءلون: وهل باتت قريتنا موضع اهتمام بعد أن كانت منفيّة داخل جدران من صمت؟ ثم من ذلك

التعس الذي بات اعتقاله واجبًا؟ لكنّ الجنود المدجّجين بالأسلحة والحيرة وقسوة الملامح اقتحموا قرية عمّال الجبّانة من دون أيّة مقدّمات، وصفوفهم لا تعرف عدم الانتظام أو الأناة، يحثّون الخطى العسكرية وفي نيّتهم عزم لم يبد على ملامحهم الجامدة الجهمة، يتّجهون إلى بيوت بعينها، ولا يسألون، كأنّهم يحفظون خريطة المكان عن ظهر قلب.

تتسابق الأقدام في هلع لمعاينة الدافع البائس وراء دخول الشرطة القرية المسالمة، يعرفون أنّ لا أحد يجرؤ على ارتكاب أيّة واقعة، الناس هنا لا يعلمون عن الدنيا غير الكدّ والتعب، فأيّ طالع مشؤوم قد يعانق سماء القرية ذلك الصباح!

الهسيس والهمس والتساؤل بالعيون والغمز واللمز واللكز، مظاهر دخول الشرطة. التحديق في روع ودهشة، اضطراب دقّات القلوب، سحّ العرق، مكابدة الصمت، هذه معان مضت تلوح من أبدان الناس.

كان عبق الأعشاب اليابسة التي يزرعها الناس ضربًا حول القرية، يمتزج برائحة عرق البغال التي توقفت عن مضغ العلف وأخذت تحدّق بدورها في الشرطيّين، ثم راحت تشدّ هشيمها من المذود فيخشخش، وهي تستنكر وجود هؤلاء -لأول مرّة- داخل متن قريتها. ماذا يتبعون؟ من أجل أيّة كارثة حضر الزبانية؟ كلّ تلك الأحصنة، وكلّ ذلك الشطط، يدكّون الأرض فتتأرجح في خوف، ولأول مرّة في تاريخ القرية يمكن مشاهدة الكائنات الحجرية الصارمة، يمكن حتّى لمسها، هم يستنشقون الهواء كسائر البشر، هم يتحرّكون كأنّ الكون صامد قبالة القدر في يأس، ولا بد من أنّ هذا الصباح قد اشتعل من ضوء غير ضوء

«رع» المجيد، الصباح الذي ينجب قهرًا بمثل تلك الغرابة ليس صباح «رع» حامي ديار الفقراء، وتحت أقدامهم يتسربل الحصى ليصبح ترابًا مدهوسًا، ترابًا مشحونًا بالكبت.

في شيء من تكبّر تداخله صرامة، اتّجه أحد الشرطيّين نحو باب بيت بعينه، وآخر نحو باب ثان، وهكذا، كأنّ كلّ واحد قد حُدّد له الهدف سلفًا، ثم بدأ دويّ الطرقات التي لم يكن لأحد أن يفهم دواعيها، فاستيقظت الطيور الهاجعة في أعشاشها، واستقام قوام النخيل الذي شرع في الاسترخاء من عناء حراسة القرية لليلة طويلة، وبدا الكلّ منهمكًا في الانتباه، بل بدا آخرون يرتجفون من فكرة أنّ الدائرة سوف تبلعهم بداخلها، وأنّ الأيادي الغليظة التي لا تعرف غير الحزم والشدّة قد تستدير الآن إلى أحد بيوتهم وتبدأ في الطرق المخيف.

كلّ هذا والليل الذي مضى كأنّما يتولّد في أعين الناس من جديد، بدت غبشة الفجر المنعشة كأنّها نذير شرّ مستحكم، فالعيون التي تشاهد ما يجري تضبّب مداها، والشرطيّون لا يكفّون عن طرق أبواب معيّنة.

كلّ ذلك لم يتجاوز بضع لحظات، ومتى استفاقت الرؤوس الغافية والتي لم يطلع صباحها بعد، متى كان الهلع أول بشائر قدوم ذاك الصباح. لا يعني أحدًا أن يفسّر أو يفهم تلك الساعة، كلّ ما يعنيهم ألّا تمتدّ تلكم الأيادي فتتحرّش بأبوابهم وتهتك خنوعها. وأيًّا كان مبرّر ما يفعلون، فعليهم أن يفعلوه ويمضوا، لأنّه أمر، والأوامر تقتضي الإسراع، وعدم الغوص في المشاحنات، أو الاستفسارات، ولا حتى الاستجداءات، الأسماء في البرديّة خطّت، والمطلوبون معلومون واحدًا واحدًا، واللعنة على من

يستعصي عليهم جلبه، والأبواب أخذت تنفتح على مصراعيها، لا شيء الآن أعظم من العجب، ولا محطّ للتساؤل إلّا داخل المآقي الحيرى، حتّى الأفواه التي مضت تندب وتولول أسكتتها ضربات عصيّ الشرطيّين وهراواتهم، وهم يقتحمون البيوت، ويخرجون بالرجال الذين لا يفقهون عن مكر الأقدار شيئًا، وكلّ ما يسيطر عليهم ذلك الإحساس بالعجز أمام هؤلاء، والتساؤل الأكبر: هل ما يحدث ربّ مصادفات هي من شأن السماء في الأساس أم تعاسة ما بعدها تعاسة؟

هناك، فوق ربوة الأعالي، بدا يُغزل «رع» من جديد بخيوط من ذهب.

وهناك، على الهضبة العالية جدًّا في قمّة السماء، والتي تلاحقها أبصار المستضعفين بالرجاء والدعاء، تجمع الآلهة حصادها من معاناة الرعية وأوجاعهم.

كلّ من أتيح له أن يُبصر الظلم عيانًا شعر بغصّة مريرة احتبُست في أعمق مواطن الوجدان، الآن لابد من أن تُنقش في ذاكرة القرية حسرة لن تُمحى، حسرة ذاهلة، مفعمة بالأسى، متدثّرة بكآبة المشهد برمّته، ليس في الأقدار إشارة إلى حدث مدوّ كهذا، وقائع مهولة كتلك، وليست هي الأقدار نفسها بمنصفة، لا لمن ابتلته السماء بضعة الحال، ولا لمن باء حظّه بسوء كبير، فما هي إلّا لحظات، انبجست كبرق في ذهن القرية، كأنّها كابوس مرير، وقطعة من عذاب آخرة لم يتهيأوا لها تمامًا، حتّى كان الأمر قد قُضي، ففي غضون ذلك النهار البائس الذي تملؤه عادة مشاغل الرجال وأوجاعهم، كان صفّ من شباب القرية تغلّلهم أصفاد معدنية يرونها لأول نوبة في حياتهم

يخرجون ببطء من بوابة القرية، ثلاثة عشر رجلًا، تهتزّ رؤوسهم في دهشة واستفسار، ترمح خلفهم صيحات النساء ودموعهنّ، وعجز الرجال وحزنهم، لم يعطهم أحد فرصة الاستبيان، قالوا لهم تعرفون كلّ شيء عند المحاكمة، أيّ محاكمة؟ بل أيّ شيء سيعرفونه؟ بالطبع لم يحتدم النقاش ليصل إلى مشاجرة، فالعصيّ أخذت تنزل فوق الرؤوس بعشوائية وعدم اتّزان، لكنّ الغريب في الأمر هو الصدفة، أو اللامبالاة، التي تجعل «هوي» واحدًا من المنكوبين، ممّن حلّ عليهم جفاء السماء، وهو يبدو مثل مسطول، وهو يترنّح متبّعًا الصفّ المسيّج بالجنود، ويناجي شيئًا في السماء لا يراه غيره، متلفّعًا بذلك الحلم الذي أتاه من زمان سحيق، أو تاريخ بعيد، مغاليًا في سكرته لحدّ البلاهة، ليس مكترثًا لحدّ اللوثة، يساءل الحلم الغائب: وداع بلا رجعة أو أمل أم اللقاء قريب؟ يغمغم في يأس من أهدِر حلمه بغتة: «عاشيت».

ولئن كان صحيحًا أنّ سوء الطالع أو تشوّه الحياة عن بكرة أبيها هما اللذان أسقطا أمّه متهاوية أرضًا، وجعلا أخته تبدو في نوبة صرع ليست معتادة، إلا أنّ أمّه قد استشعرت ذلك البؤس مبّكرًا قليلًا، وجاهدت التحايل على قلبها بالمواساة، والأب نفسه لم يعد في بدنه حيل فخرّ فوق الثرى وجسمه ينتفض مثل محموم، هم الآن يتوسّلون العفو من جميع الآلهة، لكن بلا جدوى، فما سوف يحدث قد حدث، كقضاء نافذ لا رجعة فيه، والناس في الشيخوخة قد يفقدون العقل، لكن قرية البؤساء قد فقدت عقلها مبكّرًا وفجأة، ودماغ الموسوم بالحسرة، بفضل الإغراق في الفاجعة وملابساتها، تخلق لنفسها أعذار الدنيا، وتقول في تعاسة هو الزمن العابس من غير شك، والذي يخلو -كل الخلو- من البهجة والفرح ومن أدنى مستويات رضا الآلهة، فهل كان

عليهم أن يضاعفوا الرجاء للآلهة أم كان على الآلهة أن تستمتع لرجائهم من الأساس؟

* * *

انقضت المحاكمة في غضون أيام.

يقول القوم الأدنى؛ المستضعفون: إنّ القضاة يجازون الفقير على غير ما يحدث للعظماء والأشراف، وأنّ فداحة اللامساواة مستفحلة في أفئدة أولئك البغاة، وأنّ «طيبة» بعينها مرتع كلّ دسيسة وكلّ خبث. أمّا القوم الأعلى؛ النبلاء والأكابر، فيقولون: جزاء ما سوّلت لهم أنفسهم.

لكن لم تكن محاكمة بالشكل المتعارف عليه، كانت فرمانًا ملكيًا صِرفًا.

اقتيد الثلاثة عشر، ساق لهم قدرهم مأساتهم، وفي ساحة القصاص، في واد يجاور معابد الآلهة العظام، بدأ حفل رادع ليلهو آلهة «الكرنك» حسبما يحلو لهم، في «الكرنك» تتشطّف الآلهة من التسامح، كما تغتسل من خطاياها، في «الكرنك» يولد في كلّ يوم جديد زمرة من المستبدّين والأوغاد، ويكون الضعفاء هم ثمن اللهو الآثم.

ثلاثة عشر من شباب عمّال الجبّانة يتراصون فوق منصّة من خشب بلّوط، مصلوبين في أوتاد من بأس، والساحة مليئة بالجموع الغفيرة التي دُعيت لتشهد حفل القصاص.

في بطء يشير «ثتي» نحوهم مخاطبًا «بام»: هؤلاء وجب عليهم غضب الآلهة. وفي بطء أشدّ يستدير نحوه «بام» قائلًا: وهل استُوفيت الأدلّة بذمّة؟ يؤكّد علية القوم أنّ الثلاثة عشر

أوشكوا على قلب نظام الفرعون وأنّهم قد ثاروا على أحكم رجال الأرض.

الثورة بعينها مدعاة للسخرية، من يملك قراره يملك الثورة، من يملك قوت يومه يملك التفكير في الأمر على هذا النحو، من يملك ثوبًا يمكنه التباهي والتأنّق، لكنّ الحقيقة أنّ من يملك المصائر فهو في النهاية قد ملَك الأرض ومن عليها.

هي ليست طرفة فقط لعلية القوم، بل خلاص مؤكّد من سوس استفحل في متن البلاد وكاد ينخرها لولا فطنة الوزير «ثثي» ورجاحة عقل سيّد الأرضين، هي ليست طرفة أصلًا، ففي جميع الأحوال، هي معضلة.

من خلف رؤوس هؤلاء الذين سيقوا مثل قطيع من حملان عميان، يخرج «رع» زاهيًا محتفيًا بحكمته مبدّدًا لعتمة الأذهان يخبر الجميع أنّني ساطر للنهايات ومبتدئ للأقدار، يخرج كأنّه يستجمّ من عناء الطواف في السماء طيلة عهد الكون، ليروّح عن نفسه باشتمام عرق الخوف المبذور من أبدان الثلاثة عشر، يعانق تيجان الكبار الجالسين في منظومة مرتّبة لبدء تنفيذ العقاب، يلمّع فصوصها بأشعته المسلّطة، وما أقساها! وجوه الثلاثة عشر شاحبة، تلوح فيها معاني الهمّ وعدم التصديق، العيون جامدة، لكنّها ترتعش ارتعاشة زمن محطّم، وهذا الصفّ المتراقص تحت عيون «رع» يعد بذبح فذّ فريد غير مألوف.

في غضون دقائق، تبدأ الموسيقى المواسية، إنّ جمهور «طيبة» الأشراف، يحبّون -على وجه العموم- سماع هذه الموسيقى الطقسية المنبعثة من فرقة التعزية الواقفة خلق الحشود تنعى بموسيقاها رحيل آت للمصطفّين الثلاثة عشر، وإنّ الحشد

الواقف يشهد، المتنوّع المنتبه بكلّ حواسه، المندهش فيهم والسائم، المتابع وغير المبالي، الرافض والموالي، كلّهم تأثّروا فورًا بعمق التعبير الحزين الخارج من فرقة الموسيقى وبصدق مواساته، وبدا بعضهم قد غار في تأثّره، قد التهبت حواسه أو استُنفرت غرائزه الإنسانية، قد استبدّ به خوف من الآخرة أو حطّ عليه فِكر عظيم، بدا بعضهم أنّ نزعة الإحساس الحيّ الأصيل بالمأساة، والتي لم تكن ارتجالًا أو محض قدر أهوج، بل كان مرتّبًا لها بكلّ دهاء- قد دفعهم لأن يحنوا رؤوسهم بشعور مرهف فوق صدورهم ويبدؤون في نحيب صامت باهت.

الثلاثة عشر لا يفهمون ما الذي أجرموا في شأنه لدرجة توجّب العقاب، وحتّى لحظة طلوعهم فوق المنصّة المعدّة، وحتّى حين صدور الحكم ذاته، وحتّى وهم يتساءلون التساؤلات العاجزة الواهية، لا يفهمون.

لفيف من القادة وكبار الموظفين والأشراف يجلسون في انتظار التنفيذ، «رع» نفسه يطلّ مسترعيًا انتباهه جو المشهد، ذلك المشهد الغنيّ بالانفعالات المتضاربة، بين حزن وانبساط، بين استسلام ومكر، بين وداع وبين ارتياح، هكذا تمامًا بدا المشهد، تتدفّق خلاله نبضات ملتاعة، موجات متسائلة من أذهان الثلاثة عشر، نشيد النعي الجبّار، نغمات كئيبة، محبطة، مفجّرة للشجن، تارة تبدو مثل زمجرة عاصفة، أو هزيم رعد يجري صاخبًا في فضاء لامتناهي، أو تارة نسيم رقيق، من ذلك الذي يمضي في السهوب، في الحدائق، ويغرق في تأويلات حافلة بالتناقض.

هكذا تمامًا بدا المشهد، لا الفرقة تبدو ستتوقّف عن العزف، ولا القدر يبدو سيفعل، كلّ ما هنالك أنّ الخطّ الواصل بين كلّ

هؤلاء هو المعاناة لا غير، وإن اختلفت مظاهرها.

يتسحّب اللحن الشجيّ منصرمًا، والجلبة القائمة بين الحشود تتراخى، والكاهن المخصّص ها هو ذا يرفع يده اليمنى ويمضي يتلو في صوت جهير: (يتجلّى الإله العظيم «رع» داخل مركبه الإلهية في اليوم الذي تحاسب فيه الأرواح عند بداية إحصاء السنين).

تنخفض وتيرة الصخب، يسود الهدوء بعد قليل، يدقّ ناقوس البدء من آخر صفّ الحشود، ليبدأ المنفّذون عملهم غير الرتيب ولا الاعتيادي، وقد خصّص لكلّ واحد من الثلاثة عشر منفّذ، وبسكّين حامية طويلة ممتدّة إلى الأمام كامتداد الفزع ذاته، شرع كلّ واحد في جزّ رأس، ليتدفّق نحو الأفق لون أحمر مزبد، والآن ليست تلك آهات وداع فردي، ولا أنّات أرواح مغادرة، إنّه تحذير القدر من فداحة ما يؤتى، يحذّر وقد أخضلت عيون البعض بالعبرات.

نعم، إنّه هو، الوداع الصاخب، إنّها الهفوة الطاغية، الضاجّة، المؤدّية للجنون بعينه، والرؤوس المليئة بالحياة -منذ قليل- تجري فوق خشب المنصّة، تخضّبه بالتساؤلات، تتبعثر، تشكّل علامات استفهام ليست مجازية، و»بام» يرتعش وقد أسجيت عيناه كأنّه يغادر مع من غادر، يتمتم ذاهلًا: (لا تكبحوا روحي ولا تقيّدوا ظلّي، افتحوا لروحي ولظلّي الطريق حتّى أرى الإله العظيم في داخل مقامه يوم حساب الأرواح).

بعد لحظات، كانت ترنيمة النحر تسيطر وحدها على آذان الحشود المفتونة بالتعاسة.

(لا.. تـ.. نـ.. عـ.. و..ا/ أ..ر.. و..ا.. حـ.. نـ.. ا..) هكذا كانت تهمهم الرؤوس المطروحة أرضًا (فنحن أولى بنعي أنفسنا).

الطيور ذوات الرؤوس الآدمية؛ أرواح الموتي، ومن خلفها ظلال الموتي، ترفرف في أسى وفي حنق، و«بام» لم يزل يرتّل في أنين: (إنّي أسير، رغم أنّي متعب أسير، على شطّ النهر أسير، أتلقّفهم في العالم الآخر، وبسلام أمضي بهم. يا أيّها الذي يلمع كالبدر الذي يتوهج، اسمح لهؤلاء أن يتقدّموا وسط زمرة التابعين لك من الأرواح، علّ الذين هم في ضوء الشمس يطلقون سراحهم).

وفي غير توان، بدأت مراسم الهلوسة، سلخ الأجساد التي ظلّت معلّقة مصلوبة في أوتاد من خشب ومن دون رؤوس، تتقشّر الجلود التي ذبلت في هنيهة وكأنّ جازروها ينتشون من مجرّد رؤية الدمّ المنهمر يغطّي المدى، ومن أسفل يجلس الكبار، تنصرف عيون الحشود عن المشهد ولا تطرف، ابتسامات باردة -لا رجفة فيها ولا أيّ شعور من أيّ نوع- ترتسم فوق شفاههم، يرفعون كؤوس النبيذ ويحتسون الشراب والدماء، يجرعون المصائر في رتابة وفي بلادة، وليّ العهد يمرح مع «ثثي»، ومن فوقهم يجلس على محفّته الوثيرة إله البلاد بعينه «واح- عنخ»، وبعينيه نظرة رضا لم تحملها منذ زمن، وكأنّما لا ذنب يقترف ولا شيء يجري أمامهم، فقط عقاب واستُوجب.

الحشود تتباعد، تتقهقر، تفسح الطريق للدماء والدهشات والأرواح المُقبلة ترشق بينهم، الأرواح الثلاث عشرة، لا يشعر بها إلّا بعضهم، ويراها البعض الآخر جليّة واضحة ترغي عيونها بالوعيد، والسلخ على المنصّة معمل، والصمت بين الجموع يشيع، ببطء يشيع، يتحوّل إلى كبت قهري غير ملموس، كأنّ

ضربة نافذة من ضربات الآلهة قد سقطت على الرؤوس.

تنطلق الأرواح لا تلوي على شيء، ربما الوعيد لا غير، وفي حنايا الصمت الموجوع الحسير، بدا صمت الحياة بأسره، حزين، فخم، حاد، ما ينفك يزداد حدّة وقوّة.

أهذا لهو الآلهة العظام؟ أهكذا يكون مصير المتعبين عيشًا وموتًا؟ أهكذا منتهى الأشقياء؟ الأرواح تتساءل ولا يبقى بين الحشود إلّا التساؤل، لكن لا التساؤل قد يفضي لإجابة، ولا التحسّر قد يداعب الأمنيات، فالجالسون يحتسون الجعة والنبيذ ترحّمًا على أرواح المشاغبين أُثلجت قلوبهم شكرًا للآلهة على الظفر باستعادة الهيبة والمكانة لتاج الفرعون المبجّل.

ولا التدارك الآن، ولو من باب العبث، قد يصيد الأرواح المحلّقة ثانية، الكون الآن مجرّد ظلال، تنحسر جميعها في ثلاثة عشر، تطوف فوق الحفرة التي شقّت في لحظات ببطن الأرض، لتصبح مثوى للأجساد الرخوة، الحفرة التي لم تسع كلّ الأجساد المسلوخة، فأهيل عليها التراب، لتصير تلًّا عامرًا بالخطايا، وأرضًا تتشرّب الدماء في ظمأ عظيم، ولا ترتوي، لن ترتوي أرض الخطايا بدماء الأشقياء قط، والتلّ مع الزمن سينمو، سيظلّ محمرًّا متعطّشًا للدماء ما ظلّ التاريخ، وسيظلّ النبيذ الأحمر راحة دافئة في أجواف العظماء.

كان النهار يلملم أشرعة مركبه، ورأس «بام» يخفضها غير قادر على النظر نحو التلّ العالي، يقول في دمدمة: (نعم، أصبحتم مبصرين يا أيّتها الأرواح المذهولة الطالعة عبثًا، ذهبت آلامكم المؤقتة، وحلّت الراحة الأبدية، دعوكم من الأرض العمياء الظامئة، فمسكنكم السماء، لقد مضت نظراتكم الدنيوية،

واستعضتموها بنظرات نبيلة صادقة سوف ترنو إلى معنى الحياة الحقيقي، أظنّكم الآن تفهمون مغزى الشقاء الإنساني، والسعادة الحقيقية، ستعوّضكم الآلهة يومًا، صدقوني، وسيعرف بعد اليوم كيف يذكر التاريخ بأنّ ثمّة أشقياء يصعدون إلى السماء كذلك).

كان رأس «بام» يزداد انحناءً، يطأطئ في ألم، وقوامه يزداد تضاؤلًا.

كان يتساءل: ما الذي اقتُرف؟ هل أبيد العمر هدرًا؟ والرسالة؟ مؤدّاها؟ هل يُقمع المغلوبون لمجرّد تهيؤات افتراضية من أدمغة غلّفها النعيم الزائف لا غير؟ كان يتساءل: ما جدوى الشعائر التي تقام سرًّا في دجى الظلام بقدس الأقداس؟ ما جدوى أن يتطهّر في «بيت الصباح» ليأخذ المبخرة متقدّمًا نحو المذبح حتّى ما تبدّد رائحة البخور حضور الشرّ؟ ترى هل قام بواجبه؟ أم أنّه أخرس وضيع؟ كلّا، لابد من أنّه لم يعش سدى، لا بد من غاية لحياته، لا بد من أنّ حكمة مرجوة في أحلك مواقيت الشرّ، تشهد على ذلك متون المعابد المحتشدة بالتدوينات الطافحة بالمعاني والإجابات، القرابين التي تنال رضاء الآلهة، القرائن المتلوّة على جدران المعابد، الصلوات، الابتهالات، تشهد على ذلك مقامات الصاعدين في السماء، يشهد التاريخ، يشهد الإخلاص لرغبات القدر، يشهد «آمون»، «رع»، «خنسو»، «مت»، «حابي».

في يوم القدر، يشهد كلّ إله بما تمليه عليه الإلوهية، ذلك إن بدت هكذا الشهادة.

فهكذا يمحو التاريخ بعضُه بعضًا.

* * *

ومن عينيها تطلّ الحيرة، تجلس «خرفانة» ولا تخاطب أحدًا محدّدًا، تتحدّث إلى الهوام، إلى ساكني المكان من جنس غير البشر، إلى نفسها حتّى، تتحدّث وهي ترنو بعينيها الواهنتين صوب الكوم الأحمر الرابض في بؤس:

«يا لها من دماء طاهرة أُريقت! يا له من سرّ عظيم اختبأ في طيّات التاريخ! ثمّة ولد لي يغفو هناك في اطمئنان، وأولاد آخرون، فرفقًا بهم يا كوم الحيرة، كن ملاذًا ولا تكن عذابًا، ارحم من عاش في جوفك طيلة السنوات، لكن يا لك من تلّ بائس كبؤس كلّ الأشياء! تُرى إلى أيّ مصير ستؤول النهايات؟ إنّما يبدو أنّه وكلّما جفّت دماؤك، وُلدت أخرى من جديد».

(أقصوصة)

يدوم «حابي» للبغاة وللمتوسلين على حدّ سواء، أخدوده من غير انحياز ولا أرجحية يشطر البلاد، من فوقه ترفرف الأجنحة البيضاء، والسوداء. نهر النبيذ يركض بلا معاناة أو اكتراث، نبيذ أحمر، يسقي الضفاف والأشجار وأفئدة البشر. اليوم كلّ شيء أحمر، وكانت السماء أيضًا.

حفل الوداع

بردّية «نخت- نب» قبل الأخيرة

في نوبات مداهمة الشرطيين لمن أجرم أو ابتغى عليه عقاب، في المشاورات وفي الشؤون العليا، في الاحتفالات وكذلك في المراسم المهمّة، في خصوصيات الأسرة وفي مقتضيات الترابط العائلي، لم أكن إلّا بالجسد حاضرًا، لم أحضر يومًا برأي أو عقل، كم من مرّة أكاد أهتف: لست أبًا يا سمير الآلهة، لست أبًا، أراك مجرّد نقش باهت على جدار معبد مُهمل لواحد ممّن استُوجب رحيله.

ولكن هذه النغزات، تجيء ولا تجيء، نوبة شديدة التكبيل، ونوبة شديدة الوسوسة، تجيء توهم قلبي بشفقة، ثم تجيء تدعوه تنظيفًا من غبارها، نغزات أصلها قدر العِشرة، وأواصر الدمّ، تتفرّع إلى هلاوس، خيالات، ذكريات، تعلو كيفما يتّفق، وتتلاشى بلا بوادر.

شيّد أبي كلّ الحصون، إلّا حصن الحذر من الكتف القريب، الحذر من رغبة تسكن ولا تفارق، رغبة ابن إن اكتملت عظامه فكّر في ذات السطوة المأمولة، والتي تتناحر عليها أوطان، ابن يمتلك نعش والده، يمتلك الخلاص الأخير، ويمتلك الحيلة والشغف المليء بالهوس المشروع، رغبة كبير قوم برأس سلسلة المقام اقترب كفاية لرصد المثالب والثغرات، السلاح الأوقع تأثيرًا عند الخيانة المستبعدة جدلًا في خيال الأب السطحي، رغبة أخرس قد يقوم

في ليلة بهوى سائم فينقلب، ويُشبع الجسد اللدن المطروح تحته بطعنات مكبوتة، كلّ الأهواء يا أبي محتملة، وكلّ التوقعات -لو تدري- واردة، حتى أهواء الفقراء الذين يكدّسون شقوق «طيبة» ودروبها، ماذا لو تألبوا على الفقر يومًا وبصدق المعاناة نفسها؟ لقد ملأت يا أبي البلاد بالذهب والجرانيت والفضة والعقيق وبذور التفرّد والتباهي، إنّما كدّست بها خزائنك أنت، ولم تملأ -رغم ذلك- نفوس الناس بالرضا، بل بذرت أيضًا بذورًا من حقد ضارب في أعماق المملكة، فمن يعرف حقًّا؟ أليس من اليأس ما يدفع لملاقاة المصير في غير اكتراث؟ ومن اليأس ما يهدم ممالك، من اليأس يا أبي ما يقتل، يقتل بعجز ضرير.

(لن تتكرّر إذن تجربة الانصياع ثانية، ولا تجربة اللهاث وراء شهوات بلا معنى، ولا تجربتي أنا السابقة في استشارة الضمير، فحتّى الضمير أعياه طول الصبر).

أيّ صلاحية بعد صلاحية الأمان نفسها؟ من تأمن إن لا تأمن نتاج جسدك المصون يا ربيب الآلهة؟

في يدي قنّينة السم، لكن فيم تختلط؟ في شراب؟ في طعام؟ في نزوة من نزوات الملك؟ فيم تختلط؟ وكيف تختلط؟ على بساط عقلي تستلقي في دعة وخمول تصورّات عمّا قد يكون، ذلك لو سدّدت الآلهة خطاي وجهة المصير الجميل، تلعلع التصوّرات وتستبق النتائج، أجدني إلهًا هبط من السماء ليجوّل الشعب أبصارهم في بهاء طلّته، لتأتي الأفواه تلثّم في وضاعة الأدنى، عبر ذلك، ربما، يداخلني عطف على الجميع، فأمنحهم رضا الإله المطوّق بين ذراعيه جلال المُلك.

لكن هيّا، لملم رجاءك يا أبي وارحل، قبل أن أنسف صورتك

من أمامي قبل الموعد، لا تستجد، لا توغر في نظرة الاستعطاف المبالغ فيها، وغير المحتملة، لا تهمس في خنوع: بني، تذكّر أيّ ابن كنت؟ ابنًا يجافيه القدر أكثر ممّا تجافيه أنت، ابنًا يأوي كلّ مساء تساؤلاته في صدره ولا يغفو، ابنًا يرى من عدم صبرك على الشهوة ما يديم الأسى في قلبه لأمد الدهر، أنت كذلك، فلا تواجهني بمثل هذه النظرة المعاتبة ولا تنتظر منّي بعد ذلك أيّ تسامح، امض عنّي بكبريائك المحطّم فوق صخرة الجَلد المرير، ووفّر رجاءك للآلهة ربما تصفح عنك، وفّر توسّلاتك للسماء التي لا بد من ستتجهّم عند صعودك المهيب، لست ابنًا بمشتمل اللفظ، ولست لي أبًا بمقتضى الدور، فامض، امض ولقاؤنا يوم الوداع الأعظم.

في يدي قنّينة السمّ المعطّر، وفي أحشائي تستعرّ نار بدت دون انقضاء.

خيرًا فعلت يا سمير المعوزين، جئت يا صباح المدينة أخيرًا، يا صانع السكينة بقلوب الجبناء أمثالي. لحظة خروجي من البار، لحظة أن أتماثل للوعي ثانية. ولو لاحقني صوته، لو دبّ في خلايا عقلي توجّس، لو مضيت أتلفّت حولي والهلع لم يزل يداخلني، ولم أشعر إلّا بانتصاب شعر رأسي، لقلت أنّ «عيط الله» هنا من حولي في الأجواء، لكن الهلع قد يأتي أحيانًا من داخل الرأس، لا من خارجها.

أهكذا تنقضي الحكايات؟ فزع، فلوذ، فإلهاء، فتذكّر، لم يمض غير سواد ليل، كان فيه حدثي المذعور، وقلبي المشطور نصفين من هول ما رأيت، لكنّني الآن أسلّم إلى منطقة رمادية بين بين، الآن تيقّنت، وعيناي تستجوبان وجه الصباح المليء بالغماس، وقد بدا لي أنّ أوله مثل آخره، صباح مملّ، يأتي ليمضي فيما تمضي الأشياء كافّة في سلام، والتهيؤات كافّة، أنّ الظنون أخذت تنداح من أعماقي، بعد أن بدا لي كذلك أنّ ليلة من استواء العقل هي ليلة كافية تمامًا لتوكيد ذات الهيئة إيّاها، فأراني لست أكثر من طائر جريح يرفرف بجناحيه عبثًا ودونما جدوى، وسوف أظلّ جريحًا إلى ما لا نهاية، أتضرّع إلى وجه أمّي المرتسم نبضًا داخل فؤاد السماء في جزع: انظري ماذا حلّ بي، قبلك ومن بعدك، تطاردني الأشباح ويطاردني الماضي، وصداع العالم يفسّخ المعالم من حولي، انظري يا أمّي جيّدًا لعلّك تستطيعين الحكم، ما زلت

أتملّى في المأساة بدهشة الغريب، ما زلت لا أصدّق أنّني بلا أب، تمامًا كما يقولون، ما زلت أسكن الهياج في صمت مخز، يراودني وجه أبي الذي لم أره، كأنّه وجهي، نفس ملامحي، نفس عجزي، وأنا أستشعر صدمته في عمق، بل ولك أن تتخيلي أنّني قد أشفق عليه، على علّته في اللوذ بالفرار، كلّنا في النهاية نسل عاجز، سواء قدرًا، أو قسرًا، ولك أن تعرفي أنّ التفاصيل أمام عينيّ في شكل الذباب، ذباب يروح، وذباب يجيء، ولؤم لا يفيء إلى منتهى، قد مُكر بنا يا أمّي، قد أجدني منتفضًا في مكاني انتفاضة عجز أبي، مصعوقًا ليس فقط ممّا سمعت أذناي منك، بل ممّا تخيّله عقلي البائس، ذلك التخيّل الذي أوحي لي في وهلة أنّني بت رجلًا أخيرًا، لكن أيّ رجل! أنا جرعة مكثّفة من خزي تندسّ في هيئة رجل، قد ضاق صدري بالألم يا أمّي، وبمثل تلك النظرات التي تمشي من العيون نحوي في صلف، تمشي في خطوط معوجة، متعرّجة، لتبلغ غايتها في إذلالي، لتخربش فضاء الطمأنينة أمام عينيّ فيتعكّر المدى، ولا أشهد الراحة أبدًا. ذات المأساة يا أمّي، بعينها، التي لا ألبث أتوه عنها، حتّى لا أتوه عن نفسي، إلّا وأجدني قد عدت لها مجبرًا، بإرغام القهر ذاته.

- قف.

لا، لن أقف يا «عيط الله»، لو استطعت اطلع خارج المعبد، هنا في البراح معي الهمّ المرير، ومعي أيضًا النجاة منك، اخرج إن استطعت، اخرج.

- قف.

الخطوط المشبّعة بالماضي تجرّ الشوارع نحو مصائر مبهمة، هيّا يا أمّي، استمعي إلى كلّ ما يفور بداخلي من أسى، وامسحي

دموعي، بطرف جناحك الأبيض البعيد، قرّبيه منّي، وامسحي، راقبي من أعلى ضياعي في هذا العالم من غيرك، كما كنتِ تراقبينني من أسفل، ارثِ لي، وسأرثي لكِ، وسامحي أبي العاجز الذي غُيّب عقله مبكّرًا، تدرين تمامًا ما حلّ به، ولولا المسّ ما تركك تعانين، ولكان عرف أنّ له ولدًا يعيش في براري القسوة من دونه، ولا بأس يا أمّي، قد ماتت معك كلّ المدينة، أرى كلّ شيء الآن منقضيًا، وأراني أنزلق نحو نهاية سعيدة، فرائحة العفن سوف تسود حين لا تعود الأشياء معشّقة في أماكنها، فلا بأس، سوف يسود العفن، وتنتهي مأساتنا.

استدرت مع استدارة سور المعبد، لا ألوي على هدف، مجرّد الصباح فقط، وقد جاء، كان السور صامتًا، كالعهد به، وكان الصباح المتجعّد صامتًا، خاليًا من الأشياء خلوًّا مستفزًّا.

كان الصباح مظلمًا أمام عينيّ، لا يتجوّل في أثنائه بالقرب منّي حول سور المعبد إلّا بضعة كلاب ضالّة في عينيها سُعر، بدت تخرج من ماض عطن بعيد.

مزامنة

يُشرق المبجّل «واح- عنخ» على الكون مزامنًا لإشراق «رع» نفسه، ويطلّ على التفاصيل كشجرة مورقة، يحمل بين عينيه جوهر المُلك بأسره، ويحمل على كاهله مظهر السلطان والحُكم، يحتفلون به احتفالًا خاصًّا عند أن يستيقظ، يجد طائعه الأخرس أول من يحييه هذا الصباح، كعادة كلّ صباح.

اليوم عيد «آمون»، تغرق المدينة في الاحتفالات والبهجة، والقصر مليء بالأتباع، يهيئون أنفسهم ويهيئونه لرحلة الاحتفال المجيد المُنتظر، الحلاّق الذي يدخل أولًا إلى حجره سيّده ليقلّم أظافر يديه وأرجله، ثم الكهنة الذين يلاحقونه واحدًا بعد آخر بالتعاويذ والطقوس المباركة، تلاة الأناشيد المقدّسة الذين يقفون خارج باب الغرفة ويتلون في صوت متواتر، والخادمة التي تخلط ماء الحمّام الدافئ الذي ينتظر الملك بعطور النعناع.

في تثاقل ينهض الملك، يقدّم كلّ هؤلاء فروض التحية، ثم يخطو نحو حمّامه بجسد متكاسل، يهب جسمه للدغدغة المستلذّة، ويغمض عينيه عن صحو الكون كلّه، يعد هذا الكون ليس أكثر من وسيلة للأبدية، معبرًا للحياة الأخرى، الدنيا بضجيجها وبهجتها ومآسيها ليست سوى تفاهات يتلهّى بها من لا يدرك حكمة المأوى السماوي فيصرف فيها حياته الهوجاء دون أن يدّخر، هكذا برمّتها الدنيا، لا عون فيها ولا طائل منها، إنّما ما سرّ هذه الحكمة المتأخّرة يا «واح- أنتف»؟ ضحك في نفسه بألم،

أكمل: الآلهة تتخيّر ميعادًا بعينه وبمقتضاه تهب الحكمة، وإنّ الآلهة حين تختصّ واحدًا بالرعاية فهي تهيؤه للمثوى البعيد النعيمي بترتيب محدّد، لا دخل ليد خليقة فيه، ربما ذلك تمامًا ما تفعل معه، تؤازره وتقف جواره في سند عظيم، فمثله مثلها، إله يعيش على الأرض بين الرعية.

يستقبله الخدم بالزيّ الملكي الفخم، يضعون فوق رأسه الحليقة شعرًا مستعارًا، مستدير الشكل، يحوطه إكليل معقود من الوراء، تتدلّى خصله فوق جيده، يلتفّ فوقه ثعبان «الكوبرا» المصنوع من الذهب، منتفخ العنق، ومنتصب وسط جبين الملك المعظّم.

عيدك اليوم يا إله الآلهة، يا «آمون» المجيد، ترى كم من الأعياد عايشناها معًا؟ وكم من الأعياد ستُعاش دوني؟ لماذا لا يدوم الحماس كبداياته المتأجّجة؟ ولماذا يعتريني خمول البدن؟ أستميحك الغفران، لست سوى بائس يسرف في خيالاته، حنيت هامتي لك طيلة أعوام عمري، وبتّ منغّصًا بالفتور، أستميحك الغفران، فأنا بائس، ولعلّك تعلم عن بؤسي، لكن ما جدوى الاحتفال بك وسط كلّ هذه التعاسة التي ترتع في البلاد؟

يستنفد الجميع تحيّات الأرض وهو يهبط سلالم القصر في خطوات ملكية ينتابها صلف فطري، ينحنون ويُقبل بعضهم فوق يده يلثمّونها. أتباع، يقول في نفسه: كلّ هؤلاء أتباع، من أصغر خادم لأكبر موظف، وسوف يتبعون غيري لو قضت الآلهة بصعودي، فأيّ إخلاص وأيّ تبعية بلهاء؟

يتحرّك موكبه، وجميع رجال البلاط في صحبته، متّجهين لمعبد «آمون» في مقاطعة «الكرنك»، اليوم استثنائي، يأتي في موعده

من كلّ عام، ولا يختلف من أمر بؤسه ولا من أمر البلاد شيء، يتساءل: لماذا عليه أن يفتتح كلّ أعياد «طيبة»؟ لمجرّد أنّه الملك!

يتّسع الطريق والموكب يزحف بداخله كحيّة طويلة داهمة، أعلام زاهية تتأرجّح فوق صواري السفن التي تكدّس ضفاف النيل، وتتمايل في زهو وفي فخر، الساحات حوله تعج بالغناء والرقص، وحلقات من المشاهدين للموكب ينفرج عنها مرمى البصر.

يمرّ الموكب وتلاحقه الهتافات، في سأم يلوّح بيده، وفي رتابة. تحاصره أشباح الماضي ويرى نفسه في كلّ عين تطلّ نحوه من تحت عجلات الموكب، يهمهم: كنتم ملاذًا في يوم غابر.

تطوف برأسه أصوات الاستحياء التي كانت تخرج وسط الخرس وتشكو، هل تشكو الآن؟ ممّ تشكو لو أنّ لها شكوى؟ وكيف له أن يعرف لو أنّ ثمّة شكوى؟ لم يعد يلتبس عليه أيّ شأن من شؤون الماضي منذ أمد، فالماضي البعيد أزاله وهج العرش من ذهنه، ولو حتّى ثمّة آثار ضالّة لم تزل تجوب خياله.

جموع الأشراف وكبار الكهنة وأعداد غفيرة من العامة يملؤن مدخل معبد «آمون»، هتافات، هتافات، تنبع من بين كلّ الخرس المسكونة به المدينة. «ثور أمّه»[٣٩] الأبيض يتقدّم من بين الحشود حاملًا بين قرنيه قرص الشمس تعلوه ريشتان طويلتان، يعافر بحافريه ويغبّر قُبل الجموع بسحابات رمادية، يتناول الحرّاس الملك، عددهم اثنا عشر على الأقل، ليهبط من عربته فوق محفة كيما يلج لداخل المعبد، المحفّة مقعد ضخم، له مساند جانبية، مقام على قاعدة مرتفعة متوّجة، جوانبه مزيّنة برسوم أسود في وضع السير، وظهره مزيّن برسم لمعبودتين مجنّحتين للحماية،

أكبر أبنائه «نخت- نب» وليّ العهد يسير مباشرة أمام حاملي المحفّة، وبعض الأشراف يتنافسون لنيل شرف حمل المحفّة، وأمام مستوى وجه الملك، بعض الخدم يروّحون بمراوح ذات أيد طويلة من ريش النعام. هتافات، هتافات، زاخرة بالرتابة، والزيف، لا شيء اليوم قد يعبّر عن مدى إحساسه بنفس الرتابة، الهتافات لا تحمل أيّ نوع من الحماس، كلّها رتيبة، وكلّها يخالطها تلفيق الرعية.

يتفقّد الملك سير الموكب الذي يتداخل مع الحشود مارقين لجوف المعبد، في المقدّمة مجموعة كبيرة -وفيهم بقية الأبناء- من كبار الموظفين والكهنة يحملون الصولجان والقضيب والعصا والبلطة كرموز للشعارات الملكية، وعلى جانب الموكب أحد رجال الدين يحمل ملفًّا يتضمّن برنامج الاحتفال وينظّم تفاصيله، وعلى الجانب الآخر «بام» لا يكف عن تحريك المبخرة تجاهه وهو يتلو، ضاق صدره بالرائحة، لو فقط يا «بام» تبتعد عنّي قليلًا حيث أستنشق بعض الهواء الصافي.

يبلغون حجرة «آمون»، كلّ الحشود مكدّسة خارج الغرفة، حتّى يتمّ تطهير التمثال المقدّس سرًّا، يدخل «بام» ومن ورائه الملك فينغلق من خلفهما مدخل الحجرة، يربّت «بام» على التابوت الخشبي المغلق، ثم يبدأ في فضّ الختم الطيني، يسحب المزلاج، ينفتح مصراعا التابوت ليظهر تمثال «آمون» الخشبي المذهّب، تمثال مقدّس، يسجد أمامه «بام»، ويحني الملك المبجّل رأسه، يدور «بام» حول التمثال -بعد أن يستقيم واقفًا- يبخّره، ثم يدهنه بالطيب، ويدلّك قوامه ليكتسي ببريق الدهان اللامع، فيبدو سينبض بالحياة، ويذهب بعينيه في تسبيح نشيد التعبّد:

«كلّ شيء في العالم ملك لك يا «آمون» المعطاء، أنت منبع كلّ خير، ونحن رضوخ، تعلم عن نوايانا وعن رغباتنا الدنيوية كلّ شيء، وكما في استطاعتك أن تتدخّل في أنماط أحوالنا، باستطاعتك كذلك أن تسخط علينا وقت العصيان، وتشيح بوجهك عنّا».

تطرف عينا الملك في خشوع، يبدو كما لو أنّه سيخرّ تحت قدميّ «آمون» راكعًا مبتهلًا معتملًا بالندم، تغشاه دموع لا تبين في عتمة المحيط، و»بام» قبالته يبدأ ينشغل في وضع أنواع من طعام أمام تمثال «آمون»، يبدأ في التطهير النهائي، بالنطرون والمياه المقدّسة والنزبنتين، ثم يتسحّب للوراء، في خفّة وفي هدوء، موليًا وجهه صوب الإله، وقد أخذ يزيل أثر خطواته ماسحًا الأرض براحة يده، ثم استدار نحو الملك، داعيًا إيّاه للتقدّم.

في وجل مضى الملك يتّخذ في الحلول مكان «بام» أمام تمثال «آمون»، ويتّخذ وضعية التعبّد. «آمون»، أشعر بأنّي لا أراك إلّا في ذات الميعاد من كلّ عام، هل هرمت يا «آمون» مثلي؟ هل انتابك كسل النعيم السماوي؟ لعلّك تعلم يقينًا أنّ ولائي وتفانيّ في عبادتك فوق مستوى الشكوك، وتعلّقي بتلك الأفكار التي تعترك في ذهني لا ينال قط من قداستك، لكنّني في واقع الأمر مليء بالصخب، لم أعد أنام يا «آمون»، لم تعد لديّ راحة البال يا إله الآلهة، أُسقط في يدي من أمر ذهني فلم أعد أدرك حتّى مواقيت التعبّد، تخيّل يا «آمون»، المبجّل «واح- أنتف» أصابه خرف النهايات، بدني بات كخرقة لينة لا يمكنه أن يقام منتصبًا إلاّ وسرعان ما يخرّ على أقرب مقعد، الأشباح في ذهني يا «آمون»، أشباح الماضي وخرافات العرش، خارج هذا الباب

ينتظر السفراء القادمين من كلّ حدب وصوب مقابلتي، فبأيّ وجه سوف أقابلهم؟ وجه الملك سديد الرأي المتناهي في حكمته وعدله، أم وجه الرجل المليء بالخزي وبالتأنيب؟ أخبرني يا «آمون»، أيّ مأساة بعد الندم؟ أيّ مأساة؟ برزخ هي تلك الحياة العابثة، برزخ إمّا لسخط الآلهة العظام وإمّا لأبدية الإلوهية ذاتها، أيّ واحد من أولئك سوف أكون؟ وبأيّ هيئة تنتظرني السماء؟ أشعر بأنّ محاكمتي في الأعلى قد أوشكت، وأنّها لن تكون محاكمة مرضية، بأيّة حال، وقد أنفذت -من ذي قبل- إلى «رائي العاقبة» من أمر حالي، طلبت منه أن يجتهد في رصد ما يمرّ به كياني من قلقلة وعدم استقرار يا راعيّ «آمون»، قلت له إنّ التكهّن لمجرّد الإرضاء ليس مفترضًا، عليه أن يأتيني بإيضاح حقيقي لا يحتمل أيّ تأويل آخر عمّا يساور ذهني، تخيّل جاءني بعد أيام يا «آمون» وفي يده مبخرة، مضى يدور بها من حولي، ويهمهم في سرّه، ثم قال لي ليس يأبه بازدياد كربي: «إنّ الألم في النفس يا مولاي ظاهرة طبيعية يعاقب بها ضميرك ذاتك، انبش في ثنايا القديم، واستشرف حلول الآتي، قمرك قد يخسف في ليلة بعينها، خسوفًا تامًّا، ستحتجب عن الأرض كما لم يحتجب أحد منذ أمد بعيد، هذا يا مولاي كما أمرتني، الصراحة والإخلاص في الرؤية». حينذاك يا «آمون» صرفته وقلبي يغور داخل اضطرابه أكثر، وقلت في نفسي قد وجب على هذا اللعين الرائي إعدام لم يحدث لبشر، لبجاحته في تفسير همّي.

يستمر الملك في مباشرة مراسم تطهير «آمون»، يبخّره بتؤدة، ويسكب عليه المياه المقدّسة، يقدّم له القرابين، وهو يستطرد: «أبي الذي تمنحني الحياة، كن راضيًا عن قرباني». يستدير نحو «بام»، ينفذ له نظرة بعينها فيفتح الباب، تدخل الشمس الحجرة

في سرعة، وتحتضن وجهيّ الملك و«بام»، يطلّ تمثال «آمون» على الحشود زاهيًا جميلًا برّاقًا، ترتفع الأصوات من الخارج، تهلّل:

«آمون..

يا «آمون»..

يا واهب الخيرات

يا مالئ الشروق بعظمتك

نقف على أقدامنا شكرانًا

تحتضننا ببهائك

أيّها السامي يا مبدع الحياة».

تختلج المملكة بالأصوات، يهبّ حاملو القرابين ليقدّموها لـ«آمون»، ترفرف أعلام الثعالب والصقور وطيور الأيبس؛ الآلهة التي اصطحبت «آمون» في أسفاره الشاقة. تدنو المحفّة لتحمل الملك تطلع به إلى منصّة قدس الأقداس؛ مستقر الطواف الأخير، يربد الميدان بالهتافات، والملك يمخر عباب الحشود في بطء وفي قداسة، وحوله يتراقص العامة، ويتقافز الأقزام في تشكيلات طريفة، يصعد بعضهم قربًا من وجه الملك باسمًا، فلا يملك الملك إلّا أن يبتسم بدوره من لطف هيئة القزم، لكنه يبتسم بشحوب ملحوظ، وفي الجوار فرقة لتوزيع الخبز واللحم والفاكهة، والعطور والجعة.

ما أقساك يا عيد الشبع! وما أقساني من ملك لا يشبع شعبه إلاّ في يوم بعينه! غير أنّ الشبع في حدّ ذاته أملاً نسبياً.

تظلّ الحناجر تردّد:

«آمون..

يا «آمون»..

احمل لنا بهجة

اطعم لنا فمًا

وسنبقى خاشعين».

تهدر الجموع والملك يمرّ من بينهم، اليوم كلّ الأبناء وكلّ المقرّبين يتواجدون من أجل «آمون»، هل تكون تلك ولو ومضة من سعادة؟ يجتاح الملك ضباب يتراقص، مؤكّد هي تلك الحشود التي تتراقص من حوله، لكن الضباب يلثّم مرمى بصره، يجعله يمضي إلى أعلى كمن يمضي إلى أسفل.

سلام عليك يا أبي، سلام عليك يا أخي، سلام عليك يا «آمون»، كم هو عجيب سرّ ما تخبرني به في وسط هذا الظلام!

مركب الشمس تتهادى بين أمواج السماء، تبعث للماثلين وداعة الدنيا ووداعة الآخرة، وبين منتصف كلّ المعاني يقف الملك حانيًا عينيه نحو الحشود المعتركة بالأسفل، القشور.. القشور تزداد كثافة، وفي هذا المنتصف لا تصبح الأشياء مدرَكة بدلالاتها، بل تصبح خليطًا ما بين ماض وبين قادم.

يقف حوله «ثثي» ووليّ العهد الأكبر و»بام»، وبعض الأشراف، يقترب منه ولده بابتسامة عامرة بالبهجة، يناوله كأسًا من نبيذ، قائلًا:

- كأس الحياة يا أبي المعظّم.

يتناول منه الكأس والتفاصيل لم تزل مضبّبة، وعلى مهل يرتشف، يرتشف مع مذاق النبيذ النفّاذ مذاق كلّ الأشياء إيّاها، الأشياء القديمة، مذاق الحانات البخسة ودروب السكك المتشقّقة، يرتشف مذاق البائسات اللواتي حطّ بهن اليأس، مذاق الحسرة يرتشف.. ومذاق الإجهاد، لم يكن للماضي أن يحضر شاهرًا كلّ أسلحته، لم يكن للظروف القديمة أن تحيى من جديد، ولم يكن لسائر تلك الذكريات المريرة أن تومض من داخل نسيج الضباب كألغاز موجعة. يرتشف على مهل، ويستمع لتأوّهات المساكين، يتساءل في حنق: لماذا تهتفون لـ«آمون» إن كنتم لا تؤمنون به؟ تعلو بتدريج كلّ الهتافات داخل رأسه:

«آمون..

يا «آمون»..

دعنا وامض في رحلتك

فلا أنت ترانا

ولا نحن نراك».

تنسكب من قرار ذهنه التساؤلات كافة، يحوم صقر على المدى، وصقّاره يوحي له بالانقضاض عليه، على الملك نفسه، ذي الجلال وذي المكانة السماوية، يساوره تخوّف، وتعتمر ملامحه بالوجل، تتغبّش جميع الصور، فيرى نفسه برداء من بؤس، والأخرس يسنّ سيفًا ثم يمضي به داخل متن بطنه، يسنّ سيفًا من شكوى ومن احتقار، ولهب يخترق أحشاءه، تستديم المشاهد أمام العين مضبّبة، ولا يقوى على الصراخ، يلتفت وفي عينيه نار مستعرّة نحو ولده، يتشبّث بذراعه خشية أن يقع على

الأرض مسكونًا بالحسرة.

والهتافات تعلو في رأسه:

«آمون..

يا «آمون»..

دعنا وامض

جب هذا الكون في مدار آخر

فمدارنا هوى نحو سفح العدم».

يقبض على ذراع ابنه في ألم، يجلس، فيجلس الجميع يتطلّعون له باستغراب، يتلوّى فمه، وتشتعل أحشاؤه أكثر، وبأنامل مرتعشة يشير لولده أن يدنو بأذنه نحو فمه، يهمهم له:

- أنا متعب، احملني نحو الراحة يا بني، اكتفيت من هذا العرش اللئيم، بدّلني بك، اكتفيت من العرش وأريد أن أقضي عمري الباقي في سلام، إنّما إيّاك وتكرار ذنوبي.

نظرة الهلع تفرّ من عين «نخت- نب»، يسند والده وعيناه تزدادان احمرارًا وهولًا، وسرعان ما يستدعي الابن القديم وبذات الرفق والمحبة، يصيح في عدم احتمال مباغت:

- «زااااااري»...

يردّ عليه «ثتي» في تعجّب وتلميح وقد احتقن وجهه:

- ارتحل «زاري» في مهمة يا مولاي.

يود «نخت- نب» لو أنّ الزمن يعود للوراء بضع لحظات، لو أنّ «آمون» يسامحه، لو أنّ الفرعون المبجّل يعفو عن إثمه، عينا

الملك تغوران في محجريهما، ويبتسم ابتسامة واسعة وهو يولّي بصره شطر السماء النائية، صوت «آمون» يأتيه من بين طيّات السماء جليًّا رصينًا:

- اعتق ملامح النور الذي كان قديمًا نورك ساعة حلك، وحرّر طقوس الشعائر التي كانت تقال لأجل خروجك من أرض الموات مغتسلًا من إثمك.

ينحسر الكون في صرخة حادّة، كأس الحياة كأس هلاك يا أبي، ليتك ما قبلتها منّي، وليتني ما كنت في هذا الوجود أصلًا، ليتني نطفة ضالّة تهيم في فضاء بوهيمي. يتلفّت حوله في جنون، وأبوه يسلّم إلى خور مؤكّد، الحشود أمسكت عن الهتاف، والصمت عمّ الرؤوس، الملك يبتسم، يحمل على شفتيه إقرارًا بالسكينة، الآلهة لا تموت يا أبي، لا تموت، قم، قم لتغفر لي ثم امض في سلام، وهذه الوجوه جميعها، ما لها اليوم سوداء! بلون ليل لا قمر فيه ولا نجوم، ابكوا، اغرقوا أرض «طيبة» بدموعكم، ما هذه اللامبالاة؟ ألا يبالي أحدكم بأفول إله؟ احضنوا كلّ تلك الأشجار والورود والقرابين واذرفوها وجعًا على مولاكم، لا تقتصدوا في الرثاء، قد مات أبي. قم يا أبي، قم لمرّة أخيرة، الآلهة لا تموت، ولو بإرادة أبنائها.

•

مركب الشمس ترتحل بعيدًا، في خوف وفي استنكار، والحشود من تحت كفّت عن التساؤل، كلّ الفراعين تموت، ويبقى خلفاؤها، مات الملك، ليكن، كم من ملك مات، وهم لا يموتون، البؤس لا يموت، مات الملك، ليكن، كم غيره سيعيش، مات الملك، فليمت، وليعش ولي العهد أبدًا.

كانت العيون ممدودة نحو الأفق تحدّق، بدت السماء محمرّة

احمرارًا آسيًا، وبدت المدينة تضيق عليهم وتُحكم ضيقها، وكلّ الأحداث لم تكن قدر وقوع الملك صريعًا أمام أعينهم، لكنّ في النهاية كلّ الأحداث تجري لمستقر.

في لامبالاة كان يجلس «عيط الله» فوق قمّة باب المعبد الحجري الذي لا يبالي بدوره، وبعينيه يسكن امتداد زمني خرافي، يجلس بانتظار صباح هشّ ككلّ صباح آت، وكان «آمون» انطفأ، والطبيعة تتحلّق الحشود في أنفة وعدم اهتمام، كأنّ الكون يجري في نفس المسار.

وكان التاريخ لانهائي..

....

....

....

....

....

....

....

.... ∞

حواش:

(١) «خنسو»: إله القمر في «طيبة»، ابن «آمون» و«مُت»، له معبد في «الكرنك» ضمن ثلاثة معابد، وهي المكوّنة لمعبد «الكرنك» الكبير، معبد «خنسو» ومعبد «مُت» ومعبد «آمون».

(٢)«ثثي»: حامل الخاتم وكبير الموظفين في عهد «واح- عنخ- أنتف» ثاني ملوك الأسرة الحادية عشر.

(٣) «أنتف عا»: جدّ سلالة أمراء «طيبة» الذين أصبحوا فيها فيما بعد ملوكًا.

(٤) «واح- عنخ- أنتف»: ثاني ملوك الأسرة الحادية عشر، تولى قيادة المُلك حوالى عام ٢١٤٠ ق. م، وبقي معتليًا عرشه قرابة نصف قرن حتّى عام ٢٠٩١ ق. م تقريبًا.

(٥) «منتو»: إله الحرب عند الطيبيين.

(٦) بام»: كاهن مقاطعة «واست» في أول الأسرة الحادية عشر ولا يوجد توثيق حقيقي لاسمه أو أصله.

(٧) «واست»: الأقصر الحالية، وإحدى مقاطعات الجنوب في عهد الأسرة الحادية عشر.

(٨) «سهر تاوي أنتف»: أول ملوك الأسرة الحادية عشر، حكم طيبة أعوامًا قليلة ولا توجد حادثة تُذكر حدثت في عهده خاصة بالحروب التي عصفت بالبلاد لثمانين عامًا أو يزيد.

(٩) «الفنتين»: أسوان الحالية، أو النوبة على وجه التحديد، المقاطعة

الأولى في مقاطعات الجنوب في عصر الأسرة الحادية عشر.

(١٠) «شس»: العرّابة المدفونة، وهي قرب البلينا في محافظة سوهاج حاليًّا.

(١١) «آمون»: إله الشمس في طيبة وهو إله محلي.

(١٢) «زاري»: اسم مستوحى بتصرّف.

(١٣) «الأرض الحمراء»: الصحراء.

(١٤) «إيون»: عاصمة «واست» الجنوبية، وكانت تسمّى «عين شمس»، ومكانها «أرمنت» الحالية.

(١٥) «خب- رِش»: تاج هذه الفترة في الأسرة الحادية عشر قبل أن ينتقل كلّ حكم البلاد في يد فرعون طيبة.

(١٦) «عاشيت»: إحدى أميرات الأسرة الحادية عشر.

(١٧) «ونلك»: أستاذ آثار بريطاني الجنسية كشف عن حجرة دفن الأميرتين «عاشيت» و«كاويت» في موسم حفر في الدير البحري في عام ١٩٢٠ م.

(١٨) «كاويت»: أميرة في الأسرة الحادية عشر.

(١٩) «هيراكليوبوليس»: إهناسية المدينة، في شمال البلاد، اغتصب حكامها السلطة من آخر ملوك «منف» الضعفاء، فصارت عاصمة البلاد قبل أن ينتزع الحكم الأسرة الحادية عشر في «طيبة» ويجعلونها عاصمة للوجهين القبلي والبحري.

(٢٠) «خيتي»: حاكم مقاطعة أسيوط في أثناء حكم «هيراكليوبوليس» للبلاد.

(٢١) «وابوات»: إله «أسيوط» المحلي وسيّدها.

(٢٢) «تمثالا الترانيم المقدّسة»: مدخل معبد بائد في البرّ الغربي بالقرنة.

(٢٣) «منتو حتب»: بكر أولاد «سهر تاوي أنتف»، توفي قبل وفاة أبيه فاعتلى العرش أخوه الأصغر «واح عنخ أنتف».

(٢٤) «ساق الثور»: الدب الأكبر.

(٢٥) «ماعت»: إله العدل عند الفراعنة.

(٢٦) «الكوكو»: جوز الهند.

(٢٧) «منات»: صاجات.

(٢٨) السستر: المزهر والجلجل في اللغة المصرية القديمة.

(٢٩) الكمكم: الدف عند قدماء المصريين.

(٣٠) السونتي: عطر أساسه زيت النفط.

(٣١) الأنتي: بخور يُخلط بمواد عطرية أخرى وحبوب غير معروفة.

(٣٢) نوبيت: كنية للمعبودة حاتحور.

(٣٣) سخت: إلهة البرّية.

(٣٤) نوت: إلهة السماء.

(٣٥) خرعحا: مصر العتيقة.

(٣٦) الإله صاحب الأجزاء الألف: السفينة.

(٣٧) القرد: القمر.

(٣٨) سيح: المرّيخ.

(٣٩) ثور أمّه: ثور أبيض اللون كان يستخدم للاستعراض في بعض الاحتفالات والأعياد القديمة.

هوامش

(*) عام فرعوني.

(**) رئيس كهنة آمون في الأسرة الحادية عشر.

(***) مقاطع من قصيدة «من أحاديث الكباش» للشاعر الأقصري «حسين القباحي».

استأنس الكاتب بالمراجع التالية:

١- آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية. (محرّم كمال).

٢- موسوعة مصر القديمة «من الأجزاء الأول وحتّى الثامن». (سليم حسن).

٣- الحياة اليومية في مصر. (بيير مونتيه).

٤- موسوعة وصف مصر.

٥- النيل في ثقافة الشعوب الإفريقية. (مجموعة من الباحثين– مهرجان طيبة الثقافي الدولي الثالث ٢٠١١).

٦- النيل «حياة نهر». (إميل لودفيغ).

٧- التطوّر الحضاري للإنسان. (جاكوب برونوفسكي).

٨- كتاب الموتى للمصريين القدماء. (محسن لطفي السيّد).

سيرة ذاتيّة

أنا المكروب الذي ينحت في دأب تأوّهات تعتمل في رأسه، ينحت بروح القلم، لا يكترث لشيء إلّا أن يسطر التاريخ فيض تأوهاته.

أدهم العبودي

محام ومستشار تحكيم دولّي

روائي مصري

عضو اتّحاد كتّاب مصر

مقرّر لجنة القصّة باتّحاد كتّاب مصر

صدر له:

- جلباب النبي «قصص» عن دار وعد للنشر والتوزيع
- باب العبد «رواية» عن دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة
- متاهة الأولياء «رواية» عن دار الأدهم للنشر والتوزيع
- من الطمي تورق الحكايا «مختارات» دار النسيم للنشر والتوزيع

الجوائز:

- إحسان عبد القدّوس في القصّة القصيرة
- الشارقة للإبداع العربي في الرواية
- جائزة اتّحاد الكتّاب في القصّة القصيرة
- جائزة دار النسر الأدبية في الرواية